حول الدعوة إلى

تطبيق الشريعة الاسلامية

ودراسات إسلامية أخرى

حسين أحمد امين



دار سعاد الصباح

حول الدعوة إلى

تطبيق الشريعة الإسلامية

ودراسات إسلامية أخرى

الطبعـــة الثالثـة ١٩٩٢

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٢ - الكـــويت
ص . ب : ١٣ المقطم - القاهرة
تليفـــون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
فاكـــس : ٥٠٦١٠٣٠٠

رقم الإيداع : ٤٨٤١ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 – 00 – 3471 –1

الاشراف الفني : حلمي التوني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

في هذا المجلد سبع عشرة مقالة سبق نشرها في عدد من المجلات العربية .

وقد لقيت هذه المقالات بأسرها من الامتعاض والاستياء ، وبعضها من الهياج والثورة ، ما كان يبرّر تسميتها باسم كتاب برتراند راسل « مقالات مكروهة » ، لولا أنها أثارت في نفس الوقت من حماس البعض الآخر وإعجابه : ما شجّع الناشر وشجّعني على نشرها في كتاب

وأبادر فأقول : إن ثمة طائفةً لم يطربني مدحُها ، وطائفةً لم يُغضبني قدحُها . فإن كان بعضُ الملاحدة الجاحدين قد سَرَّه أن أتعرّض بالهجوم والانتقاد لعدد من المظاهر القبيحة في مسلك أنصار الجمود والجماعات الدينية المتطرفة ، وشاء أن يرى في هذه المظاهر سمات لصيقة بالدين ذاته ، فقد أخطأ خطأً فادحاً في فهم قصدي وتأويل مرادي . وإن كان بعض المتحجرين ، أعداء التقدّم والاستنارة ، قد شاء اعتبار المقالات كلها من أولها إلى آخرها من قبيل التجديف والزندقة ، والحقد على الإسلام ، فلم أكن في يوم من الأيام بالرامي الى استمالته ، أو الآمل في إقناعه . فحديثي ما كان يستهدف إرضاء أولئك أو هؤلاء ، ولا إرضاء أحد في الواقع على الإطلاق . وإنما كان يستهدف عرض مفهومي عن إسلام مستنير مساير لروح العصر واحتياجاته ومشكلاته ، ومفهومي عن الأباطيل وطبيعة العقليات والمواقف التي تعرقل أداء الإسلام لرسالته . وقد استلهمت كتاب الله عزّ وجلّ في تكويني لهاذين المفهومين ، وكذا السيرة العطرة لأحبّ خلق الله الى نفسي ، وأعظمهم في رأيي : محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب . وما كنت لأجد القوة والجرأة على أن أكتب ما أكتب ، أو أنشر ما أنشر ، لولا اعتقاد راسخ غامر عندي بأنه عليه الصلاة والسلام راض عما أصنع ، مبارك لما أفعل ، مقرّ لما أذهب إليه .

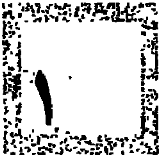
قصدني قومٌ من الملاحدة يهنئونني على ما أكتب ، فساءهم أن يروني أستقبل تهانيهم استقبالي لنبأ يقضّ المضاجع . والتقيت بقوم من المتحجرين أو المتاجرين بالدين فسبّوني وأغلظوا لي ، ومنهم من أبى مصافحتي ، فساءهم أن يروني أستقبل لعناتهم استقبالي لمباركة إلهية . غير أن ثمة فريقاً ثالثاً غير هاذين : هو ذلك الذي يرى الدّين القويم عمادَ حياته ، وأملَ أمته ، ويؤلمه أن يرى الخرافات والخزعبلات والأوهام وقد تراكمت حتى ما عادت تستبين ملامحه ، ولو عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا في يومنا هذا لما تعرّف عليه . أناسٌ قد أخذوا حظاً وافراً من الثقافة ، وقبلوا ثمارَ العلم ونتائجه ، ويريدون لأنفسهم ديناً يملأ القلب ، ويغذو العاطفة ، ويهذّب الخلق ، ويُعلي في نفس الوقت من شأن العقل ، داعياً إلى التزوّد بالعلوم ، وإلى المواقف الإيجابية الفعّالة النشطة من الحياة ، ويرى الإنسان خليفةً للّه في الأرض ، ولا يقرّ من العقائد ما خالف النتائج الثابتة التي توصّل إليها عقله الذي هو أيضاً من نعَم الخالق على الخلق .

هذا الفريق الثالث ، ومنهم زوجي وبناتي الثلاث ، هو من أكتب له ، ويهمّني أمره ، ويسرّني تجاوبه بالرضا ، وآخذ اعتراضاته وتحفّظاته بعين الاعتبار ، ويسوؤني أن أرى بعض أفكاري وقد ساءه . وقد أفلح بعضهم في أن يصحّح لي بعض المفاهيم ، ويثنيني عن بعض المواقف ، وينبّهني إلى أخطاء وقعتُ فيها ، وهم قد انزلقتُ إليه . فإن كان بقي في الكتاب ما قد لا يرضى عنه هؤلاء ، فهي نقاط قابلة لأن أعيد النظر فيها ، ولأن أصحّحها متى اقتنعتُ في مستقبل الأيام بوجهة نظرهم . . فشعاري الذي أضعه دوماً نصب عيني ، والذي يطالعني صباح مساء في حجرة مكتبي إذ أجلس للتفكير أو الكتابة ، هو قوله الإمام الشافعي رضي الله عنه :

« ما ناظرتُ أحداً قط فأحببتُ أن يخطىء ، وما كلّمتُ أحداً وأنا أبالي أن يبين اللهُ الحقَّ على لساني أو على لسانه » .

حسين أحمد أمين

القاهرة في ٢٠ أكتوبر ١٩٨٤



بروتوكولات حكماء الغرب

أجدني عاجزاً عن استساغة ما يُكنّه الكثيرون في أقطارنا الإسلاميّة من مشاعر الكراهية للغرب ، والغضب إزاء نواياه وخططه ومسلكه تجاهنا . وحجّتهم في هذا قائمة على أساس مفاهيم طوباوية عن العدالة لا أجِدُ لها تبريراً . وهي مفاهيم لا يلجأ إلى التلويح بها غير الفريسة الآدمية إذ تقع في براثن مفترسها ، وكسلاح أخير . غير أن الطير والحيوان لا تعرفها : هي تعرف الخوف والحذر والدفاع عن النفس ، ولا تعرف الكراهية والغضب والتحسّر على النفس . وقد كان السمك الكبير دوماً ، وسيظل دوماً ، يأكل السمك الصغير . والسمك الصغير إما أن يهرب ، أو يختبىء ، أو يقاوم . غير أنه لا يحتجّ بوثيقة حقوق ، ولا يتّهم الكبير بغدر أو قسوة ، ولا يلجأ إلى مجلس أمن .

وقد كانت الدول الإسلامية نفسها في عصر من العصور على وشك التهام القارة الأوروبية بعد التهامها لأقطار أخرى عديدة في أفريقيا وآسيا . فما خلّص أوروبا غير انتصار جيوشها على المسلمين في وقعة تور ، وعند أبواب فيينا . صحيح أن المسلمين إنما كانوا يقصدون بغزوهم نشر الدين الحقّ لا النّهب والاستغلال ، غير أن الأوروبيين أيضاً احتجّوا عند غزوهم لأقطار

المسلمين بأنهم إنما يقصدون نشر المدنية (عبء الرجل الأبيض) ، أو وقف مظالم يتعرّض لها حجيج ، أو تعاني منها طوائف .

وقد يحتجّ بعض المسلمين بأن الاستعمار الإسلامي لدولة كأسبانيا كان بنّاء ، وفي خدمة التمدين والعمران ، ولم يتخذ شكل النهب والسلب والتفرقة العنصرية الذي اتّخذه الاستعمار الأوروبي لدول آسيوية وإفريقية . غير أن الاستعمار الأوروبي لأمريكا الشمالية وأستراليا كان هو الآخر بنّاء وفي خدمة التمدين والعمران ، في حين لم يجلب الاستعمار العثماني للبلقان غير الخراب .

شرعية الالتهام

أقول ، إنه لا محلّ للغضب والشكوى من أننا قد بتنا والغير على وشك التهامنا ، بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى من أن نلتهمه . وعلينا أن نتقبّل شرعية الالتهام في عالمنا هذا ، وأن نقصر تفكيرنا وجهودنا على كيفية الإفلات ، إن كان ثمة فرصة للإفلات .

والسمكة الكبيرة إن هي أحجمت عن التهام الصغيرة فلسبب من أربعة ليس من بينها مفهوم العدالة أو حقوق الأسماك :

الأول : أن تكون شبعى وفي غنى عن البحث عن فريسة . كذا كانت ألمانيا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر . غير أن هذا الامتناع مؤقت ينتهي بانتهاء دواعيه ؛

الثاني : أن تكون السمكة الصغيرة أضمر جسماً وأهون شأنا من أن تُغرى بالالتفات إليها . وكذا كانت شبه الجزيرة العربية قبل اكتشاف النفط فيها ؛

الثالث : أن تتنازع سمكتان كبيرتان عليها ، فيؤجل التهام الصغيرة إلى

حين انتصار إحداهما على الأخرى . وفي التاريخ أمثلة جمّة لكيف أجّل الإصرار على توازن القوى ، أو التنافس والتنازع بين دولتين عظميين ، وقوع أقطار في براثن الاستعمار ؛

أما السبب الرابع : فهو أن يكون لدى السمكة الصغيرة نفسها من سبل الدفاع عن كيانها ما يحول بين الكبيرة وبين التهامها مع تفاوتهما في القوة كما في حالة السمك الكهربيّ الذي تولّد أعضاء فيه الكهرباء بإرادته متى أراد حماية ذاته ، أو قنفذ البحر الذي تَحُول أشواك جسمه دون التهام الأسماك له .

وليس معنى وقوع الأقطار الإسلامية ، مذ باتت غير ذات شوكة في الشّباك التي نصبها الغرب لها ، أن هذه الأقطار باتت غير ذات شوك فالشوك الذي ينغّص على الغرب أكلته ، ويؤلمه في قضمته ، لا يزال قائماً . غير أن جهود الغرب في انتزاعه لا تكلّ ولا تفتر ، حتى يغدو اللحم أجرد وسائغاً مستطاباً . كل هذا منطقي ومعقول ، بل ومشروع في عالم كعالمنا ، ولا اعتراض لي عليه . ما أراه مذهلاً هو أن توكل الفرنجة إلى بعض أبناء جلدتنا وملّتنا مهمة نزع الشوك عن أجسادنا نحن ، الشوك الذي يحمينا نحن ، حتى تكون قضمتهم من لحمنا أنعم وأسلس ، بل وأن يتطوّع بعضنا ـ دون توكيل ـ بنزع هذا الشوك ظاناً أن نشاطه هذا من قبيل مواكبة التمدين ، ومن مستلزمات (الموضة) .

كسّارة الجوز

وواضح أن الشوك المطلوب لحمايتنا في عالم اليوم ليس بالأسلحة الحربية ؛ فعند السمك الكبير أضعافها . وليس هو السلاح الاقتصادي مهما تشدّقنا بذكر أهمية سلاح النفط ؛ إذ باستطاعة الدول الكبرى أن تلتهمنا بحقول نفطنا في غمضة عين ، لحظة أن ترى أن تهديدنا باستخدام هذا السلاح قد خرج عن حدود التهديد الكلامي . كما أنه لا يكمن في حياد ، أو انضمام إلى كتلة عدم انحياز ، أو حضور مؤتمر قمة آسيوي إفريقي ، أو الاستجارة من

الرّمضاء (الاتحاد السوفييتي) ، بالنار (الولايات المتحدة) .

إنما أرى الشوك الواقي لنا من فكوك الفرنجة في ديننا وتراثنا ولغتنا وتقاليدنا ، وفي حرصنا على التمسك بهذا كله كل الحرص ، واعتزازنا به . ففي اعتقادي أنه بمثابة قشرة الجوز التي يصعب على أضراس الغرب كسرها للوصول إلى ما يليها .

والغرب يدرك هذا الأمر الذي تجهله غالبيتنا إدراكاً واعياً تاماً ، كما يعلم جيداً أن جهلنا بهذه الحقيقة أمر بالغ الحيوية بالنسبة له . والمصيبة ليست فقط في جهلنا إياها ، وإنما هي أيضاً في تطوّعنا بتقديم كسّارة الجوز للفرنجة ، تسهيلاً منّا لمهمتهم ، وإشفاقاً على أسنانهم البيضاء من غلظ القشرة .

وقد انتهجت أذكى الحيل من أجل تفريغنا من مضموننا ، وتجريدنا من سلاحنا ، دون أن نشعر بهذا التفريغ أو ذاك التجريد . وسيأتي الوقت الذي نقصد فيه المخبأ الذي نظن كنزنا مستقراً فيه سالماً ، فإذا قضبان الذهب وقد استبدل اللص بها قوالب الطوب ، وإن كان قد ترك الصندوق والأقفال على حالها حتى لا يثير شبهة تدعونا إلى المعاينة للاطمئنان . قد نظن احتفالنا برمضان قائماً إذ تعدّ إدارة التليفزيون له الفوازير ، وتكثر من إذاعة المسلسلات التمثيلية الدينية فيه . وقد نحسب أننا لا نزال مسلمين إذ نمتنع عن أكل لحم الخنزير في الوقت الذي لا تكاد تكون بين حياتنا ونمط العيش الإسلامي أدنى صلة . وقد نخال أننا نتحدث ونكتب العربية لمجرد أننا ننطق بالضاد ونكتب من اليمين إلى اليسار ، في الوقت الذي نسمي فيه كتب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي كتباً صفراء ونسخر من الناظرين فيها . وقد نتوهم أن تقاليدنا مستمرة إذ تقدم فنادق الشيراتون والهيلتون عروضاً لرقص البطن والعزف على المزمار ، وتخصص (الكافيتيريات) فيها لسندوتشات الفول .

فلو أني اهتديت بفكرة أفلاطون عن عالم المثل لتخيلت وجود بروتوكولات كتلك التي تنسب إلى حكماء صهيون، قد خطها الغرب لتحكم مصائرنا وأسس تعامله معنا. وبوسعي أن أتصور أن يكون بعضها على النحو التالي:

* فيما يتعلق بالمثقفين: لنخلق رابطة متينة بين أسلوب معيشتهم وأسلوب المعيشة في الغرب، واحتياجات لديهم لا تسدها غير منتجات مصانعنا، وأذواقاً لا يرضيها غير آدابنا وفنوننا. ولنعودهم سفر الطائرات، وحضور ما تعقده من مؤتمرات، والإقامة بفنادق الشيراتون. أطلعهم على مفاتن الفيديو، ثم أقم له النوادي بعواصم بلادهم. ولا تغفل زوجاتهم فهن أخطر شأناً وأضل سبيلاً. وهن وحدهن كفيلات إذ يزدن من الاستهلاك في محيط أسرهن، بأن يدفعن أزواجهن دفعاً إلى محاولة زيادة دخولهم بالبحث عن وظائف في بنوك أو شركات أجنبية، وبتقديم المشورة وإعداد البحوث لمؤسسات عالمية.

* فيما يتعلق برجال الدين: أفسح مجال الشهرة للخطباء والوعاظ المسفين السطحيين منهم، حتى ينفروا بإسفافهم وضيق أفقهم وانشغالهم بتوافه الأمور عن القضايا المهمة لشعوبهم، جمهور المتعقلين المستنيرين منهم ومن الدين بأسره.

* فيما يتعلق باللغة العربية وآدابها وتراثها: أثر سخرية الناس منها ومنهم، بأن تتضمن الأفلام السينمائية والعروض المسرحية والتليفزيونية ممثلات عربيات بغيضة متحذلقة منهم، يتكلمون الفصحى بطريقة تنفر وتضحك في آن واحد. واحرص على أن تكون دروس العربية في المدارس في آخر اليوم الدراسي حين تكون الأذهان قد كلت، والنفوس قد ملت، وخصص دروس الصباح الأولى لتعليم اللغات الأجنبية. ولكن ما يدل على الطريقة تورث المهجة

والمسلك ، محدود الأفق والثقافة ، بالمقارنة بغيره من المدرسين . ولتكن طباعة كتبها من السوء والقبح بقدر ما تتميّز به طباعة كتب اللغات الأجنبية من أناقة وجمال ، حتى ترتبط العربية في أذهان أطفالهم الغضّة بالقبح مدى الحياة. فإن دُرِّس الأدب العربيّ لهم فليكن المختار منه هجاء الفرزدق لجرير الذي يلقّبه فيه بابن الحمار ويفخر بخاله على خال جرير . وليكن المختار من الأدب الانجليزي مسرحية مكبث وقصائد كيتس .

* وفيما يتعلق بالتقاليد : فلا بأس من الإبقاء على بعضها ذرّاً للرماد في الأعين ، ولكن بعد تفريغها من كل روح ، بحيث تكفي ـ وقت الحاجة ـ نفخة واحدة للإطاحة بها . أقم هيكل المجتمع الجديد على أساس لا مكان فيه للتقاليد التي تمثّل عائقاً دون تقبّل أسلوب المعيشة الغربي ، وقد وضح أن للأفلام السينمائية الأجنبية تأثيراً لا يعادله تأثير في زعزعة القيم في النفوس . فلتكن هي أداة رئيسية في سبيل غرس قيم جنسية وأخلاقية واجتماعية غريبة كل الغرابة على القيم الشائعة في مجتمعهم . ولا تهزأ بأمور تبدو تافهة وهي أبعد ما تكون عن التفاهة فيما يتصل بالتقاليد والعادات ، ككعك العيد ، أو نقل رمضان وفوانيسه . فلتوحِ إلى اقتصاديّيهم وصحافيّيهم بالسخرية من مثل هذه العادات ، والتظاهر بالفزع إزاء العبء الذي تتحمّله بسببها مالية الدولة ، ولْتقنعْ ربات البيوت بأن شراء الكعك والمربى من المتاجر أجدى من حيث الراحة وتوفير الوقت ـ بل والمال ـ من صنعها لهما بالبيت .

* وفيما يتعلق بالعامة : فإن مجرد نشر العادات الاستهلاكية الشائعة في الغرب ، وغرس الاعتقاد بتفوق أساليب الحضارة الغربية وأنماطها ، وتعزيز ذلك بتأثير الأفلام ، وتأثير الطبقات الأغنى المتفرنجة ، كفيل بخلخلة قيمهم ، وتغيير مفاهيمهم . ولا بأس إن ظلّت لديهم بقية من دين ؛ فالأرجح ـ بل الموثوق منه ـ أنها لن تتعدّى زيارة الأضرحة ، والتفوّه من حين لآخر بعبارات دينية معينة لا ضرر منها ، ومصمصة الشفاه كلما سمعوا من وعّاظهم قصة خارقة لقوانين الطبيعة ، والتمتمة بالصلاة والسلام على النبي عند ذكر

اسمه ، والسؤال عند تقديم اللحم في المطاعم عما إذا كان لحم خنزير ، وكأنما في الامتناع عن أكله لبّ الدّين كله وجوهره . غير أن الأهم من هذا وذاك هو شغلهم بكسب القوت ، وزيادة الرزق ، وتنمية القدرة على استهلاك الكماليات والرغبة فيها ، فلا يكون همّ أحدهم إلا نفسه « وما هو فيه من دَبَرِ دابته، وقَمْل فَرْوته» . وعلى أي حال فإننا مطمئنون من هذه الجهة، ونلاحظ بعين الرضا كيف أن بعض السباكين والسمكرية بات يسمّي حانوته « دابل تو » و « سويت سيكستين » .

* وفيما يتعلق بالمرأة ، فنحن أكثر اطمئنانا بحيث يمكن ألا نشغل بالنا كثيراً بها . فالمرأة بوجه عام أكثر مسايرة للمجتمع الاستهلاكي من الرجل . والأخلاقيات الجنسية عند نساء كل من الطبقة العاملة والطبقة الأكثر غنى تقترب بخطى سريعة ثابتة من مفاهيم المرأة الغربية . ولا مفرّ من أن تشكّل النسوة من هاتين الطبقتين ضغطاً متزايداً ، من فوق ومن تحت ، على المرأة البورجوازية .

* كذلك فإن حال الشباب يدعو إلى الرضا . قارن الشباب منذ جيل أو جيلين حين كان الفرد منهم إما ماركسياً أو أخاً مسلماً أو وفدياً أو مجرد فتى مثالي يحلم بالثورة ، ولا يكاد يطيق الانتظار حتى يفرغ من دراسته حتى يكرّس نفسه لتغيير الأوضاع الظالمة ، وبين شباب اليوم الذي تتطلّع غالبيته إلى العمل بأحد الفنادق ، أو إلى وظيفة بمؤسسة أجنبية ، أو إلى الهجرة فور التخرّج من الجامعة إلى دولة « متحضّرة » .

* الأصعب مراساً من كل هذه الفئات ، بل المشكلة الكبرى ، هي فئة المتدينين ، وهي التي ينبغي أن نركّز عليها جُلّ اهتمامنا . فالمجتمع الإسلامي يسير سيراً حثيثاً في الطريق المرغوب فيه نحو طور ثان من التغريب . وهو واصل إليه حتماً ما لم يقم أفراد تلك الفئة بحركة تربك حساباتنا . غير أن القلق إزاءها لا يعني فقدان الأمل في احتواء إشعاعها . فقد

يكون بالإمكان التأثير في أفكارها عن طريق المثقفين المعنيين بالدراسات الإسلامية الذين دربوا في جامعاتنا على النظرة التحليلية إلى تفسيرهم وإلى تراثهم ، والتأثير في أفرادها برفع المستوى المادي للطبقة البورجوازية الصغيرة التي تنتمي غالبيتهم إليها ، أو بالحد من نطاق مظاهر الفقر حولهم وهي التي تدفعهم إلى المزيد من التشبث بالدين . غير أننا قد نشعر أحياناً بأن قلقنا إزاءهم مبالغ فيه ، وذلك حين نلمس منهم - رغم الحجاب عند نسائهم ، وطول لحى رجالهم ، ورغم التعصب عند الجميع - جهلاً مذهلاً وغير متوقع بأصول الدين ، وبالشريعة والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامي واللغة العربية ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن موقفهم لا يستند إلى أساس متين ، ولا شيء وراءه غير التشدق الأجوف بالدين . . بيد أن الحيطة مع كل هذا واجبة ، والحذر بنا أولى . وليس لنا أن نعزي أنفسنا بأنهم ينهلون أصول دينهم من كتب غثة مليئة بالترهات ، لا من أمهات كتب تراثهم ، ومن خطب أسلح رجال الدين وخطباء المساجد معارف ، لا من أجلة الفقهاء ، واختصاراً فإننا لن نغفر لأنفسنا الاستهانة بهذه الفئة استهانة يمكن أن تؤدي في المستقبل إلى خلخلة الانتصارات التي حققناها بصدد غيرها من الفئات ، وهي الاستهانة التي أبديناها بصدد إيران . وبالمناسبة ، فإنه من المهم جداً في سبيل الإساءة إلى صورة هذه الجماعة في أذهان فئات المجتمع خارجها (وحتى نحصر خطر انتشار تأثيرها) ، التركيز على أهوال ثورة الخميني وفظائعها ، وعلى الخراب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ألحقته تلك الثورة بإيران ، وذلك من قبيل التحذير مما عساه أن يحدث في سائر الدول الإسلامية لو أن الحركات الدينية أفلحت في بسط نفوذها .

الهـــدف

تلك في تصوري بعض بنود « بروتوكولات حكماء الغرب » التي قد أوحي بها لأفراد كتائب كاملة لها . والهدف الأساسي من ورائها جميعاً ، وما ذكرناه منها هنا وما لم نذكره ، هو في إيجاز شديد :

« إحداث تغيير جذري في البنية الطبقية للأمة ، بحيث يخدم هذا التغيير المصالح الاقتصادية والتجارية للفرنجة . ومن وسائل هذا التغيير خلق عادات واحتياجات استهلاكية جديدة ، وتوسيع قاعدة القادرين على الاستهلاك ، والتأثير في أنماط سلوك الأفراد وأخلاقياتهم وقيمهم ، بحيث يصبح طلب المال والإثراء السريع بأية وسيلة من أجل إشباع شهوة الاستهلاك ، هو غايتهم الرئيسية ، وهدفهم الذي ليس وراءه هدف » .

وإنه ليصعب عليّ أن أتفق في الرأي مع من يسمي الانقلاب الذي دبّره ضباط الجيش المصري ضد النظام الملكي ثورة ، ومع من يرى في تحوّل السادات عن طريق الاشتراكية إلى ما يدعى بسياسة الانفتاح ، وفي اتجاهه إلى مصالحة إسرائيل ، انحرافاً حاداً عن سياسة سلفه عبد الناصر . والأرجح في اعتقادي أن كل « نظام » من هذه « الأنظمة » إنما جاء ليحمل الأمة على السير في نفس الاتجاه الذي أريد لها من قِبَل الفرنجة ، حتى لو تظاهر الغرب بالغضب على هذا والرضا عن ذاك ، وبالفتور تجاه هذا والتحمس لاتجاه ذلك .

ففي رأيي أن كلاً من الثورة الحقيقية والتحول الراديكالي يعني بالضرورة إجهاضاً وإحباطاً لاتجاه كان يراد له (لو كان بوسعه) أن يستمر لولا حدوث الثورة أو التحول ؛ فكان الانتصار . أما أن يسقط النظام ، أو تنهار سياسة معينة ، في سهولة ويسر ، بمجرد هزة بسيطة لجذع الشجرة ، أو لهبوب ريح هينة ، فلا يعني لكثير أن مرحلة معينة قد انتهى دورها ، وآن أوان تدشين مرحلة جديدة ، على نفس الطريق ، يتولاها أناس جدد

حدث هذا بالنسبة لانقلاب ٢٣ يوليو ، ولاتجاه السادات إلى الانفتاح وإلى الصلح مع إسرائيل .

فكل من عاصر أو قرأ عن حركة ٢٣ يوليو يرى بوضوح أن نظام الملك فاروق خلال السنوات الأخيرة من حكمه ، لم يكن في الحاجة إلى جهد كبير

لإسقاطه ، وأن صورة الأوضاع في ختام عهده كان لا بدّ من الإقدام بسرعة على إجراء تعديل في ملامحها الرئيسية . وقد كان من الممكن أن ينهض بهذه المهمة أناس من أمثال أحمد نجيب الهلالي . ويبدو أنه كان قد اختير بالفعل للنهوض بها حين عُيّن رئيساً للوزراء في أول مارس سنة ١٩٥٢ . غير أنه رؤ ي من الأنسب أن يقوم أفراد جدد ـ من خارج النظام ـ بتدشين المرحلة الجديدة .

كذلك فقد كان واضحاً في نهاية حكم عبد الناصر أنه بات في سبيل التحوّل عن الخط الاشتراكي ، والتقارب مع الولايات المتحدة ، والوصول إلى نوع من التفاهم مع إسرائيل . غير أنه كان من الأنسب ـ هنا أيضاً ـ أن يضطلع بهذه المهمة رَجل غيره كان طوال حكم عبد الناصر على هامش نظامه .

فالمهمة إذن واحدة ، ذات أشكال متغيرة ، ومراحل متعاقبة ، تلك التي سعت كافة تلك « الأنظمة » إلى تحقيقها على مرّ السنين .

وقد كان لا بدّ من أجل البدء في التنفيذ من ضرب الأرستوقراطية والإقطاع . صحيح أن مصر لم يكن بها عام ١٩٥٢ طبقة أرستوقراطية في عراقة ومقوّمات الأرستوقراطية الغربية مثلاً . فجُلّ أفرادها ـ بعد قضاء محمد علي على المماليك ، وتحقيقه قدراً من الاستقلال عن الدولة العثمانية ـ كانوا ممن يدينون لمحمد علي وخلفائه بالثروة العريضة ، أو المنصب الرفيع ، أو التعليم العالي ، أو بها معاً ، مما مكّنهم من انتحال سمت الارستوقراطية . على أنه بالرغم من أنه من النادر أن نجد عائلة أرستوقراطية مصرية تمتد عراقتها إلى أكثر بكثير من قرن ونصف قرن ، فقد تمكن عدد غير قليل من هذه العائلات ـ أحياناً في ظرف جيلين اثنين لا أكثر ـ من اكتساب الصفات البارزة المعروفة للطبقة الارستوقراطية . ومع كل عيوب هؤلاء وأوجه قصورهم ، فقد كانت قد بدأت تتبلور فيهم بشائر سمات خلّاقة إيجابية ، أهمّها طرّاً ، (وهو ما يعنيني هنا) هو القدرة النسبية ، بحكم ثقافتها وهيبتها وكبريائها ، على الوقوف

في وجه الاستبداد وتضييق مجاله .

وقد كان لا بدّ لأية حكومة تنوي النهوض بمهمة إحداث التغييرات الاجتماعية والاقتصادية المطلوبة لتحقيق الأهداف التي سبقت الإشارة إليها ، من ممارسة قدر عظيم من الاستبداد في سبيل الإسراع بتنفيذ هدفها . وقد فهم رجال عهد عبد الناصر ـ أو هم أُفهموا ـ حقيقة بالغة الأهمية : وهي أن أعجز الشعوب عن مقاومة الحكومات المستبدّة هي تلك التي لم يعد فيها مكان للطبقة الارستقراطية ، ولا في وطنها مناخ يسمح للطبقة الارستقراطية بأن تعيش في ظله . وكان أن رأينا أول ما اتجهت إليه عزائم عبد الناصر ورجاله هو تصفية طبقة الارستوقراطيين والإقطاعيين .

وقد علّمنا التاريخ أن معظم الحكام الساعين إلى فرض استبدادهم وزعزعة دعائم حرية شعوبهم ، يبدأون عادة بالتظاهر بالإبقاء على الشكل الخارجي للحرية،على أمل أن يجمعوا بين السلطة الاستبدادية المطلقة، وإضفاء الشرعية على النظام بدعوى رضا الشعب عنها نتيجة لقيام هؤلاء الحكام بمحالة تحقيق المساواة ، وإزالة الفوارق بين الطبقات ، ومؤازرة الفقير ضد الغني ، والفلاح ضد الإقطاعي ، ورجل الشارع في مواجهة الأرستوقراطي .

كما علّمنا التاريخ أنه بالرغم من أن تحقيق هذه المساواة السطحية من أسهل المهام التي بوسع الحكومات المطلقة إنجازها ، وبسرعة ، فإن مآل هذه المساواة الزائفة هو إلى زوال مؤكد ، وفي أمد قصير ، حيث أنه يتعذّر على هذه الحكومات الاستمرار في تظاهرها مدة طويلة .

الوسيلـــة

فما نجح عبد الناصر في القضاء على الأرستوقراطية ، حتى اتجه بكل طاقاته ـ كما اتجه السادات من بعده ـ إلى تكييف المجتمع التكييف اللازم

لإحداث النتائج المطلوبة ، وخلق الجو الكفيل بانحلال الروابط العائلية والطائفية والطبقية والمهنية . ففي مثل ذلك الجو وحده نلمس في أفراد هذا المجتمع اتجاها طاغياً الى التفكير في مصالحهم الخاصة دون غيرها ، واتخاذ سمت الفردية المطلقة ، والسعي وراء المنفعة الذاتية دون أدنى اهتمام بالصالح العام . وقد شجع هؤلاء الحكام هذا الاتجاه ـ كما شجعوا على انتشار الرذائل وتعهّدوا نموها وازدهارها ـ من أجل أن تحرم المحكومين من أي إحساس بالتضامن ، وتجرّدهم من مشاعر الأخوّة والمواطنة والجيرة الطيبة والحرص على خدمة الجماعة التي ينتمون إليها . فهم يريدون لكل مواطن أن يتقوقع في حياته الخاصة ، وأن يبقى بمنأى عن الآخرين ، وأن يشعر تجاه كل من عداه ـ خلاف أفراد عائلته الصغيرة ، زوجه وأولاده فحسب ـ بالشكّ والنفور .

وإذ تمكن الحكام بعد ذلك بفضل تتابع دساتيرهم وقوانينهم وإجراءاتهم التحكمية المفاجئة من خلق الإحساس لدى الشعب بأنه ما من وضع يمكن الاطمئنان إلى ثباته ودوامه واستقراره ، فقد سيطر على كل فرد فيه الخوف من أن يهبط مستواه الاجتماعي ، والرغبة القلقة في النهوض والارتقاء بهذا المستوى . وحيث أن المال يصبح حينئذ المقياس الوحيد للتمركز الاجتماعي للفرد ، فقد إتجه الجميع في لهفة شديدة إلى تحصيل أكبر قدر منه ، وأضحت أشدّ العواطف تحكماً في النفوس حبّ الكسب والرغبة في الثراء بأي ثمن ، ومن أي طريق ، واللهفة على رغد العيش والحياة المادية السهلة . وقد بادر النظام بتهيئة جوّ السرية اللازم لازدهار النصب والاحتيال ، والسرقة والكسب غير المشروع ، وإطلاق العنان لكل شهوة خبيثة . وكان هدفه من ذلك زعزعة القيم الروحية والأخلاقية للشعب ، إذ رأى في هبوط معنوياته الضمانة الأساسية لتحويل اهتمامه عن الشؤون العامة ، وعن مقاومة الاستبداد ، وعن السعي وراء أي شيء عدا المركز الاجتماعي ، وعدا الثراء الذي هو مقياس هذا المركز ، وعدا التوسع في استهلاك السلع الذي فيه

الدّلالة الظاهرة الوحيدة على الثراء .

فما تحقّق خلق هذا الجوّ حتى جاء السادات بسياسة الانفتاح الاقتصادي .

ثم تدفقت علينا سلع الفرنجة .

* * *

هذا التحليل وحده ، في اعتقادي ، هو الكفيل بأن يفسر لنا كيف تدَلّيْنا إلى ذلك الدّرك الأدنى الذي نعيش الآن فيه .



بضع ملاحظات حول الدّعوة الى تطبيق الشريعة الاسلاميّة

الصيحة تعلو في مجتمعاتنا الإسلامية تنادي بضرورة العودة إلى تطبيق أحكام الشريعة ، وبأن على حكامنا أن يدركوا أنهم يعيشون في أوطان الإسلام ، ويحكمون شعوباً غالبية أفرادها من المسلمين ، وبأن من حق كل قوم أن يُحكموا وفقاً لعقيدتهم ، وأن تأتي دساتيرهم وقوانينهم معبّرة عن معتقداتهم ، وأن تصاغ مناهج التربية والتعليم على ضوئها ، وأن تُرسم السياسات الاقتصادية والاجتماعية والداخلية والخارجية في إطارها .

وهي قولة حق ، ويُراد بها حق :

هي قولة حق ، لأن الله تعالى يقول في كتابه المبين : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

ويُراد بها حق من جانب الكثرة من أصحابها ، بالرغم مما نلمسه من بعض الحكومات وبعض الجماعات والفئات من اتجاه إلى المزايدة الدينية ، وتكثيف التظاهر بالتعلق بأهداب الإسلام ، والتشدّد في تطبيق أحكامه ، وتشجيع التيارات الدينية المتطرفة ، إما بهدف تعزيز السلطة تجاه قوى المعارضة ، (شأن حكومة ضياء الحق في باكستان) ؛ أو كوسيلة لإبعاد شبح الثورة الإيرانية ، (كما في بعض دول الخليج) ؛ أو لخدمة النفوذ والمصالح

الخاصة ؛ أو لإسقاط نظم لا تستفيد هذه الجماعات من بقائها ؛ أو إضعاف هيبة حكومات بتوجيه من حكومات أخرى معادية لها ، داخل العالم الإسلامي وخارجه .

غير أني مع إيماني بضرورة العودة إلى تطبيق الشريعة ، لا أرى أمر هذه الدعوة بالبساطة التي تراها غالبية القائمين بها .

فالمسألة هنا لا تتصل بمجموعات قانونية ، أو مجلدات من الأحكام التشريعية الإسلامية ، قد صيغت صياغة نهائية محدّدة واضحة المعالم ، ويُراد من حكومات أغفلتها زمناً طويلاً أن تعود إلى تطبيقها والعمل بها . إذ ليس ثمة مثل هذه المجموعات . كل ما لدينا ـ عدا القرآن وكتب السنّة ـ هو حشد من كتب الفقه التي ألفها علماء المذاهب الأربعة ، والمذهب الظاهري ، وعلماء الشيعة . والكثير من الأحكام الواردة في هذه الكتب متنافرة متضاربة ، لم تمتد الأيدي إليها بعد للتوفيق بينها ، والخروج منها بصياغة نهائية متفق على العمل بها .

أضف إلى ذلك أن لفظ «الإسلام» قد يُفهم بثلاثة : إما الإسلام كما أوضح مناهجه كتاب الله والسنّة الصحيحة لنبيه ؛ أو الإسلام كما فصّل أحكامَه وأقام صرحَ شريعتِه المتكاملةِ جمهورُ الفقهاء منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وحتى أُغلق بابُ الاجتهاد في بداية القرن الرابع الهجري ، وتم تدوين الكتب الأساسية في الفقه في القرن الخامس ؛ أو الإسلام الذي هو محصّلة عقائد المسلمين في زماننا نحن بما تحويه من معتقدات دخيلة ، وخرافات لا صلة لها بالدين أو بأحكامه التي بلّغها نبيُّ الإسلام قومَه عن ربه .

فإن بادر البعض بالرد بأن المقصود من الدعوة هو العودة إلى أحكام الشريعة كما نصّ عليها القرآن والسنّة الصحيحة ، أوردنا له مثلاً بسيطاً من أجل إيضاح أبعاد المشكلة ، والتدليل على مدى تعقّدها ، وهو حدّ شرب الخمر :

فالخمر والربا سواء في القرآن ؛ حكمهما التحريم . غير أن النص لم يورد أيّة عقوبة دنيوية لأيٍّ من الإثمين : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ (المائدة ٩٠) ، ﴿ وأحلّ اللّهُ البيع وحرّم الربا ﴾ (البقرة ٢٧٥) . فالقرآن هنا إنما يستهدف تقويم المؤمن ، يذكّره بما يجلب له رضا الله عنه ، أو سخطه عليه ، وينبئه بما عسى أن يذيقه نعيم الجنة أو عذاب النار . وهو يفترض أن المؤمن حقاً سيتجنب الخمر والربا من تلقاء نفسه دون حاجة إلى تخويفه بعقوبة دنيوية تجعل من إحجامه عنهما رياء . كذلك نقرأ فيه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ . فتنظيم العلاقة بين العبد وربه يأتي في مقام يسبق تنظيم العلاقة بين أفراد المجتمع . أما التشريعات الدنيوية فتغفل العلاقة الأولى ، ولا تولي اهتماماً لغير الثانية .

غير أن الذي حدث خلال السنوات الأخيرة من حياة الرسول ، وبعد وفاته ، وبدخول أقوام غفيرة الإسلام نتيجة للفتوحات ، دون أن يحدو الكثيرين من معتنقيه الجدد إيمان صادق ، أن أراد النبي فالخلفاء والولاة والقضاة فرض عقوبات دنيوية رادعة على أمور اكتفى القرآن بالنهي عنها ، فكان أن فرض حدّ الضرب على شارب الخمر ، بينما رؤي الاكتفاء باعتبار العقد الذي يتضمن اتفاقاً على ربا عقداً باطلاً لا يستوجب التنفيذ . فما الأساس الذي استند إليه المشرع هنا في التمييز بين الإثمين ؟ فإن نظرنا إلى حدّ شرب الخمر ذاته ، وجدنا في مغازي الواقدي أن الرسول بعد فتح خيبر أمر بكسر زقاق الخمر التي وجدها المسلمون بالحصن . غير أن رجلاً منهم كان لا يصبر عن الشراب ، عمد إلى زقّ خمر فشرب منه . فلما رفعه رفاقه إلى النبي ، ضربه النبي « بنعله » واشترك الحاضرون معه في ضربه « بنعالهم » . وقال عمر : « اللهم العنه ، ما أكثر ما يُضرَب ! » فقال الرسول : « لا تفعل يا عمر ، فإنه يحب الله ورسوله ».. ثم جاء الرجل فجلس معهم كأنه أحدهم .

فلما ولي أبو بكر الأمر ، أمر بجلد شارب الخمر أربعين جلدة . وجاء عمر بن الخطاب فشدّد العقوبة وجعلها ثمانين جلدة ، أُسوة بحدّ قذف المحصنة . فبأيّ العقوبات الثلاث إذن نلتزم والقرآن لم ينص على واحدة منها ؟ ولم اختار المسلمون من بعد ـ وحكومة ضياء الحق في باكستان ـ الحدّ الذي فرضه عمر دون ذاك الذي اختاره النبي أو أبو بكر ؟ وهل بمقدور المسلمين في زماننا نحن أن يختاروا ـ غير آثمين ـ عقوبة أخرى غير تلك الثلاث ؟

فإن ردّ البعض بأن سنّة الصحابة هي أيضاً ملزمة ، سألناه : « فبسنّة مَنْ من الصحابيّين نلتزم وحكماهما مختلفان في هذه الحالة ، بل ويختلفان عن سنة النبيّ ؟ وما هو سند إلزام حكم الصحابة أو التابعين ؟ » . فإن استشهد بآية : ﴿ وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ (النساء ٥٩) ، قلنا : « وماذا عن أولي أمرنا اليوم ؟ » فإن قال: إن إجماع الفقهاء بعد الصحابة والتابعين ملزم ، أجبناه بقول ابن حزم في « المُحَلّىٰ » : « إن هذا لم يأمر اللّه تعالى به قط ولا رسوله عليه السلام ، وإنما أمر اللّه تعالى باتباع القرآن وسنة النبي . قال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ ، وقال : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، وقال : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى اللّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ﴾ . ولم يقل تعالى فردّوه إلى الإجماع . .فمن ردّ ما تنوزع فيه إلى الإجماع لا إلى نص القرآن والسنّة ، فقد عصى اللّه تعالى وشرّع من الدين ما لم يأذن به » .

هذا مجرد مثل أوردناه للتدليل على وعورة المشكلة . ولندلف الآن رأساً إلى صلب الموضوع .

القوانين الوضعية والشرائع السماوية

الأصل في القوانين أنها تُسَنُّ وتتطوّر وتُنسخ ويُستبدلُ بها غيرها ، على ضوء الاحتياجات المتطورة ، وتغيّر العلاقات وأساليب العيش والانتاج في المجتمع الذي تنظّمه وتحكمه ، وأنها بالتالي تختلف باختلاف الزمان والمكان . هذا عن القوانين الوضعية . أما الشرائع السماوية فإن الفقهاء يذهبون إلى أنه لا دخل للاعتبارات التاريخية فيها ، وأن الأصل فيها أنها صالحة لكل مكان وزمان . فالشريعة التي تصلح لتركيا تصلح للنيجر وبنجلاديش ، والتي تصلح لمصر في القرن السابع الميلادي تصلح لها في القرن العشرين . فهي إنما تعبر عن الإرادة الإلّهية التي تحكم المجتمعات البشرية ، ولا تأثير لهذه المجتمعات فيها . ومن ثم فإنه لا مجال للقول بضرورة تطور الشريعة على ضوء التطور التاريخي للمجتمع ، ولا دور للفقيه في إرساء قواعد جديدة أو مواءمة الشريعة مع ظروف هذا المجتمع أو ذاك ، وإنما دوره قاصر على اكتشاف كُنه الإرادة الإلّهية الثابتة غير المتغيرة .

ولن أناقش هنا هذه النظرة من جانب الفقهاء إلى الشريعة السماوية ، رغم أن في مسألة النسخ في القرآن (آيات نسخت آيات ، وأحكام استبدلت بأحكام ، نتيجة لتطوّر الجماعة الإسلامية خلال ثلاث وعشرين سنة من الدعوة ، فما بالك بالتغيرات التي طرأت على مدى أربعة عشر قرناً ؟) ، ما قد يضعف من حجتهم . كما لن أفيض في بيان اعتقادي أن بعض الأحكام القرآنية (كالآية الثالثة من سورة النساء التي تبيح تعدّد الزوجات) راعى أحوال مجتمع الجاهليين ، وقدّر صعوبة فرض أوضاع مثالية ، واكتفى بالحدّ من شرور أوضاع كان من الصعب على الجاهليين قبول استئصالها دفعة واحدة . أو كما قال المشرّع الأثيني سولون لقومه : « ليست قوانيني هذه خير قوانين بوسعي أن أسنّها ، ولكنها خير قوانين بوسعكم أن تقبلوها » .

سأفترض إذن أن الشريعة غير قابلة أصلاً للتطوير على هدي التغيرات

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . ثم أمضي فأعرّف الشريعة الإسلامية بأنها كافة الأحكام التي شرعها الله ليهتدي بها المسلم في سلوكه وعلاقاته ، تجاه خالقه وتجاه غيره من البشر ، ما تعلق منها بالعبادات أو الأسرة أو النشاط الاجتماعي أو السياسي . غير أني أنظر فأجد كتب الفقه المبيّنة « لأحكام الشريعة » من الضخامة ومن الاتساع والشمول بحيث تحدّد لنا الآلات الموسيقية المشروعة والمحرّمة ، وآداب الجماع ، والسباق وغيره من المباريات ، وتصوير الكائنات الحية ، واللباس والزينة ، وحكم دية الكلب ، ورضاع الرجل الكبير ، وحكم طلاق من لا يحسن العربية ، وحكم من أوقد ناراً ليطبخ شيئاً ثم نام فامتدّت تلك النار إلى أمتعة لغيره ، وحكم من كسر عظم الميت ، وحكم من قال لآخر أنت ابن فلان ونسبه إلى عمه أو خاله أو زوج أمه أو أجنبي ، وحكم من سرق خمراً أو خنزيراً يملكه ذمّيّ أو مسلم ، وحكم من اتّهم الساحر بالكفر ، وحكم من أتى بهيمة ، وحكم من أكل من لحم البهيمة بعد أن أتاها رجل ، وحكم من قال لآخر : يا زاني ، فقال : أنت أزنى مني . . . إلى آخره .

فهل هذه الأحكام وأمثالها حقاً من الشريعة ؟ وهل هي ملزمة ؟ فإن قيل بإلزامها فما سندها الإلّهي ؟

إن نسبة الأحكام الشرعية المنصوص عليها في القرآن الكريم ، بل وحتى في الأحاديث النبوية المتفق على صحتها ، هي نسبة ضئيلة جداً إلى الأحكام الواردة في كتب الفقه . ذلك أنه ليس في القرآن غير نحو ثمانين آية تتعلق بموضوعات قانونية ، كحدّ السرقة ، وحدّ الزنا، وأحكام الوصيّة والمواريث . ومعظم هذه الآيات الثمانين اكتفي بإيراد مبادىء عامة تسمح بتفسيرات وتطبيقات شتى يمكن الملاءمة بينها وبين احتياجات كل عصر وظروفه . كذلك اقتصر دور السنة الصحيحة على وضع بضعة أحكام تتصل بالحرب أو السياسة أو شعائر الدين (كأداء الصلاة) ، وهو ما استقرّ اقتداء بفعل النبي أو عملاً بأمره ، وعلى إدخال تعديلات ـ على أسس دينية ـ على

العرف الجاهلي الخاص بالأحوال الشخصية ، وفق ما تقضي به الملابسات المتغيرة . وبالتالي فإنه ليس صحيحاً القول بأن القرآن والسنة قد شرعا أحكاماً تفصيلية محددة لكافة مظاهر حياة المسلمين . والأقرب إلى الصواب القول بأن العمل قد استمر في مجالات عديدة ، أثناء حياة النبي ، بالعرف الذي كان سائداً في الجاهلية .

أحكام الشريعة بعد وفاة الرسول

وبوفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، وانقطاع خبر السماء ، انقطع التشريع المُستقى من القرآن والسنّة . وجاء الخلفاء الراشدون فكانوا يرون من حقهم سنّ تشريعات جديدة بصدد أمور مستجدّة لم يرد فيها نص ، بل وتغيير أحكام أوردها القرآن والسنّة ، متى اقتضت الضرورة ذلك . وقد رأينا كيف استبدل أبو بكر عقوبة الضرب بالسياط لشارب الخمر ، بالضرب بالنعال . ونعلم جميعاً كيف أبطل عمر قطع يد السارق في عام الرمادة ، وكيف نهى عن نكاح المتعة والإستمتاع بالقبضة : « متعتان كانتا على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنا أنهي عنهما وأعاقب عليهما » ، وكيف ألغى حصة المؤلّفة قلوبهم من الصدقات والآية تقول ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم . . . ﴾

وقد استمرت العلاقة قائمة بين الشريعة والعرف ، بل وزاد تأثر الشريعة الإسلامية بالعرف على إثر الفتوحات واسعة النطاق ، إذ جلبت شعوب الأقطار المفتوحة إلى الشريعة تأثير العرف السائد في حضاراتها الأكثر تعقيداً ، محتجة بأن الأحكام البسيطة والمبادىء العامة التي جاءها بها العرب ، غير كافية لتنظيم شؤونها ، أو بأنه من المتعذر تطبيقها في أحوال شتى . وقد نتج عن تطعيم الشريعة بعرف هذه الشعوب أن سهّل على الشعوب الرضا بالإسلام ، وإن كان قد نجم عنه أيضاً أن اختلفت أحكام الشريعة من قطر لقطر ، حتى بات ثمة مبرر للحديث عن إسلام عراقي ، وآخر حجازي ، وثالث شامي أو

مصري، خاصة بعد أن ذهب أبو حنيفة في العراق، ومالك في المدينة، إلى إمكان اللجوء إلى الرأي وإعمال الفكر الشخصي ، ومراعاة أحوال البيئة في التشريع ، حيثما لا يوجد حكم قرآني صريح يؤخذ به ، أو يقاس عليه .

ولنضرب مثلين للإيضاح :

فالمشاعر الطبقية في العراق كانت واضحة جلية ، بتأثير البناء الطبقي العريق في الامبراطورية الفارسية الساسانية ، وبسبب اختلاط مسلمي العرب بمسلمي العجم في العراق على نحو لم يشهده قطر إسلامي آخر . وقد نتج عن هذه المشاعر الطبقية أن نص المذهب الحنفي على شرط الكفاءة في الزواج (أي أن يكون الزوج كفؤاً لزوجته ، أو لأسرتها ؛ في أمور معينة كالنسب والمال) . وهو شرط تجاهله الإمام مالك في كتاب « الموطأ » تجاهلاً تاماً ، ربما بتأثير الروح الديموقراطية والمساواة العربية في مجتمع المدينة .

كذلك فيما يتعلق بالرّقّ . فقد عكس المذهب المالكي في الحجاز وضع الرقيق باعتبارهم أفراداً في الأسرة فأعطاهم حق الملكية . وهو حق أنكره عليهم المذهب الحنفي في العراق بتأثير من المشاعر الطبقية التي أشرنا إليها ، وبتأثير القانون الروماني الذي ترك طابعاً واضحاً على الفكر القانوني العراقي .

فهل يمكننا اعتبار شرط الكفاءة من أحكام الشريعة الإسلامية ؟ وأي الحكمين تقول به هذه الشريعة : منح العبد حق الملكية ، أم حرمانه منه ؟ وهل من الجائز أن نقول إن هذه الأحكام وأمثالها تعبر عن إرادة إلٓهية ؟

تأثير الشافعي

ثم جاء الشافعي فاستنكر هذا الوضع الذي ارتآه يؤدّي إلى « تمييع » الإسلام ، وإلى اختلاف أحكامه من جيل لجيل ، ومن قطر لقطر . وأنكر على أبي حنيفة إمعانه في التعقّل وشدّة اعتماده على إعمال الفكر والرأي الشخصي والاستحسان . كما أنكر على الإمام مالك تأكيده لحق المسلمين في استبعاد

بعض الأحكام التي استنّها الرسول متى نشأت اعتبارات فقهية تجبّها ، أو كان ثمة نص قرآني يقضي بغيرها . وكان أن رفع الشافعي أحكام السنّة إلى مصاف الأحكام القرآنية ، وذهب إلى أن للسنة ـ شأن القرآن ـ مصدراً إلهياً . فهي التي أسماها القرآن « الحكمة » في آية ﴿ وأنزل اللّه عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم ﴾ . وكل كلمة صدرت عن النبي مذ بعثه اللّه رسولاً إلى قومه إلى أن مات ، وكل عمل أتى به ، كان بتوجيه من اللّه تعالى ، (رغم أن رسول اللّه لم يدّع قط أنه معصوم من الخطأ إلا حين يُملي أو يتلو آيات ربه ، ورغم أن القرآن ذاته نبّهه إلى أخطاء بدرت منه) . ثم ذهب الشافعي إلى ضرورة جمع أقوال النبي والروايات عن أفعاله من أجل اتخاذها مصدراً ثانياً للشريعة . بل وذهب إلى أبعد من هذا حين وافق قول الشيباني بجواز أن تنسخ أحكام السنة أحكام القرآن ، إذ يتحدث (أي الشيباني) في كتاب السِّير الكبير عن « نسخ الكتاب بالسنة المشهورة التي تلقّاها العلماء بالقبول الجائز » .

هذا الموقف الحميد من الإمام الشافعي (ومن أحمد بن حنبل من بعده) ، يمكن الدفاع عنه على أساس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان أعظم الناس فهماً لمشيئة الرحمٰن ، وأقدرهم على سنّ الأحكام الموافقة للإرادة الإلٰهية . غير أن العواقب العملية لهذا الرأي كانت وخيمة على أمة المسلمين . ذلك أنه إزاء تنوع شعوب الأقطار المفتوحة ، وتباين خلفيّاتها الحضارية واحتياجاتها المعيشية ، وإزاء ضغط الظروف التاريخية دائبة التغيّر ، شعر المسلمون بأن مثل هذا الرأي الفقهي الجديد ، خاصة بعد أن نجح في أن يفرض نفسه على المذاهب الأخرى ، حتى المذهب الحنفي ، من شأنه تجميد الشريعة ، وتكثير الأحكام الملزمة ، وتضييق نطاق الرأي والنظر الخاص ، وسلب الشعوب حريتها في تشريع ما يناسبها ، وهي حرية كفلها لها أبو حنيفة ومالك في حدود الأحكام القرآنية القليلة .

غير أن الشعوب كثيراً ما تملك من الوسائل الفعّالة ما يمكّنها في نهاية

الأمر من تجاوز العقبات والقوانين الصارمة التي يضعها الحكام أو الفقهاء في طريقها فتعرقل سعيها . وكان من وسائل الشعوب الإسلامية هنا للتحايل على هذا المصدر الثاني الجديد للشريعة هو اختراع الأحاديث يضمّنونها آراءهم المسايرة للتطور ، ثم نسبتها إلى النبي ، مختلقين لها الأسانيد ، في صياغة قريبة من الصياغة السائدة للحديث في زمنه عليه السلام ، ويعتبرونها ملزمة وصالحة لكل زمان ومكان . حتى إذا ما جاء جيل آخر ، ذو احتياجات جديدة ، اختلق هذا الجيل المزيد من الأحاديث التي تعبّر عن هذه الاحتياجات المخالفة لاحتياجات الجيل السابق ، ونسبها أيضاً إلى النبي ، واعتبرها ملزمة وصالحة لكل زمان ومكان ! وبالرغم من أن رجالاً أفاضل من رجال القرن الثالث الهجري ، - هم البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، تصدّوا لمهمة تنقية الحديث (لكن - للأسف - على أساس التحقق من صحة الإسناد لا معقولية المتن) ، فإن هذا لم يحُل دون قيام حال من الفوضى الشاملة في ميدان الحديث ، وتدهور في أخلاقيات الفقهاء والعامة ، وتغييرات خطيرة أخفت ، أو كادت تخفي ، المعالم الحقيقية للإسلام .

وثمة دافع آخر دفع المسلمين في القرون الأولى من تاريخ الإسلام إلى اختلاق الأحاديث . فقد كان من بين آثار إتساع رقعة الدولة الإسلامية أن كثر اختلاط الفاتحين العرب بأتباع الديانات الأخرى ، خاصة اليهودية والمسيحية والمانوية ، وبالتالي عظم تأثر الأولين بعقائد الآخرين . غير أن المسلمين كانوا شديدي الحرص في نفس الوقت على نفي تأثر عقيدتهم بعقائد غيرهم ، وذلك بالرغم من إيمانهم النظري بأن الإسلام دين كافة الرّسل من وقت آدم إلى محمد، وأن القرآن إنما جاء مصدّقاً لما ورد في التوراة والإنجيل . فلم يكن هناك مبرّر إذن للجزع من التأثر بتعاليم الديانات السماوية الأخرى إلا ما أفسده أتباعها منها أو ما حرّفوه . لذلك بدأ البعض يصوغ الدخيل في عقيدته من تعاليم التوراة والإنجيل وأحكامهما في صورة أحاديث نسبها إلى نبي

الإسلام نفسه ، ويفسّر القرآن تفسيراً يوحي بمعاني تلك التعاليم الدخيلة ، حتى يطمئن جمهور المسلمين إلى أن مصدرها إسلامي خالص .

قد صار من السهل إذن على هذا المسلم أو ذاك ـ خاصة في العصور التي ضعف فيها سلطان التقوى على النفوس ـ أن يتجنب الالتزام بهذا الحكم أو ذاك ، بأن يخترع حديثاً أو ينتقي لنفسه ما يوافق هواه من بين ذلك الحشد الهائل من الأحاديث الملفّقة المتضاربة المتناقضة . وكان أن سهّل ذلك الوضع على حكومات الأقطار الإسلامية ـ اعتباراً من القرن التاسع عشر ـ أن تلجأ في تشريعاتها المدنية والجنائية والتجارية والإدارية إلى التوسع توسعاً عظيماً في الاقتباس من القوانين الغربية ، وإطراح الشريعة الإسلامية فيما عدا ما يختص بالأحوال الشخصية ، دون أن تجد أدنى حاجة إلى تبرير هذا التحول عنها .

الإجماع

وأما الوسيلة الثانية الفعّالة التي لجأت إليها الأمة الإسلامية فخاصة بمبدأ الإجماع : وهو التعاليم والأحكام المجمع عليها من أهل الحلّ والعقد في زمن معين . فبالرغم من أن الشافعي هو الذي كان قد اعتبره مصدراً ثالثاً من مصادر الشريعة ، يلي القرآن والسنّة ويكمّلهما ، فقد مضى الفقهاء والأمة بعده قُدُماً فضخّموا من أهميته ، حتى باتوا يرتأونه مصدّقاً للقرآن والسنّة ذاتيهما ، بل وبوسعه أن ينسخ أحكامهما . وقد استقرّ هذا الاتجاه في الإسلام رغم اعتراض الخوارج والشيعة والظاهرية والوهابية وبعض المعتزلة ، فذهب الغزالي في كتابه « المستصفى » إلى ان الإجماع أهم مصادر الشرع ، وأن بوسعه أن يفصل في كل أمور الدين ، وأن إجماع الأمة صواب برحمة إلّهية ، كما ذهب السَّرَخْسِيّ في كتاب الأصول إلى أن حُجّيّة الإجماع كامنة في ذاته ، وذهبت الغالبية إلى أن العادة مصدر من مصادر المعرفة ، وأن الأصلح للأمة يمكنه أن يحدّ حتى من الإرادة الإلّهية ، وقضى المذهب المالكي صراحة بأنه « بالإمكان التخلي

عن القواعد التي قررتها الشريعة إذا ما ثبت أن مصلحة الجماعة تتطلب حكماً يغاير حكم الشرع » .

وقد استند أنصار مبدأ الإجماع إلى حديث يقول : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » . وهو حديث لم تصح لدى الكثيرين نسبته إلى الرسول ، خاصة أن أحداث التاريخ قد أثبتت على نحو قاطع أن أمة المسلمين لا تجتمع أصلاً لا على ضلالة ولا على غير ضلالة .

وقد نوافق من يذهب إلى أن تبنّي مبدأ الإجماع كان نعمة على المسلمين ، إذ سمح لهم بتطوير الشريعة ، وبات بمقدورهم أن يخلقوا بتفكيرهم وأعمالهم عقائد وسنناً، وأن يجعلوا من الإسلام ما شاءوا شريطة أن يكونوا مجمعين ، وإلى أن فكرة الإجماع يمكن استخدامها وسيلة فعّالة للتوفيق والتقريب بين السنّة والبدع المستحدثة ، ولتبرير اقتباس أمتنا ما يلائمها من الحضارات الأخرى . « ذلك أن المسلمين متى اتبعوا عادة من العادات ، أو ألفوا تقليداً من التقاليد ، وارتضاه جمهورهم زمناً طويلاً ولم ينكروه ، أصبحت هذه العادة أو التقليد في النهاية جزءاً من السنة » .

غير أني إنما أتناول هنا موضوع الدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في مجتمعنا المعاصر ، وعليّ واجب التنبيه إلى أن الأخذ بمبدأ الإجماع كثيراً ما أدّىٰ إلى أنّ ما كان يُعتبر في عصرٍ ما بدعة مستنكرة ، بات في عصر لاحق مما يشترط المسلمون مراعاته ، ومما يرون مخالفته بدعة مستنكرة ! وبالتالي صار الداعي إلى إحياء سنة السلف الصالح ، والعودة إلى ما كان عليه الحال وقت النبي والصحابة والتابعين ، مبتدعاً !

مثال ذلك الاحتفال بالمولد النبوي . لقد ظل علماء المسلمين حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) يرون هذا الاحتفال مخالفاً للسنّة ، ونهت غالبيتهم عنه باعتباره بدعة مستحدثة في الإسلام . ومع ذلك فقد صار منذ ذلك القرن عادة لا تنفصل عن صميم الحياة الإسلامية . ولو أن

أحداً منا هاجمه اليوم لافترسه علماء الدين واعتبروه مبتدعاً ضالاً . كذلك كان العلماء في الماضي يستهجنون التوسل بالأولياء ، وينكرون القول بعصمة النبي . أما اليوم فقد صار هذا الفعل وذاك القول ـ بفضل الإجماع ـ من الأمور المقبولة التي لها أن تنسخ سنن الأولين .

فإن نحن أخذنا في الحسبان أن معظم الأحكام الشرعية في الإسلام يستمد سلطانه وصفته الإلزامية من الإجماع ، وأن ثمة جوانب بالغة الأهمية من الشريعة الإسلامية ـ مثل نظرية الخلافة ـ لا تقوم إلاّ على سند من الإجماع ، فكيف يجوز القول بوجوب الالتزام بأحكام شرعية تختلف باختلاف الزمن ، هي من وضع أناس مثلنا لنا ما لهم من قدرة على النظر وإعمال الفكر ، يراها جيل من الأجيال سنّة ، وينكرها الجيل التالي باعتبارها بدعة ، ثم يعود الجيل الثالث إلى الحكم بأنها سنّة ؟ كيف يمكن القول بأن مثل هذه الأحكام ثابتة وصالحة لكل زمان ومكان ، وأن على الحكومات مراعاتها والالتزام بها وإلا وجب تكفيرها والعمل على إسقاطها ؟

الخاتمة

لقد كان من العيوب اللصيقة بالفكر الإسلامي ، وبنظرة المسلمين إلى دينهم ، إغفال الاعتبار التاريخي ومفهوم التطور ، وانعدام القدرة على استيعابهما والأخذ بهما . ولهذا السبب بالذات ظل المسلمون أمداً طويلاً غافلين عن القيمة الحقيقية لابن خلدون ، وهو المفكر الإسلامي الوحيد الذي أخذ بمفهوم التطور . فنظرة المسلمين مثلاً إلى النبيّ هي وكأنما ظلت شخصيته وأفكاره منذ حداثته إلى أن مات ثابتة لم تتطور . كذلك فإن غالبيتهم تتوهّم أن أحكام الشريعة الإسلامية كما وردت في كتب الفقه بين أيديهم ، هي كما قضى بها القرآن والسنة ، وأنها على الحالة التي تركها الرسول عليها وقت وفاته ، في حين يدرك أي باحث في التاريخ الإسلامي أن الشريعة صرح شامخ أقيم معظم طبقاته طبقة طبقة على مدى قرون طويلة ، وبأيدي بشر مثلنا ،

وعلى ضوء تطور المجتمع الإسلامي واحتياجاته .

بيد أن هذه الغالبية لا تقرأ تاريخ الإسلام ، بل ولا تقرأ الكتب الأساسية في الفقه والشريعة ، وجلّ اعتمادها على أحاديث الوعاظ والقصاص ، وعلى كتب هزيلة سقيمة في موضوعات متناثرة ، أو على فتوى من العلماء أو ردّ في صحيفة على سؤال منهم بأن هذا حرام وهذا حلال . ثم ينبري المتشددون منهم ـ وبكل ثقة ـ للتهجم على من يحيد قيد شعرة عن حرفية المتون ، لا يريدونها أن تعني شيئاً يزيد أو ينقص عنها .

لقد حان الوقت ـ في رأيي ـ (إن كان المسلمون يريدون حقاً مواجهة تحدّيات عصرهم) لأن يطرحوا هذا المفهوم الجامد الساذج ، ولأن يدركوا حقيقة أطوار بناء الشريعة . فإن لم يفعلوا فالأرجح عندي أنهم سيظلون أمداً طويلاً وقد استغرقهم التفكير في مسائل لبس الجلباب وتقصيره إلى ما فوق الكعبين ، وضرورة الأكل باليمين والشرب باليمين ، وحكم اقتناء الصور الفوتوغرافية ، وهل شرب الإنسان وهو واقف مخالف للسنة، وضرورة حمل العصا باعتباره من قبيل التمسك بأهداب الإسلام ، وحكم الصلاة بجوار امرأة ، وحكم من تزوج بالجن المتشكل بالإنس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية ، وعما إذا كان الأكل على المناضد يعني الافتقار إلى احترام السنّة وإلى حب رسول اللّه .

كل هذا والأمم حولهم تناقش موضوعات شديدة الاختلاف ، وتفضل العمل على النقاش .

مزيد من الملاحظات
حول الدعوة إلى
تطبيق الشريعة الإسلامية

٣

الشرائع والذرائع

يمكن تلخيص المشكلة التي واجهها التشريع الإسلامي منذ العصر الأموي إلى يومنا هذا في عبارة واحدة :

« الحاجة إلى تحديد العلاقة بين الأحكام التي فرضتها الشريعة ، وبين الاحتياجات الدنيوية والاعتبارات والمصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحكم تطوّر المجتمع ونموّه » .

وقد اختلفت المواقف من هذه المشكلة والحلول المقترحة لها اختلافاً يعكس مداه مبدءان متطرفان : الأول : موقف النظرية الفقهية التقليدية التي ترى في أحكام الشريعة نظاماً إلهياً شاملاً صارماً لا يقبل التطوير ، هو وحده الذي يتحتم الأخذ به في تحديد واجبات الفرد والمجتمع وسلوكهما ؛ والثاني : ذلك الموقف العلماني البحت الذي تبنّته تركيا منذ سقوط السلطنة والخلافة ، والذي يذهب إلى أن مجال الدّين هو ضمير الفرد لا يتعدّاه ، ويتيح للقوى الاجتماعية مطلق الحرية في تشكيل القوانين .

حجّة كلّ من الفريقين

ويستند موقف أنصار المبدأ الأول إلى أن العقل البشري أضعف وأعجز

من أن يفهم وحده طبيعة الخير والشر ، أو حتى طبيعة أي شيء آخر . ولا تتأتّى معرفة الإنسان لما فيه خير له أو شرّ له إلا عن طريق الرسالات والأنبياء . وقد شاء الله برحمته أن يبعث إلى الناس نبيًا تلو نبيّ ، يبيّن لهم مكامن الخير ، ويرشدهم إلى سواء السبيل . وقد كانت رسالاتهم جميعاً واحدة في جوهرها ، وإن اختلف فحواها وفق الأطوار المتدرّجة لنموّ البشرية ، بحيث جاءت كل رسالة أوسع وأشمل وأقرب إلى الكمال من سابقتها فتنسخها . وإذ كان القرآن أكمل الكتب السماوية ، ومحمد خاتم النبيين ، كان في أحكام القرآن وسنّة محمد عليه الصلاة والسلام آخر وأكمل الحلول لكافة المسائل المتعلقة بالعقيدة والسلوك ، وللبشر كافة ، لا يجدر بهم أن يهتدوا إلا بهما وإلى آخر الدهر ، مهما تغيّرت أحوالهم واختلفت مواطنهم .

أما أنصار المبدأ الثاني فيقولون : إن البعض يرى أحكام الشريعة أقدس من أن تُمسّ ، وينسب إلى السلف الذي ينعته بالصالح حكمة خارقة لا يملكها بشر ، ومواهب وقدرات مقصورة عليه دوننا. قد يكون هؤلاء سلفاً صالحاً، غير أنهم بالقطع لم يخبروا ما خبرناه من احتياجات ومشكلات ، ولم يحيطوا علما بما أحطنا به . إنهم أناس مثلنا ، ولكن علمنا بالتاريخ ومقتضيات التطور أوسع من علمهم ، وهو ما كانوا سيقرّون به لنا لو أنهم بعثوا من قبورهم .

والقوانين والأنظمة ينبغي أن تواكب تقدّم العقل البشري . وكلما نما هذا العقل وأضحى أكثر استنارة نتيجة للاكتشافات والحقائق الجديدة ، وجب تطوير الشرائع والأنظمة حتى تساير الزمن . فإن لم نطوّرها وأصررنا على الإبقاء عليها كما كانت ، وعلى أن تحكم مجتمعنا القوانين التي حكمت مجتمع أسلافنا الأقدمين ، كنا كالرجل يصرّ على ارتداء المعطف الذي كان له وهو صبيّ .

ويمضي هؤلاء فيقولون : إن كل جيل مستقل عن الجيل الذي سبقه ، ومن حقه أن يختار القوانين التي يعتقد أنها تحقق خيره وسعادته ، وأن يغيّر مما

تلقّاه من الأسلاف حتى يوافق ظروفه وبيئته واحتياجاته ويحل مشكلاته . فإن سلبناه هذا الحق فإنما نفسح المجال للطغيان ، ونمكّن ليد الماضي الميّتة من أن تحكم قبضتها على رقابنا .

كل من هٰذيـن الموقفين في رأينا لا يمكن لأفراد المجتمع الإسلامي المعاصر الأخذ به : فالأول غير واقعي ، والثاني غير إسلامي . ولست في حاجة إلى التدليل على لا إسلامية الموقف الثاني ، وهو العلماني البحت . لهذا فسأقتصر هنا على بيان أوجه قصور الموقف الأول ، وإثبات ما أذهب إليه من أن الحل إنما يكمن في موقع يتوسّط هٰـذين الاتجاهين ، وهو اعتبار الشريعة مجموعة من الأحكام القائمة على مبادىء وقواعد دينية معينة ، هي مبادىء وقواعد ثابتة غير قابلة للتغيير ، غير أنها في الوقت ذاته ، وفي إطار هذه الحدود ، لا تغفل اعتبارات التطور ، وتسمح بتبني نظم مستحدثة كفيلة بتحقيق مصالح الفرد والمجتمع واحتياجاتهما مما لم يخبره الأقدمون ، وتهيىء للمجتمعات الإسلامية فرصة مسايرة مقتضيات العصر الذي تعيش فيه .

موقف الخلفاء الراشدين فالأمويين

وأبدأ فأؤكد أنه لا سبيل إلى التوصل إلى رأي سديد في هذا الموضوع الشائك إلا على أساس نظرة تاريخية واقعية مجردة من أية مسحة رومانسية ، أو أفكار مسبقة .

لقد التزم الخلفاء الراشدون بوجه عام بأحكام القرآن وسنّة الرسول ، فإن صدرت عنهم أحكام لم ينص القرآن والسنة عليها ، كان صدورها على ضوء معرفتهم بنوايا النبي ومقاصده بحكم صلتهم الوثيقة به .

غير أنه يمكن القول أيضاً :

● أن أحوال المجتمع في شبه الجزيرة العربية لم تكن قد اختلفت بعد

اختلافاً بيّناً عنها وقت الرسول ، وكانت غالبية أفراده من صحابته وجيله عليه السلام ؛

● أن الخلفاء الراشدين سمحوا لولاة الأمصار المفتوحة بمراعاة الأحوال المباينة لشعوب هذه الأمصار عند تطبيق الشريعة ، ويتبني العديد من الأنظمة القانونية التي كانت سائدة فيها قبل الفتح ، متى كانت لا تتعارض تعارضاً صريحاً مع القرآن والسنّة ؛

● أن الخلفاء الراشدين واجهوا ، حتى في شبه الجزيرة العربية ، أحوالاً وأقضية جديدة تحتاج إلى تشريعات تجاوزوا في سنّها الوحي القرآني والسنة ، على النحو الذي أوضحناه في مقالنا السابق عن الشريعة . كما أنهم فرضوا حدوداً وعقوبات على ما كان القرآن والرسول قد اكتفيا بالنهي عنه . وقد ساعدهم على ذلك إمكان تأويل القرآن تأويلات شتى ، بدليل ما رُوي عن عليّ ابن أبي طالب أنه لما أرسل عبد الله بن عباس ليحاج بعض الخوارج، أوصاه بألا يعارضهم بالقرآن « لأنه حمّال ذو وجوه ، ويحتمل معاني مختلفة » .

وكانت مهمة الأمويين بطبيعة الحال أشق وأعقد . غير أنهم تصدّوا للأمر بكفاءة نادرة ، رائين من المحتم استيعاب الكثير من المفاهيم القانونية الرومانية والساسانية ، والإحجام قدر الإمكان عن المساس بالشرائع المحلية مهما اختلفت من إقليم لإقليم ، وإطلاق حرية قضاة الأمصار يفصلون في القضايا وفق اجتهادهم ورأيهم الشخصي ، دون قيد تفرضه الحكومة المركزية أو محكمة عليا في العاصمة تكون أحكامها ملزمة لقضاة الأمصار في القضايا المماثلة . بل إن الأحكام القرآنية ذاتها كان أمر تطبيقها متروكاً للقاضي ، يأخذ بها أو لا يأخذ في حدود علمه بها وعلى قدر تقواه .

ومن الطبيعي أن يكون مجتمع المدينة خلال حكم الأمويين أكثر المجتمعات الإسلامية عملاً بشريعة الله ورسوله ، وأقلها حاجة إلى الاقتباس من شرائع الفرس والروم . كما كان من الطبيعي إزاء الطابع الدنيوي الواضح

للدولة الأموية ، وضعف احتفال خلفائها وولاتها بالفقهاء والأتقياء ، أن يتجمع الكثيرون من هؤلاء في مكة والمدينة ، وقد ملأ قلوبهم الغيظ والحقد على حكومة دمشق ، يتهمونها بالخروج على القرآن والسنة . وقد كرّس هؤلاء الأتقياء جهودهم لرسم معالم حياة مثالية توافق إرادة الله وشرعه ، وتساير ما أراده الرسول لأمة المسلمين ، باحثين عن قصد النبي في كل المسائل سواء أكانت دينية أم دنيوية ، ومطالبين كل مسلم صحيح الإسلام بأن يراعي ذلك كمثال يحتذى . ولم ير الاتقياء في حكم أحد من الخلفاء الأمويين ما يوافق مثلهم العليا إلا عمر بن عبد العزيز ، الذي أسهم جهله بالشؤون السياسية في تدهور أحوال الدولة ثم سقوطها ، وانتقال السلطة من أيدي العرب إلى الفرس .

مهادنة الشريعة للواقع

وقد كان العباسيون ، كما هو معروف ، مدينين في استيلائهم على مقاليد الأمور لكل من الموالي الفرس والفقهاء . لذلك فقد أعلوا مكانة هؤلاء وأولئك ، تاركين للأولين في معظم الأحيان تدبير أمور الدولة ، ومقرّبين للآخرين ومشركين لهم في مجالسهم وتأديب أبنائهم . غير أن الخلفاء العباسيين وولاتهم لم يكونوا في حقيقة أمرهم بأقل دنيوية من الأمويين في مسلكهم وإن تظاهروا بغير ذلك ، ورغم زعمهم أنه ما من غرض يستهدفونه غير إقرار دعائم حكم يرضاه الله ، وعلى أساس من شريعته وسنة نبيّه . وقد ترك هؤلاء للفقهاء والأتقياء حرية البحث والكلام والتأليف في الفقه والشريعة وواجبات المسلم وأحكام القرآن والحديث ،على نحو مثالي محض ، ففقد الصلة تدريجاً باعتبارات الواقع والحياة العملية للمسلمين . وانشغل الفقه من وقتها بتوسيع نطاق الشريعة حتى شمل أدق تفاصيل الحياة اليومية للمسلمين ، يخضعونها لأصرم المعايير الدينية ، والخلفاء والرعية في شغل شاغل عن جهودهم ، وإن تفضّل بعض الخلفاء ، إن بقيت لهم طاقة بعد النظر في أمور

المملكة ، وبعد مجالس اللهو والشراب والطرب والشعر ، بمناقشة مسألة من مسائل الشريعة مع الفقهاء المقرّبين ، وإن ظلّت الرعية على احترامها الظاهري لأحكام الشرع .

وكان أن بات هناك نوع من الهدنة بين الفقهاء والشريعة ، وبين واقع الحياة والسياسة ، أسهم في توفيره رضا الفقهاء عن تقريب السلطة لهم ، وتعظيم أولي الأمر ، وتمتعهم بالجاه والمال ، والسماح لهم بتوجيه النقد من حين إلى حين إلى بعض أوجه سلوك الرعية ، بل وسلوك الخلفاء والولاة أنفسهم ، ولكن في حدود الأدب . وفي مقابل ذلك ، كان على الرعية والحكام أن يقرّوا دائماً بأن أحكام الشرع فوق كل أحكام ، واجبة الطاعة والاتباع والاحترام . ولم يدّع أيّ من الخلفاء الحق في التشريع ، وإن كانوا عملاً كاملي الحرية في أن يضعوا من التنظيمات ، ويصدروا من الأحكام ، وينتهجوا من السياسات ، ما يخالف الشرع مخالفة واضحة ، مسمين إياها سياسة لا تشريعاً . فإن شاء أحدهم ، لسبب ما ، أن يشتهر عند الناس بالتقوى والغيرة على الشرع ، لجأ في مناسبات معينة ، وفي بعض الأحايين ، إلى قطع يد سارق ، أو جلد زانية ، أو إراقة بعض زجاجات خمر .

وقد استمر هذا الوضع طوال العصر العباسي والعصور الإسلامية التالية في جميع أنحاء العالم الإسلامي . كان من الصعب على الفقهاء ورجال الدين ، ومن غير العملي ، أن يكفّروا الغالبية العظمى من أفراد الأمة ، وأن يقضوا بعدم شرعية حكم معظم الخلفاء والسلاطين والولاة . فكان أن خرجوا بالقول بأن طاعة السلطان واجبة برّاً كان أو فاجراً ، وأن السلطان الغشوم خير من فتنة تدوم . أما عن الرعية ، فإن خروجها الدائب على أحكام الشرع وإن كان خليقاً بالإدانة والاستهجان ، قضاء من الله لا رادّ له ، وقد تنبأ به الرسول في عدّة أحاديث ، والمقدّر لأمة المسلمين أن يسير حالها من سيء إلى أسوأ ، حتى يأتي المهدي المنتظر . وعلى هذا يكون في استهانة المسلمين بأحكام الشرع تحقيق لنبوءة الرسول . ولن يكون بالوسع تطبيق الشريعة تطبيقاً كاملاً

سليماً إلا في ظل أحوال مثالية تتحقق بقدوم المهدي المنتظر ، وتشابه الأحوال المثالية في عهد الخلفاء الراشدين . فالوضع الراهن إذن حتمي ومقدّر ولا بأس به ، ما دام الناس يقرّون بأن للشريعة المقام الأسمى ، ويرونها ، رغم عدم احترامهم لأحكامها ، جديرة بالاحترام ، ويعترفون ، رغم عدم تطبيقهم إياها ، بأنها واجبة التطبيق . وعلى أي الأحوال فإن الضرورات تبيح المحظورات . أما الكفر الذي لا كفر بعده ، والأمر الذي ليس بالوسع اغتفاره ، فهو التصريح بالاستخفاف بالشرع ، والتشكيك في حكمة تطبيقه .

وقد كان في هذا الموقف اعتراف صريح بعجز الفقهاء عن ملاءمة فقههم لظروف العصر الذي يعيشون فيه ، وبأن تجميدهم لأحكام الشريعة ، مع إيصاد باب الاجتهاد ، قد جعلا من أمر تطبيقها شأناً نظرياً محضاً ، يمكن الحديث فيه ، والدفاع عنه ، والمطالبة به ، والغضب له ، ولكن ليس بالوسع محاولته في هذا العالم المجبول على النقص والخطيئة .

الحيل والذرائع

وكان الأغرب من كل هذا إقبال هؤلاء الفقهاء أنفسهم ، خاصة الحنفيين ، على ابتداع ما يعرف بالحيل ، وهو تمكين الحكّام وأفراد الرعية من التهرب من الالتزام بأحكام الشريعة ، دون أن يبدو تهرّبهم هذا غير شرعي . وقديماً قيل : إن أردت خرق القانون فعليك الاستعانة بفقيه ضليع فيه ! وعديدة هي القصص في كتب الأدب والتاريخ عن الخلفاء والولاة الذين لجأوا إلى فقهاء يطالبونهم بأن يشيروا عليهم بوسيلة « شرعية » ينقضون بها التزاماً شرعياً ، أو حيلة تتفق مع الشرع يتحايلون بها على أحكام الشرع . وكثيراً ما استفادت الرعية أيضاً ، (ولا تزال تستفيد إلى يومنا هذا) من هذه « الذرائع » ، كما في الالتجاء إلى المحلّل لاسترجاع المرأة المطلقة ثلاثاً دون دخول المحلل بها .

وقد مكّنت هذه الحيل الناس من التوصل إلى نتائج يرجونها ولم يكن من سبيل إليها إلا بالعبث بأحكام الشريعة ، وذلك عن طريق يبدو أنه متفق تماماً مع هذه الأحكام . فالقرآن الكريم مثلاً ينص صراحة على تحريم الربا . غير أن مقتضيات الحياة التجارية والمعاملات ، وعـزوف غالبيـة الناس عن المخاطرة بتقديم القروض دون عوض يغريهم بهذه المخاطرة ، أو عن إقراض المبلغ ثم استرداده دون فائدة بعد مدّة تكون قوته الشرائية قد هبطت خلالها ، جعل الدائن والمدين ، مع التزامهما الظاهري بنص التحريم ، يلجآن إلى الحيلة التالية : وهي أن يبيع المدين متاعاً يملكه للدائن بألف دينار مثلاً ، يقبضها فوراً ، ثم يشتريه منه ثانية في نفس المجلس بألف ومائة ، على أن يدفع الثمن ويتسلم المتاع بعد عام . وبهذا يمكن اعتبار الدنانير المائة فائدة للدين ، ووجود المتاع لدى الدائن رهناً وضماناً لسداده .

كذلك فإنه إذا أراد شخص أن يبيع أرضاً زراعية لآخر ، وخشيا أن يستخدم صاحب أرض مجاورة حق الشفعة الذي تقضي به الشريعة ، فيأخذ الأرض لنفسه دون الراغب في شرائها ، بدأ البائع بإهداء شريط ضيّق من أرضه ملاصق لأرض جاره لمن يريد إبرام العقد معه ، ثم يبيعه الأرض ، فيبطل حق الجار في الشفعة حيث أنه لا شفعة في أرض مهداة ، في حين أضحت الأرض المباعة بجوار الشريط المهدى دون أرض الجار .

وبمرور الوقت اضحت المئات من مثل هذه الحيل ، ومعظمها من وحي الفقهاء ومن ثمار تفكيرهم ، جزءاً لا يتجزأ من التطبيق العملي لأحكام الشريعة . وقد كانت هذه الحيل نتيجة طبيعية وحتمية لذلك الانفصال التام بين النظرية والواقع منذ وقت مبكر للغاية في تاريخ الدولة الإسلامية . وفي التراث الإسلامي عشرات من كتب الحيل التي كتبها فقهاء من المذهبين الحنفي والشافعي ، تهدف إلى تسهيل أمر التحايل على أحكام الشريعة على جمهور المؤمنين الأتقياء ، الذين يهمهم ، في المقام الأول ، أن يلتزموا بطاعة الله !

أرض النفـاق

لا غرو إزاء هذا كله أن يسود المجتمع الإسلامي جوّ من النفاق من الصعب أن نجد له مثيلاً في أي مجتمع آخر . فالإسلام دين للكافة ، ولأهل كل زمان . غير أن الكثير من أحكام القرآن والسنة كان القصد منه علاج شرور المجتمع الجاهلي في شبه الجزيرة العربية . وكان الواجب على الأجيال التالية لجيل النبي وشعوب الأقطار الإسلامية الأخرى ، أن تأخذ نفسها بالأحكام التي قصد بها الدوام والثبات ، وأن تطوّر ، على هدى روح الإسلام وأهدافه البعيدة ، ما هو وقتي عارض ، وفق ظروفها الخاصة وأحوالها المتطورة . غير أنه لأسباب سياسية معينة ، ولطبيعة العربي الكارهة لكل جديد ، والحريصة كل الحرص على الالتزام بسنن الآباء والأجداد ، ولتمسك الفقهاء بنفوذهم المستمدّ من إحاطتهم بأحكام الشرع ، ولأسباب أخرى غير ذلك ، لم يقدّر لهذا الاتجاه أن ينمو في العالم الإسلامي . فكان أن تجمّدت الشريعة وقفل باب الاجتهاد ، وحدثت الهوّة الرهيبة بين القانون وبين الواقع الحيّ . وكان المفروض أن يتنبه الفقهاء إلى هذه الهوّة فيدفعهم ذلك إلى محاولة التوفيق بين الشريعة والواقع من أجل التحكم في الواقع وتنظيمه وتوجيهه . غير أنهم لم يفعلوا ، وفضّلوا ترك الحبل على الغارب للحكام والرعية ، يفعلون ما يحلو لهم ، على أن تظل أحكام الشريعة مثلاً أعلى منفصلاً عن الواقع ، ويؤجل العمل بها إلى حين قيام مجتمع مثالي عند ظهور المهدي المنتظر . غير أن الرعية متعلقة حقاً بدين الإسلام ، معتزة به ، والحكام تستند شرعية حكمهم إليه . . فلا بدّ إذن من نفاق من جانبهم وجانبها وجانب الفقهاء من جانب أمة المسلمين جمعاء . الكافة توقّر أحكام الشريعة ، وأحكام الشريعة لا تطبق وليس بالوسع تطبيقها . والناس في حاجة إلى قوانين تنظّم شؤونهم ومعاملاتهم وتدفع عنهم استبداد الحكام ، ولكن سنّ قوانين غير أحكام الشريعة أمر مرفوض : ترفضه الرعية لأنه مناف للدين ، ويأباه الفقهاء لأنه يعني زوال جاههم ونفوذهم ، ويخشاه الحكام لأنه مكبّل لأيديهم .

وظلت هذه هي حال المسلمين حتى أوائل القرن الماضي : أمة تدعي أن الشريعة الإسلامية دستورها ، ولا دستور غير هوى الحكام ، وأن أحكام الله قانونها ، ولا قانون غير قانون الغابة . ورغم اضطرار حكومات الأقطار الإسلامية في القرن التاسع عشر إلى تطبيق تشريعات الغرب في كل المجالات غير ميدان الأحوال الشخصية ، فقد ظل الجميع على ولائهم الكلامي الكاذب للشريعة ؛ يفضّلون تجاهل مناقضة مسلكهم للشريعة والسكوت عنها على مواجهة صريحة لأصول المشكلة وجذورها ، وعلى محاولة للتصدّي في شجاعة لحلّها . بل إنه حتى المثقفين والمفكرين بيننا ، كانوا إذا اقتنعوا بأنه لم يعد بالإمكان في عصرنا هذا إقرار قطع يد السارق ، أشفقوا من أن يعبروا صراحة عن رأيهم ، ولجأوا ـ كما لجأ عبد العزيز فهمي باشا ـ إلى المداراة والتحايل والتأويل ، والقول بأن القرآن إنما يقصد قطع يد السارق عن طريق توفير العمل وأوجه الرزق له حتى يكفّ عن السرقة ، على نحو قولنا : « قطعت رجله من البيت » بمعنى منعته من زيارته ! وإن رأوا قصر الزواج على واحدة ، ذهبوا إلى أن في عبارة « ولن تعدلوا » وحدها ما يقضي بمنع الزواج من أكثر من امرأة . هذا بالرغم من علمهم ان النبي والخلفاء الراشدين كانوا يقطعون يد السارق فعلاً لا بتوفير العمل له، وأنهم ومن بعدهم كانوا يتزوجون مثنى وثلاث ورباع .

وقد كان ثمة أناس بيننا نادوا بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق . غير أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك خارج نطاق الشريعة والدين ، وربما دون الإشارة إليهما ، ومن منطلق غربي محض . وقد كان ردّ معارضيهم قائماً على أساس الدين والشرع : فالرجال قوّامون على النساء ، والمرأة قد أُمرت بأن تقرّ في بيتها ، وحقوق الزوج مستمدّة من مفهوم الشريعة عن عقد الزواج الذي هو عقد بيع يشتري الزوج بمقتضاه وبما يدفعه من « أجر » حقا في بُضع المرأة . ولو كان المنادون بمساواة المرأة بالرجل ، وبتقييد حق الرجل في الطلاق أو في التزوج من أكثر من واحدة ، مسلمين مستنيرين حقاً ، لا ملحدين ولا

منافقين ». لنادوا بما نادوا به في إطار الشريعة والدين لا خارجه ، ولردّوا على المعارضين بأن هذا المفهوم عن الزواج مفهوم لصيق بالعصر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية ، وبوضع المرأة فيها خلاله ، وأن الهدف التقدمي دوماً لدين الإسلام إنما يتحقق اليوم بتبني مفهوم جديد عن الزواج باعتباره شركة لا عقد بيع أبضاع ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام (الذي تدين نساء وقته لما أوحي به إليه بتحسين وضعها) ، كان لا بدّ سيقرّ دعوتهم الراهنة إلى مساواة المرأة بالرجل ، وكان لا بدّ سيدهش إذ يرى نظام بيت الطاعة لا يزال قائماً بعد أربعة عشر قرناً من زمنه ، دهشته لو أن نظام الرق كان العمل به مستمراً .

المنطلق السليم

ما من أحد إذن من هؤلاء المفكرين واجه المشكلة من منطلق سديد . وأما عن حكوماتنا وسلطاتنا التشريعية فكانت تشعر أحياناً بالحاجة إلى إصلاح الأوضاع تحت ضغط تغير الظروف والاستنارة . غير أنها لم تُقْدم قط على بلورة موقف شامل متجانس من المشكلة الاساسية . كل ما كانت تفعله هو الإقدام من حين لآخر على خطوات متناثرة ؛ خطوة قصيرة في هذا المجال ، وخطوة قصيرة في ذاك ، تخطوها على استحياء وبعد تردد عظيم ورهبة أعظم ، وبعد ألف تمهيد وتمهيد ، ثم قد تتراجع مسرعة عن قرارها إن قامت مظاهرة ضده في معهد ديني ، أو خطب منددا به خطيب من المهيّجين في المساجد . وقد تبادر بالنص في المادة الأولى من دساتيرها على أن الإسلام دين الدولة ، والإعلان عن نية الالتزام بأحكام الشريعة ، مكتفية بهذا النص وهذا الإعلان الكفيلين وحدهما ، في رأيها ، بتهدئة الخواطر ، وإرضاء الضمائر .

ثم تظهر جماعات دينية تطالب بالعودة إلى سنن السلف الصالح وتطبيق الشريعة ، وهي لا تعلم شيئاً عن تاريخ أمة المسلمين ، ولا عن تاريخ موضوع تطبيق الشريعة ، ولا تريد أن تفهم أن السلف الصالح كانت له احتياجات وكان

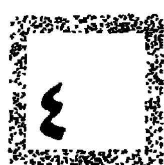
يعيش في ظروف مخالفة لظروفنا واحتياجاتنا ، وأن القوانين والأنظمة التي كان بوسعها أن تطلق مواهبهم الخلاقة ، غير القوانين والأنظمة التي يمكنها أن تطلق مواهبنا الخلاقة . وتنزعج الحكومات والمجالس النيابية إزاء تزايد قوة هذه الجماعات ، فلا تطرح الموضوع للمناقشة الحرة الشجاعة ، ولا تقابل الحجة بالحجة في حزم، ولا تجابه الإخلاص المضلل بإخلاص مستنير، وإنما تسرع فتأمر بتشكيل لجان لدراسة موضوع تطبيق الشريعة ، ولا أمد يحدّد لهذه اللجان لإنهاء عملها .

لقد كان الناس في الماضي إن أرادوا تطوير حكم من أحكام الشريعة على ضوء الأحوال المستجدّة للمجتمع الإسلامي ، يخترعون الأحاديث ثم ينسبونها إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، تقضي بما يريدون تحقيقه . غير أنه لم يعد بوسع الحكومات اليوم أن توحي إلى أحد فقهائها أن يخترع حديثاً عن إسحاق بن نصر عن يحيىٰ بن آدم عن ابن أبي زائدة عن أبيه عن الأسود بن يزيد عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال : لا ينكح أحدكم امرأة على امرأته ، ثم تزعم كما زعم بعض الأقدمين كالشيباني وابن قتيبة والقاضي الخصاف بأن للسنة المشهورة قوة القرآن أو أنها تنسخه، وتصدر قانوناً يستند إلى هذا الحديث يحرم تعدد الزوجات . غير أنه بوسع الحكومات اليوم ، وبوسع المجالس النيابية ، وبوسع مفكرينا ومثقفينا المستنيرين، أن يبيّنوا للناس كيف زُوِّرَت الأحاديث على مدى قرون تلت وفاة الرسول ، وهي أحاديث تتضمن أحكاماً يخال شبابنا التقي أنها صحيحة ، وأنها جزء لا يتجزأ من الإسلام ، ويطالب الحكومة والأمة بالعمل بها . بوسعهم أن يبينوا للناس أن أحكام القرآن وأحكام السنة الصحيحة وحدها هي المعبرة عن الإرادة الإلّهية ، وأن هذه الأحكام في معظمها أخلاقية قد صيغت صياغة عامة يمكن أن نبني على أساسها بناء قانونياً حديثاً ، ويمكن تفسيرها تفسيراً يسدّ احتياجات العصر والمكان ، ويسمح بمواجهة المتغيرات ، فنطمئن عندئذ إلى إمكان إقامة مجتمع على أساس من إرادة اللّٰه . عندئذ يمكننا أن نتحرر من

ذلك المفهوم التقليدي عن الشريعة باعتبارها جامدة عابسة صارمة لا تقبل الجدل والتوفيق والتطوير ، وبدلاً من أن نسأل أنفسنا (كما ظللنا نسألها منذ القرن الرابع الهجري إلى اليوم) : « أية تنازلات بوسعنا الحصول عليها من الشريعة لمواجهة تحدّيات العصر ؟ » ، نسألها : « أية قيود تفرضها أحكام القرآن والسنة الصحيحة على حريتنا وحقنا في سن القوانين التي تناسب مجتمعنا وزماننا ؟ » .

إنه لمن المحتم أن تكون القوانين قوة حيّة ، وأن تعكس روح المجتمع . وروح المجتمع الإسلامي المعاصر لا تعكسها لا العلمانية المحضة ، ولا النظريات الواردة في كتب الفقه المؤلفة في العصور الوسطى . والحل الذي أقترحه للخروج من هذه الورطة هو الأساس الواقعي الوحيد لأي تطور مستنير في المستقبل ، إن شئنا أن يكون لنا مستقبل .

مزيد من الملاحظات
حول الدعوة إلى
تطبيق الشريعة الإسلامية



قطع يد السارق

زَعَمْتَ أنَّكَ تَهديني لواضحةٍ
كذبتَ ، هذا الذي تحكيه تخبيرُ
غيَّرْتَ أمراً ، فهل غيَّرْتَ مُنْكَرَهُ ؟
أمْ ليس عندك للنُّكْراءِ تغييرُ ؟

* * *

تناقضٌ ما لنا إلا السكوتُ له
وأن نعوذَ بمولانا من النار :
يدٌ بخمسِ مئينٍ عسْجَدٍ فُدِيَت
ما بالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دينارٍ ؟

أبو العلاء المعري

قبل أن تُقرَّ حكوماتٌ أو مجالس نيابية أخرى في عالمنا الإسلامي التعس تطبيق عقوبة قطع يد السارق ، أودّ أن أورد بصدد هذه العقوبة عدّة ملاحظات :

وأبادر فأحذّر الملأ من خطورة اللجوء إلى التأويل الذي لا يعدو في حقيقته أن يكون تحايلاً على حكم من أحكام الله ، والتماس سبيل للتهرّب من

تطبيقه. لقد دأب بعض فقهاء المسلمين ، كلما شاءت السلطة أن تخرج على حكم شرعي ، أو تطوير الأوضاع والقوانين على ضوء احتياجات العصر ، على إقرار هذا الخروج وذاك التطوير ، معزّزين فتاويهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ومؤوّلين لهذه الآيات والأحاديث تأويلاً يتفق ومقاصد السلطة . وقد استبشر بعض المستشرقين والمستعمرين الأجانب خيراً بهذا الاتجاه ، ورأوا في التأويل أنسب وسيلة تأخذ بها شعوبنا « المتخلّفة » كي تتبنّى المزيد فالمزيد من مظاهر المدنية الغربية ونظمها . وهاجم هؤلاء من أسموهم بالرجعيين ، كالحنابلة والظاهريين ، الذين أبوا في عناد أن يحيدوا قيد شعرة عن حرفية المتون ، أو أن يجعلوها تعني شيئاً يزيد أو ينقص عنها ، والذين استنكروا ذلك الضرب من تأويل القرآن ، واعتبروه زيغاً وزندقة . وقد كان الحنابلة والظاهريون ، على ضيق أفقهم ، أصدق الناس مع أنفسهم ، وأخلصهم لشرع الله في حدود مداركهم ، وأبعدهم عن النفاق . وطوبى لمن حذا منا حذوهم ، وسار على سننهم ، وأخلص لله إخلاصهم ، شريطة أن يحرّر نفسه من ضيق الأفق الذي تميّزوا به ، ومن ذلك الجمود الفكري الذي كاد أن يودي بأمة المسلمين .

قد يرى بعض المعارضين منا لتطبيق عقوبة قطع يد السارق رأي الفقيه الجليل عبد العزيز فهمي باشا إذ يقول إن المقصود بعبارة (فاقطعوا أيديهما) هو توفير سبل العمل الشريف الذي يحول دون الاضطرار إلى السرقة . كما يذهب البعض إلى أن تطبيق هذه العقوبة معلّق على توفير كافة مقوّمات المجتمع الإسلامي التي ستؤدي في النهاية إلى رخاء لا حاجة إلى السرقة معه . غير أن هؤلاء وأولئك في زعمنا أناس يحسبون القرآن كتاباً لا يعني ما يقول ، وإنما هو كتاب يقول ما يعنون . فليس ثمة ما هو أوضح وأبسط لفظاً ومعنى من الآية الكريمة التي جاءت تنص على عقوبة السرقة بلسان عربي مبين :

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله ﴾ فأين

رأى البعض في هذه الآية تعليقاً على شرط ؟ وكيف يمكن أن يكون توفيرُ العمل نكالاً من الله أو جزاء للسارقين ؟ ! ونحن نشهد بشهادة الله تعالى أن الله عز وجل لو أراد أن لا يقطع السارق حتى تكتمل مقومات المجتمع الإسلامي ، أو لو انه قصد بها توفير سبل العمل الشريف ، لما أغفل ذلك ولا أهمله ، ولا أعنتنا بأن يكلّفنا علم شريعة لم يطلعنا عليه . وبالتالي كان موقف الحنابلة والظاهريين على جموده وسطحيته ، أشرف ألف مرة من مثل هذا التحايل وتلك السفسطة والتأويلات . والموقف الذي أدعو إليه ولا أرى سبيلاً غيره لتجنب جمود هذا الموقف والتواء ذاك ، يمكن تلخيصه في عبارة واحدة : مواجهة صريحة واضحة لحكم صريح واضح .

ثم أبدأ فأقول :

خلفيّة النصّ

كان الشكل الغالب للملكية في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية وفي زمن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الملكية المنقولة دون العقارية . وكان يمكن للبدوي أن يحمّل راحلته كل ما يملكه وينتقل به من موطن إلى موطن سعياً وراء الماء والكلأ . وبالتالي فقد كان الاعتداء على الساري في الصحراء بسرقة ناقته بما تحمل من ماء وغذاء وخيمة وسلاح ، في مصافّ قتله .

كذلك كانت السرقة أكثر الجرائم شيوعاً في ذلك العصر . وما كان العرب الجاهلون يستنكرونها أو يعتبرونها من الجرائم ما لم يكن ضحيتها منتمياً إلى نفس القبيلة ، أو في جوارها ، أو ضيفاً عليها . فإن وقعت السرقة في نطاق القبيلة أبيح للمسروق منه أن يسعى بنفسه إلى استرداد ماله أو الثأر من سارقه ، وربما عاونه سيدها على ذلك . أما إن كانت السرقة من قبيلة أخرى معادية ، أو لا يربطها بقبيلة السارق حلف ، فهي أمر مشروع وطبيعي ، ونشاط عادي قد يفخر صاحبه به ، بل ووسيلة رئيسية من وسائل كسب العيش ، لا ينكره أحد ، ولا يشين السارق أو ينتقص من قدره عند أحد . وإذ كان البدوي

دائماً شديد الإزدراء للزراعة ولغير الزراعة من المهن غير مهنته ، ويعتبرها جميعاً مما لا يجدر بإنسان يحترم نفسه أن يشتغل به ، فقد أجاز لنفسه أن يسلب متى شاء مال أولئك الذين امتهنوا كرامتهم وأذلّوا نفوسهم .

وأكثر ما كانت السرقة تقع عليه في ذلك العصر هو الإبل ، عماد حياة البدو . غير أنه كثيراً ما كان يقترن بسرقة الإبل من رعاتهـا أو القائمين على حراسة قوافلها ، قتال تُسفك فيه دماء هؤلاء الحراس أو الرعاة . وغالباً ما تؤدّي إراقة هذه الدماء إلى حروب طاحنة بين القبائل ، بعضها قد يستعر لعشرات السنين ، وقد تنجم عنه من العداوة والبغضاء ما ترثه الأجيال المتتالية ، بعد أن يكون السبب في إثارته قد بات نسياً منسياً .

لذلك فقد كان من الأهمية بمكان ، والقرآن والنبي بصدد إقامة دعائم مجتمع جديد ، يصهر قبائله المتناحرة في أمة إسلامية متماسكة ، تتأهّب للدخول في صراع مع ما جاورها من الأمم في سبيل نشر الدين الجديد ، أن يتصدّيا لهذا الشر المستطير . وكان لا بدّ لعلاج هذا الشر المستطير المستفحل من عقوبة حازمة رادعة في مثل حجمه وخطورته ، تضيّق من نطاقه إن لم تستأصل شأفته . فكان أن فرض القرآن حدّ القطع ليد السارق .

تطوّر الأوضاع

فما مات النبي حتى شرعت جيوش الإسلام تمدّ سلطانه شرقاً وغرباً ، وتؤسس دولة شاسعة مترامية الأطراف ، وقد نجم عن هذه الفتوحات ثراء لم يعرفه العرب من قبل ، وتغييرات جوهرية في الخلفية الحضارية والنظم الاجتماعية وفي أشكال الملكية . فقد دخل الإسلام مجتمعات تعرف شكلاً للملكية أهم من الملكية المنقولة ، وتملّك الفاتحون العرب الضياع والدور ، وأصبح سلب الرجل ناقته أو قربة مائه لا يعني أمراً جللاً ، ولا هو بالكفيل وحده أن يثير العداوات والحروب بين الأقوام ، بل وما عادت السّرقة من الجرائم الرئيسية الشائعة في هذا المجتمع الجديد .

ونظر الفقهاء والمجتهدون فإذا الآية القرآنية لا تزال قائمة ، والحكم بقطع يد السارق والسارقة قائماً . وقد كان المنطقي والمفروض أن يعلنوها صراحة أن بعض أحكام القرآن والسنة قد قُصِدَ به التصدّي لعلاج شرور وثيقة الصلة بالمجتمع الجاهلي في شبه جزيرة العرب ، وبزمن النبي عليه السلام ، وأنه من حق المجتمعات الأخرى والأجيال التالية أن تطوّر هذه الأحكام على هدى روح الإسلام ومقاصده بعيدة المدى . كان بوسعهم أن يقولوا إن من واجب المجتمع الإسلامي في صورته الجديدة ، ومن حقّه ، أن يجد عقوبة لجريمة السرقة غير العقوبة التي قُصد بها المجتمع البدوي أو الجاهلي ، دون أن يكون اختياره للعقوبة الثانية خروجاً على الإسلام وروحه . بالعكس ، فإن الالتزام بروح الإسلام يقتضي منا اختيار هذه العقوبة الثانية ، حيث أنها ، في المجتمع غير البدوي ، تحقّق نفس النتائج المرجوّة التي توخّاها الإسلام في المجتمع البدوي .

غير أن الأئمة والفقهاء والمجتهدين لم يشاءوا أن يكونوا أمناء مع أنفسهم . وكانوا في نفس الوقت مدركين كل الإدراك لجسامة وهول تطبيق الحكم بقطع يد السارق في مجتمع قد تغيّرت معالمه ، واختلفت أحواله أشد الاختلاف عن أحوال المجتمع في زمن الرسول ، بحيث بات قطع يد السارق في عصرهم منافياً كل المنافاة لعلّة الحدّ في العصر الذي فرض فيه . فكان سبيلهم إلى التوفيق بين الالتزام بالنص وبين مراعاة تغير الظروف ، هو التأويل والتقييد للآية الواضحة الصريحة المطلقة . وإذ كان هؤلاء الفقهاء والمجتهدين من أقطار مختلفة ، وبيئات اجتماعية يتفاوت فيها مدى شيوع جريمة السرقة ، فقد اختلفوا فيما بينهم بصدد هذا التقييد لحكم القرآن الواضح ، وبصدد الشروط التي وضعوها لتطبيق الحدّ ، على النحو الذي نبيّنه حالاً :

قيود وشروط

كان أول ما بدأوا به في زمن الفتوحات أن اخترعوا حديثاً نسبوه إلى الرسول ، هو : « لَا تُقْطَع الأيدي في الغزو » . وقد استند بُسْر بن أَرْطَأة إلى هذا الحديث الموضوع حين أُتِيَ بسارق سرق ناقة فقال : « لولا هذا الحديث لقطعتُه » .

ثم مضوا فعدّدوا شروطاً وقيوداً لا قصد وراءها غير التهرّب من تطبيق حكم صريح قد اقتنعوا بأنه لم يعد صالحاً لزمانهم . منها :

● لا قطع إلا فيما سرق من حِرْز (كالدور والحوانيت) . وأما إن أخذ السارق المال من غير حرزه ومضى به فلا قطع عليه . وبالتالي فإن السرقة من السفينة (أو السيارة) تستوجب القطع لأن السفينة (والسيارة) حرز، أما سرقة السفينة (أو السيارة) نفسها فلا تستوجب القطع لأنها سائبة في البحر (أو الطريق) وليست بمحرزة .

● ولا قطع إن أخذ السارق المال من حرز وقُبض عليه قبل أن يُخرجه من الحرز ويمضي به .

● ولا قطع في الاختلاس الظاهر ، ولكن نكال وسجن وعقوبة . فالسنّة أن تُقطع يد السارق المستخفي المستتر ، ولا تقطع يد المختلس المعلن الذي يختلس جهاراً غير مستخف من الناس .

● ولا قطع في ثمر معلق ، ولا في الأشياء سريعة التلف كاللبن والفاكهة واللحم .

● ولا قطع على خائن اؤتمن على وديعة فخان .

● ولا قطع على سارق الأموال العامة لأن له فيها نصيباً .

● ولا قطع على من سرق من المغنم .

● ولا قطع على من سرق من حمّام أو مسجد أو قبر .

● ولا قطع على سارق الشجر والزرع والبقول .

● ولا قطع في شيء من الإبل ولا البقر ولا الغنم ولا الخيل ولا البغال ولا الحمير .

● ولا قطع في الملح والتوابل .

● ولا قطع في الدجاج والأوز وغيرها من الطير لأن الأصل فيه أنه تافه مباح .

● ولا قطع على من سرق خمراً مملوكاً لذميّ أو مسلم أو سرق خنزيراً او ميتة ، لأنها ليست مالاً ولا قيمة لها ، ولأن الواجب على المسلم أن يريق الخمر ويقتل الخنازير .

● ولا قطع على من سرق لوحة شطرنج لأن بوسعه أن يقول إنه أخذها ليكسرها حيث أن اللعبة محرّمة .

● ولا قطع في سرقة المزمار والعود وأدوات اللهو .

● ولا قطع على من سرق مصحفاً سواء كانت عليه حلية فضة أو لم تكن .

● ولا قطع على من سرق كتب العلم لأن للسارق فيها حق التعليم ، ولا يحق لنا منعه مما يحتاج إليه من علم .

● ولا قطع على سارق الصليب أو الوثن . فإن كان من ذهب أو فضة يقوّم ما فيه من معدن دون صنعته .

● ولا قطع على من سرق طفلاً حراً لأنه ليس بمال ، ولكن يقطع سارق العبد الطفل .

● ولا قطع في الشيء التافه كالخشب أو الكلأ أو السمك .

● ولا قطع في سرقة الأواني من الخشب لتفاهتها .

● ولا قطع في أواني الذهب والفضة وهي التي حرّم الشرع استخدامها .

● ولا قطع إن اختلف الشاهدان حول اليوم الذي وقعت فيه السرقة ، إذ هي هنا شهادة رجل واحد ، ولا يجوز القطع بشهادة واحد .

● ولا قطع في الضرورة ، ولا على من سرق من جهد أصابه فأخذ مقدار ما يغيث به نفسه .

● ولا قطع على الولد ولا على البنت فيما سرقاه من مال الوالدين .

● ولا قطع على الأب يسرق من ولده ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « أنت ومالُك لأبيك » .

● ولا قطع في سرقة أحد الزوجين من الآخر لأن كلاًّ منهما أمين في مال الآخر .

● ولا قطع على أحد من ذوي المحارم مثل العمّة والخالة والأخت وغيرهم .

● ولا قطع على من يسرق لأول مرة .

● ولا قطع على من يسرق ما تقل قيمته عن ربع دينار .

● ولا يقطع في السرقة المشتركون فيها إلا إن زادت حصة كل منهم في المال المسروق على ربع دينار .

● ولا قطع إن سرق السيد من مال عبده ، ولا إن سرق العبد من مال سيده .

● ولا يقطع سارق الكلب المنهي عن اتخاذه .

● ولا قطع على الدائن يسرق من مال مدينه في حدود قيمة الدَّين .

● ولا قطع إذا سرق الضيف من مضيفه .

● ولا قطع على من سرق من قاعات الفنادق أو الدور التي يسكن في كل غرفة منها ساكن .

● ولا قطع على من أقرّ بالسرقة ثم رجع عن إقراره .

● ولا قطع وقت الحر الشديد ، أو البرد الشديد .

● ولا قطع على السارق يتوب قبل أن يقبض عليه .

ثم لن نمضي إلى أبعد من ذلك في تبيان القيود والشروط . ولن نثقل على القارىء بسرد تفاصيل الخلاف بين الفقهاء . فقد إختلفوا فيما بينهم حول كل المسائل المتعلقة بهذا الحدّ . اختلفوا حول تعريف السرقة ، وتعريف الاختلاس ، ومقدار ما يجب فيه قطع السارق أهو عشرة دراهم (أبو حنيفة) ، أم ثلاثة (مالك) ، أم ربع دينار (الشافعي) ؟ وما الحكم إن أدّى غلاء الأسعار إلى تدهور قيمة النقود ؟ واختلفوا حول اليد إن قطعت فمن أين تقطع : أمن الرسغ ، أو المرفق ، أو المنكب ، أم هي الأصابع وحدها كما ذهب عليّ بن أبي طالب ؟ واختلفوا حول السارق يسرق للمرة الثانية والثالثة والرابعة . هل تقطع الرِّجل ؟ لقد جاء القرآن والآثار الصحاح الثابتة عن رسول الله بقطع الأيدي ولم يأت فيها للرجل ذكر ، ولم يصح عن رسول الله في قطع رجل السارق شيء أصلاً . فإن تجاهلنا هذه الحجة وقطعنا الأرجل ، فهل نقطعها من المفصل أو من شطر القدم تاركين للسارق العقِب ؟ اختلف الفقهاء في ذلك ، كما اختلفوا في قوله تعالى في الآية التالية لآية القطع ، ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه ، إن الله غفور رحيم ﴾ : هل يسقط القطع إذن بالتوبة ؟ قال بعضهم إن الحد لا يسقط بالتوبة . فالتوبة مقبولة والقطع كفّارة له . وقال البعض الآخر (كعطاء وبعض الشافعية ، وقيل الشافعي نفسه) إنه يسقط بالتوبة قبل القدرة على السارق ، بدليل قوله تعالى ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ ، وذلك استثناء من الوجوب فوجب حمل جميع الحدود عليه . واختلفوا في غير ذلك .

ما أريد قوله هو أن كل ما ذكرناه وما لم نذكره من قيود فرضها الفقهاء ، لا يوحي إلا بالرغبة في تجنب تطبيق حكم الآية قدر الإمكان . وسرعان ما امتنع الولاة والقضاة عن الحكم بقطع يد السارق في جل الأقطار الإسلامية ، واستعاضوا عنه بالتعزير (أي تأديب الجاني لمنعه من المعاودة) ، وهي عقوبة لم يذكرها القرآن، ولم يعرض لها الحديث إلا قليلاً . وكانوا في التعزير يراعون اختلاف مراتب الناس : فقالوا إن تعزير الأشراف والقواد وعلية القوم يكفي فيه أن يبعث القاضي أمينه إليهم لمجرد التنبيه ألا يعاودوا السرقة . وفي حالة العلوية والفقهاء يُحضرون إلى باب القاضي فيواجههم باللوم والتأنيب . وتعزير اوساط الناس قد يكون بالحبس . وتعزير الدهماء يكون إما بالحبس أو الضرب بالسوط أو العصا ، أو بنتف شعر اللحية .

وقد يحمد البعض لهؤلاء المجتهدين اجتهادهم في سبيل التحايل على حكم القرآن والحيلولة دون تطبيق عقوبة قطع يد السارق . غير أني لا أحمدهم ولا أشكر سعيهم ولا أقر لهم بفضل . وإنما أجيبهم جميعاً بقول ابن حزم في كتابه « المحلى » : « قال الله تعالى ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ ففعلنا فوجدناه تعالى يقول ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ ، ووجدنا رسول الله قد أوجب القطع على من سرق بقوله عليه السلام : لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها . ووجدنا السارق في اللغة التي نزل بها القرآن وبها خاطبنا الله تعالى هو الآخذ شيئاً لم يبح الله له أخذه فيأخذه متملكاً له مستخفياً به ولا يحل أن يخص القرآن بالظن الكاذب ، ولا بالدعوى العارية من البرهان . فمن قال إن الله تعالى إنما اراد في هذه الآية من سرق من حرز فإنه مخبر عن الله ، والمخبر عن الله بما لم يخبر به عن نفسه ولا أخبر به عنه نبيّه فقد قال على الله الكذب ، ونحن نقطع بيقين لا يمازجه شك أن الله لم يرد قط ، ولا رسوله ، اشتراط الحرز أو غيره في السرقة . ولا حجة عندنا في قول أحد دون رسول الله . ولو أن الله أراد ذلك

لذكره ﴿ وما كان ربك نسيًا ﴾ » .

هذا الموقف من ابن حزم هو الموقف الرجولي الأمين من المشكلة . بيد أن هناك في اعتقادي موقفاً رجولياً أميناً آخر ، لا أرى مناصاً من تبنّيه في زماننا هذا ، وهو القول بأن الأخذ بروح الإسلام لا الالتزام بأحكام معينة متناثرة ، هو الكفيل بأن يكون بمثابة البوصلة التي تهدينا سواء السبيل ، في أي مكان أو زمان كنا فيه ، ومع اختلاف الظروف . لقد جاء الإسلام رحمة للعالمين . وتطوير شريعته مع تتابع الحقب واختلاف الظروف ، هو الضمان الوحيد لاستمراره إلى آخر الزمان رحمة للعالمين .

فأما موقف المستشرقين والمستعمرين الذي تحدّثنا عنه آنفاً ، فنرفضه غاضبين . وأما موقف فقهائنا وتحايلهم وسفسطتهم ، فننحّيه هازئين . وأما موقف الحنابلة وابن حزم وغيره من الظاهريين، فنردّه آسفين . وأما ما نقبله وندعو إليه ، فصياغة إسلامية للتطوير ، صياغة من منطلق إسلامي ، تكون وسيلة للتقدم ولمواجهة احتياجات العصر لا عقبة في سبيلهما .

وإذا المبتورة سُئلت ، بأي شرعٍ قطعت

لا نريد للمجالس النيابية أن تتعجّل بفرض عقوبة قطع يد السارق ، ثم يأتي القضاة المستنيرون فيحاولون قدر جهدهم إيجاد المبررات والذرائع من أجل التملّص والتخلّص من ضرورة تطبيقها . وإنما نريد لهذه المجالس أن تزن الأمور بميزانها الصحيح ، وأن تراعي في تشريعاتها قدراً معقولاً من التناسب . فإن كانت سرقة الناقة في المجتمع الجاهلي جريمة خطيرة ضخمة الآثار والعواقب ، فاستوجبت بخطورتها حدّ قطع اليد ، فنهب الأموال العامة في يومنا هذا هو الجريمة الخطيرة ضخمة الآثار والعواقب التي تستوجب قطع اليد ، إن أصررتم عليه ، لا سرقة جهاز تسجيل من سيارة . غير أن الذين ينهبون الأموال العامة في زماننا هم في العادة من يقرر العقوبات ، لا سارقو

أجهزة التسجيل . وهم يقولون (عن ورع وعن تقوى وإيمان !) إنه لا قطع على السارق من الأموال العامة لأن له فيها نصيباً !

ولو أن قرار تطبيق أحكام الشريعة اتخذه قادة ثورات إسلامية ، كالإمام الخميني ، لربما كان أمراً مقبولاً مستساغاً . غير أن صدوره من رؤساء مناهضين للديموقراطية في بلادهم ، يريدون به أن يكتسبوا شعبية لدى الجماهير تبرر حل الأحزاب وتأجيل الانتخابات العامة إلى أجل غير مسمى ، أو من رؤساء تشكو بلادهم من ضائقة إقتصادية ، ويريدون عوناً مالياً من حكومة دولة إسلامية تأبى تقديم هذا العون إلا بشرط تطبيق أحكام الشريعة ، رغبة منها ، لا في نشر حكم الله ، ولكن في إفساد علاقة الدولة الفقيرة بدولة صديقة مجاورة ، فأمر خليق بالازدراء ، لا أراه يشفع لهؤلاء الرؤساء عند الله في الآخرة ، ولا عند شعوبهم في الحياة الدنيا .

وأسأل هؤلاء القوم في النهاية :

هل يزيد تطبيق حدّ قطع يد السارق من فرص الكسب الشريف للمقطوعة يده ، أم أنه يقلّلها ؟ وهل يزيد من إقبال المستنيرين من شبابنا على الدّين ، أم ينفّرهم منه ؟ هل ترون مبرراً لتطبيقه على من سرق عن حاجة وعوز إنما نجما أساساً عن نهب المسئولين للأموال العامة، وعن فساد سياساتهم الاقتصادية والاجتماعية ؟ هل يا تُرى ، وأنتم تتظاهرون بالإنسانية فتستخدمون التخدير عند القطع ، وتمرّنون القائمين على تنفيذ العقوبة في المستشفيات مدة طويلة ، ستسمحون للمستشفيات ولجمعيات مساعدة المعوّقين بتركيب أطراف صناعيّة للمقطوعة أيديهم ، أو وصل اليد المقطوعة بالذراع فوراً بعد قطعها (على النحو الذي يجري الآن في العالم المتمدين في حالة وقوع حادثة تقطع فيها اليد) ، أم أنكم سترفضون منح هذا الإذن لهذه المستشفيات والجمعيات ، وتصرّون على تعليق اليد في رقبة السارق وفقاً لأحكام الشريعة ؟

ما قولكم ؟

غير أني أتلفت حولي فلا أرى غير نفاق من السلطة ، ولؤم من الفقهاء ، وجهل من العامة ، وتنكّر للمسئولية من المثقفين ، والتواء وسفسطة من المفكرين ، واتجار بالدين قد شاع في أقطارنا طلباً لما عند الناس .

شجاعة لدى الجهلاء ، وحكمة لدى الجبناء ، ومتى اجتمع الجهل والجبن اتّخذت الشجاعة سمة التخريب ، وأخفت الحكمة وجهها وراء ألف حجاب .

فإن سكت العالم طلباً للسلامة والجاهل يجهل ، فمتى يتبيّن الحق ؟

عَودة النسَاء ٥
الى الحِجَاب

ما من أحد يسرّه أن يعزو الناس آراءه ومعتقداته ، أو مشاعره وأحاسيسه ، مما يعتزّ به ، ويحسبه ناتجاً عن تفكير عميق ، أو نابعاً من إلهام وتوفيق ، إلى أسباب فسيولوجية أو نفسية ، أو اعتبارات اجتماعية أو اقتصادية . وقديماً فسّر الكاثوليك خروج لوثر بمذهبه برغبته في الزواج من راهبة ، (وفسّره الكاتب المسرحي أوزبورن في أيامنا هذه بإصابته ـ أي لوثر ـ بإمساك مزمن !) . وكثيراً ما يكون التفسير سطحياً جديراً بالازدراء ولا فائدة تُرجى من ورائه ، (كتفسير البعض لعودة الكثير من نسائنا الى الحجاب بدمامة الوجه وقبح الصورة) . كما أنه كثيراً ما يكون للتفسير نفسه تفسير من نفس النوع ، (إذ ما أدرانا أن تفسير أوزبورن للّوثرية بالإمساك عند لوثر غير راجع إلى إسهال عند الكاتب المسرحيّ ؟!) .

ومع هذا فمن الواجب أن نعترف ـ على ضوء استقرائنا لتجاربنا ـ بأنه كثيراً ما يتضح لنا بعد فترة أن موقفاً عاطفياً أو ذهنياً معيّناً تبنّيناه في وقت من الأوقات ، وظننّاه موضوعياً ومستديماً ومطلق الصواب ، (كنظرة سوداوية إلى الحياة ، أو هوى جامح ، أو سوء ظن بالناس) ، إنما كان راجعاً إلى سبب نفسي أو فسيولوجي عارض ، أو تجربة مفردة خضناها وعانينا منها ، فما أن

يزول هذا السبب ، أو يضعف أثر التجربة ، حتى يتبدّد هذا الموقف العاطفي أو الذهني .

كذلك فإنه متى نشأ في مجتمع معين ، وفي زمن محدود ، ما لا يمكن وصفه إلا بأنه ظاهرة متفشية تنطوي إلى حدّ على عنصر المفاجأة ، فلا بدّ لنا من أن نلتمس التفسير ـ أو بعضه على الأقل ـ في أسباب خارج نطاق الموضوع محور الظاهرة . فعودة الكثير من نسائنا ـ بمحض إرادتهن ، لا نتيجة ضغط من آبائهن أو أزواجهن ، (بل وأحياناً ضد رغبة آبائهن وأزواجهن ، ورغم استهجان السلطة في بلدهن)ـ يمكن أن نحدّد لبدايتها تاريخاً لا يزيد عن ثمانية عشر عاماً ، ثم انتشرت منذ ذلك الحين وفي هذه الحقبة القصيرة انتشار النار في الهشيم . مثل هذا الانتشار المفاجىء لظاهرة ما ، إن كان يمكن تفسيره في بعض الأحيان بظهور نبي جديد ، أو قيام حكومة ثيوقراطية في بلد معين ، فليس بالوسع الاقتصار في تفسيره على الإشارة إلى رغبة عامة مفاجئة في التمسك بتعاليم الدين ، علماً بأن القرآن كان دائماً بين أيدينا ، وكانت تعاليم الدين دوماً في متناول الجميع . فلِمَ ظهر الأمر فجأة إذن ؟ ولم اتّخذ صورة الظاهرة المتفشية خلال سنوات قلائل ؟

لا مفرّ إذن من تفسير من النوع الذي ذكرناه في بداية المقال ، وإن كره الكارهون وغضب الغاضبون .

وأبدأ فأقول إنِ ظاهرة عودة نسائنا إلى الحجاب لا يمكن وصفها بأنها شأن عادي ، ولا القول بأن العائدات اليه ـ في مجموعهن ، وكطائفة ـ نساء عاديات . ولا يطعن في هذا أن نجد من بينهن الكثيرات من الفتيات والنسوة العاديات اللواتي خضعن لتأثير أو ضغط ، أو دفعهن إلى التحجب نزوع إلى تقليد ، أو اتّجهن الى التدين ثم سألن من يعتقدن أنهم أفقه منهن في أمور الدين ، فاخترن ما ذكر لهنّ أنها ثياب إسلامية يأمر الشرع بها . فالمهم هنا ليس أن المتحولة إلى هذا النوع من الثياب امرأة عادية ، وإنما المهم هو نوعية

ممارسي الضغط والتأثير ، وفي المناخ العام الذي جعل هذا الضغط وهذا التأثير شائعين وفعّالين ، وسهّل قبول حديثة العهد بالتدين لهذه الثياب وارتداءها إيّاها ، وذلك بالنظر إلى شيوع الظاهرة شيوعاً لن يجعل منظر المحجّبة مستغرباً كل الاستغراب .

وأعترف هنا بأن تحديد ماهية العادي وغير العادي ، والمعيار الذي قد نحكم على هديه بأن في هذا المسلك أو ذاك خروجاً عن العادي ، ليس بالأمر السهل . فسلوك الأشخاص الذين نعتبرهم عاديين متنوع تنوعاً كبيراً ويختلف باختلاف الأفراد . قد يحلق هذا الشاب شعر رأسه بالموسى ويطيل ذاك شعره إلى ما دون كتفيه ويبقى كلاهما عاديين . وقد يختار هذا الرجل لمسكنه أثاثاً من الطراز الإسلامي الخالص وينتقي آخر لمسكنه أثاثاً غربيّاً صرفاً ولا نرى في مسلك أيهما خروجاً عن المألوف . وقد ترتدي فتاة فستاناً فوق الركبة وثانية فستاناً يصل الى ما دون الركبة وثالثة بنطلوناً ويُنظر الى ثلاثتهن على أنهن عاديات . فما مبرر النظرة « التحكمية » عند من يصف مرتدية الفستان الأوروبي ومرتدية الملاءة اللف بأنهما عاديتان ، في حين يصف صاحبة الزيّ المسمّى بالإسلامي بأنها غير عادية ؟

يمكن تبرير هذه التفرقة بالقول بأن المعيار في الأمثلة الأولى دون المثال الأخير هو مجرد اختلاف الأمزجة ، والتفضيل الجمالي لشيء على شيء . ولو أن امرأة اختارت ارتداء الثوب « الإسلامي » على أساس أنه أجمل أو أنسب لوجهها وقوامها ولا شيء غير ذلك ، لكان سلوكها عادياً ، ولما كان الأمر محل جدل ومثار مناقشات عنيفة وسبب احتكاك عائلي وشجارات وطلاق ومنع من دخول الجامعات ، الى آخره . غير أن الواقع أن تبنّي الرجل أو المرأة للزي « الإسلامي » ليس نابعاً عن مزاج ، وإنما هو موقف . هو موقف يراه البعض شاذاً مستنكراً وجديراً بالمحاربة ، ويراه أصحابه الموقف السليم الوحيد الذي ينبغي محاربة غيره واستئصاله . إنه ليصعب أن نتصوّر صاحب الأثاث

الإسلامي مستنكراً لمسلك صاحب الأثاث الحديث ورامياً إياه بالزندقة ورافضاً لزيارته بسبب اختياره . كذلك فقد نجد حليق الشعر جالساً إلى طويله يتحادثان في ألفة تامة دون أن تخطر في ذهن أحدهما أدنى فكرة تتصل بتطويل الشعر أو تقصيره . غير أنه يكاد يكون من المؤكد أنه ما من امرأة محجبة تجلس إلى غير محجبة إلا ونظر كل منهما إلى الأخرى نظرة الارتياب ؛ هذه في استنكار وتحفّز ، وتلك في حيرة وتساؤ ل ، كما أنه من الصعب أن نتخيل قيام علاقة عادية بين الاثنتين .

لقد راعتني منذ أيام تعليقات صدرت من عامل ميكانيكي بسيط إذ مرّت بنا ، وهو يصلح عطباً في سيارتي ، امرأة محجبة من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، قد غطت كفيها بقفّاز ، وعينيها بنظارة سوداء ، فلم يبدُ من جسمها قيد أنملة . رأيت العامل يتأملها في ازدراء وسخرية ، بل وفيما يشبه الكراهية ، مما استرعى اهتمامي ودفعني الى سؤاله عن السبب . قال وهو يهز رأسه في امتعاض بيّن : « أنا لست ضد الدين . وأنا وامرأتي نصلي ونصوم ولله الحمد . ولكن هذا الشيء ليس من ديننا في شيء . هؤلاء (لاحظ استخدامه لكلمة « هؤلاء » في معرض الحديث عن واحدة) قوم يبغضوننا ويتربّصون بنا وينتظرون أن تكون لهم الغَلبة حتى يخسفوا الأرض بنا . أنا لست ضدّ الحجاب في حدّ ذاته . فليتحجّب من شاء . ولكني ضد ما يخفيه هذا الحجاب من مشاعر سوداء . تسألني ماذا لقيت منهن . لم ألق منهن شيئاً ، ولكني أحس إحساساً قوياً بما تشعر به نحوي وهي تنظر إليّ ، وأعرف ما تهدّدُني به . إننا نتركهن يرتدين ما يردن ، ويتصرفن كما يحلو لهنّ ، ولكن ، أتظنّهن متى وصلت جماعتهن إلى السلطة يتركننا نلبس ما نشاء ونتصرف كما نريد ؟ » .

وقد هالني أن أرى الشبه الشديد بين موقفه هذا من المرأة المحجبة وموقف الرومان خلال القرون الثلاثة الأولى بعد مولد المسيح من المسيحيين في الإمبراطورية . لقد كان يسود الأمبراطورية خلال تلك القرون تسامح ديني

نادراً ما عرف العالم نظيراً له . غير أنهم استثنوا المسيحيين من هذا التسامح . وكان هذا الاستثناء راجعاً لا إلى مخالفة المسيحيين لهم في العقيدة ، وإنما إلى عداء المسيحية لكل ما عداها من عقائد ، مما دفع الرومان إلى تسمية أتباعها بأعداء الجنس البشري . كانت روح المسيحية خطراً على تقاليد المجتمع الروماني وأسسه . ومع ذلك فقد كانت كراهية عـامّة الشعب للمسيحيين أقوى منها عند الأباطرة والسلطات . فالجمهور قد أزعجه أن يرى أتباع هذا الدين يكرهون آلهتهم ، ويصلّون من أجل نهاية العالم ، ويفرحون متى لحقت الهزيمة بجيوش الأمبراطورية . وكانت العامة تنسب الكوارث التي تحل بها كالفيضانات والمجاعات والحرائق إلى ما « يمارسه » المسيحيون من سحر أسود . وكانت تدرك أن المسيحيين يبغضون كافة مظاهر الحضارة التي يعيشون في ظلها ، وأنهم إن تمت له الغلبة سيسحقون أنظمة الدولة وآلهتها ولن يُبدوا تجاه الأديان المخالفة ذلك التسامح الذي يطالبون به لأنفسهم . فاستثناؤهم إذن من تطبيق مبدأ التسامح الديني إنما كان لحماية مبدأ التسامح الديني .

أعود فأقول إن ما يدفع البعض إلى اعتبار المرأة المحجبـة امرأة غير عادية هو أن الزيّ الذي تبنّته يُفصح عن موقف عقلي غير عادي ، وعن مفاهيم وقيم يراها الآخرون غير عادية . فخلاصة اعتقاد مثل هذه المرأة هي : أن النظر سهم من سهام إبليس مسموم . ولا يحل للرجل أن ينظر إلى المرأة ولا المرأة الى الرجل حيث أن قصدها منه كقصده منها . أو كما قال مجاهد : « إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيّنها لمن ينظر ، فإن أدبرت جلس على عَجزُها فزيّنها لمن ينظر » فالمرأة كلها عورة إلا وجهها ويديها . والكشف عن غير الوجه والكفّين مدعاة للافتتان . فإن كانت المرأة جميلة الوجه وخيف من وجهها وكفّيها الفتنة فعليها ستر ذلك . . . إلى آخره مما نقلناه من تفسير القرطبي .

فالمرأة التي تعتقد مثل هذا في أيامنا هذه حين أصبح بالإمكان أن

يجلس الرجل إلى المرأة دون أن تخطر ببال أيهما فكرة جنسية ، والتي ترفض مصافحة الرجل بيد عارية خشية أن تثور لدى أيهما إحساسات جنسية محرّمة ، والتي يشغل بالها مشكلة ما إذا كان ظاهر قدمها سيثير عند الرجل في الطريق رغبات حيوانية ، امرأة غير عادية . وهي تذكّرني بنادرتين : الأولى عن شخص مضى به أخوه إلى طبيب نفسي ذاكراً له أنه يرى الجنس في كل ما تقع عليه عيناه . فأقبل الطبيب يرسم له رسماً تلو آخر طالباً منه أن يذكر أول فكرة يثيرها الرسم في ذهنه : رَسَم دائرة فصاح الرجل : جنس ! فمثلّثاً فصاح الرجل : جنس! فمربعاً فصاح الرجل: جنس! فقال الطبيب للأخ: إن حالته خطيرة. فإذا المريض يهتف به : حالتي خطيرة أم أنت الذي ترسم لي رسوماً بذيئة ؟! والنادرة الثانية هي عن صامويل جونسون الذي دُعي بعد فراغه من إعداد معجمه الشهير إلى تناول الشاي مع سيدتين . وإذ هنأته السيدتان على معجمه وأبدتا تقديرهما وارتياحهما لحذفه الكلمات الخاصة بالأعضاء والوظائف التناسلية ، صاح جونسون بهما : قد كان أول ما فعلتماه إذن هو البحث في المعجم عن هذه الكلمات !

فإن اتفقنا على أن حالة هؤلاء غير عادية ، مضينا إلى التساؤل عن الأسباب المحتملة لنشوئها .

وفي اعتقادي :

أن الحجاب هو « جهاز واقٍ يحجب مرتديه عن العالم الخارجي ، ويقيه من مثيرات ضارة به تسبّبت من قبل في إحداث تهيّج شديد عنه لم تكن له طاقة به ، ففضّل نوعاً من الكبت والتحريم المفرطين على أن يعرض نفسه من جديد لهذه المؤثرات » .

فالمعنى اللغوي للحجاب هنا ليس المعنى الضيق الوارد في آية ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ (الأحزاب ٥٣) ، وإنما هو المعنى الأصلي الواسع الوارد في سورة مريم (١٦ و ١٧) : ﴿ واذكر في

الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتّخذت من دونهم حجاباً . . . ﴾ فالحجاب هنا هو بمعنى الاعتزال .

فعودة الحجاب وانتشاره بين الآلاف المؤلفة من نساء مجتمعنا يعنيان بالضرورة أن المجتمع بأسره نشأت فيه خلال الحقبة الأخيرة مظاهر أو ظروف معينة تسبّبت في إحداث تهيج شديد ضار لدى أعداد غفيرة من الناس لم تكن لهم قِبَل هذه المظاهر طاقة ، فنتج عندهم إزاءها ردّ فعل يقيهم منها .

ولكن : لماذا أثارت هذه الظروف والصعوبات ردّ فعل معيناً لدى طائفة من الناس ، وردّ فعل مختلفاً لدى طائفة أخرى ، في حين لم تثر أي رد فعل لدى طائفة ثالثة ؟

يقسّم باڤلوف الكلاب ـ والناس ـ إلى فئات أربع : القوي عنيف الانفعال ؛ القوي المتوازن الهادىء ؛ القوي المتوازن الحيوي ؛ الضعيف . ويقول إن تجاربه على الكلاب قد دلّت على أن الاضطرابات الباثولوجية المزمنة أكثر حدوثاً لدى أفراد الفئتين الأولى والرابعة (أي الأقوياء عنيفي الانفعال والضعفاء) ، وأن أعراض هذه الاضطرابات عند الضعفاء تتجه إلى زيادة الكبت والتحريم (كامتناع الكلب الضعيف عن أكل لحم وُضع له على الدرجة العليا من سُلّم خوفاً من الوقوع) ، في حين تتجه عند القوي عنيف الانفعال إلى التحرر من كافة القيود السلوكية .

فاختلاف ردود الفعل عند الأشخاص تجاه حدث معين أو ظروف معينة يرجع الى اختلاف طبيعة الجهاز العصبي لدى كل منهم . فالطبيعة البشرية تسعى دوماً إلى التوازن . وبتتابع الأحداث والمؤثرات يُعيد المرء ترتيب قيمه ومفاهيمه حتى يضمن استمرار هذا التوازن . غير أن التوازن عند البعض ينهار أو يختل متى تعرّض الفرد لظروف قاسية ضخمة التأثير ، ينجم عنها تهيج قوي ، هو إن صادف جهازاً عصبياً ضعيف البِنْية ، حال بين صاحبه وبين

المقاومة الصحية المطلوبة . فإذا بالمقاومة تنهار ، وبالنشاط العصبي وقد أصابه اختلال مزمن يؤدي الى اضطراب نفسي .

ولو كان مرتديات الحجاب صريحات مع أنفسهن لاعترف أكثرهن في النهاية بأن سبب ارتدائهن له هو تعرضهن لاختبار صعب أو موقف لم تكن لهن به طاقة . ولذا كان من الواجب عند العلاج - أو عند مجرد التحليل - أن نتصدى أولاً وقبل أي شيء آخر ، للإجابة عن السؤال الضخم : أي الظروف في حياة الفرد كانت مفرطة القوة بالنسبة لجهازه العصبي ، وأين ومتى واجه صراعاً لم يحتمله ؟ هذا على الصعيد الفردي . أما إن كانت الظاهرة شائعة شيوعاً عظيماً في مجتمع معين ، وكان انتشارها قد حدث خلال حقبة محدودة ، فلا بدّ أن نعدّل من صيغة السؤال لتصبح على النحو التالي : أي الظروف في حياة هذا المجتمع كانت مفرطة القوة بالنسبة للجهاز العصبي لدى قطاع كبير من الجماهير ، ومتى واجه المجتمع صراعاً ضخماً لم يحتمله هذا القطاع ؟

نحن نعلم يقيناً أن الحجاب بدأ يظهر ثم ينتشر في مصر عقب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ . شباب نشأ على مبادىء الناصرية وأفكار الوحدة العربية والاشتراكية ، تهدّمت أحلامه كلها ومفاهيمه كلها في ستة أيام . فإن كان محمد عليّ نفسه - وهو العتيّ القويّ - نراه بعد هزيمته عام ١٨٤٠ ، وقد احتجب في سراي رأس التين بالإسكندرية وأصابه الخبال ، فما ظنك بأشخاص عاديين رأوا عَدُوّاً صوّره لهم رئيسهم وأجهزة الإعلام عندهم على أنه فأر هيّن الشأن ، وشعب ظالم كافر ، وهو يسحق في ساعات أسداً هصوراً ، وشعباً يناصر الحق ، هو على دينٍ وعد الله أتباعه بالنصر ؟ ثم كانت بعد الهزيمة ثلاث سنوات من القمع والمرارة ، والإرهاب والتخبط . ثم عشر سنين من انفتاح داعر على الغرب ، وتهديد للقيم الإسلامية ، وللتقاليد المصرية ، ولكل خيط ولو رفيع في نسيج الأمة . وانفتاح اقتصادي كان معظم من أفاد منه ممن لا خلاق له ولا مبدأ . وتضخم ضاعت معه طبقة الموظفين والبورجوازية

الصغيرة . وسلع في متناول القلة ، ودون تملّك غيرها لها أهوال وفساد في الخلق وبيع أعراض . وشهادات دراسية صرنا نرى الآباء ينصحون أبناءهم بالغش من أجل الحصول عليها. وشرفاء يعيّرهم الناس بل وأبناؤ هم وأزواجهم إذ كان شرفهم عائقاً دون تكوينهم الثروات . وعمارات سكنية تبنى من تراب . ودجاج يُستورد فاسداً . وتجار مخدرات لهم الهيمنة والنفوذ والسلطة . ومهنيون بسطاء يكسبون أضعاف أضعاف ما يأتي أفراد الطبقة البورجوازية والمثقفين من دخل ، حتى داخَل أصحاب العلم وذوي الثقافة الرفيعة الشك في قيمة ما حصّلوه .

إزاء هذا وغيره باتت أهم ظاهرة سائدة في زماننا هذا ظاهرة الرعب لدى البورجوازية من أن تتحوّل إلى بروليتاريا ، وإدراكها عجزها عن صدّ التيار الذي يجرفها تجاه هذا المصير إلا بتقبل فكرة الانحراف . وقد انحرف الكثيرون بالفعل ، وما من يوم إلا وتشهد القلعة فيه فريقاً من أبنائها يهجرها إلى العدو ، إلى أن لم يعد بها غير من لم يسمح له ضميره بأن ينحرف ، ووجد صعوبة ضخمة في أن يتخلى عن قيم قديمة نشأ عليها ، وتمكّن من نفسه الإيمان بها . غير أن رفاقه مستمرون في هجر القلعة ، والعدد في تناقص ، والثقة تتآكل ، والخيار كاد أن يضحى مقتصراً على قبول الاستسلام للتيار أو الهزيمة وانهيار الكيان .

وكان لا بدّ للبقية الباقية من خَلْق بديل ثالث ، وابتداع وسيلة للدفاع عن النفس تمكّنهم من الاستمرار في رفع راية التحدّي. وإننا لواجدون حالات جمة كانت الرموز فيها والإشارات والزّي من أول ما يلجأ إليه أفراد طائفة مهدّدة ، كعلامة الصليب ورسم السمكة عند المسيحيين الأوائل ، وتنبيه الماسونيين لغيرهم برسم علامة في راحة اليد عند المصافحة ، وإطالة اللّحى وارتداء أزياء خاصة عند المحتجّين على قيم المجتمع الاستهلاكي في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. والدافع الرئيسي إلى هذا عند كل هؤلاء هو أن يشدّ بعضهم

من أزر بعض ، حتى أصبح مجرد سيرهم في الطريق ، ورؤيتهم فيه لأمثالهم ، يُشعرهم بأنهم ليسوا وحدهم في خضم الصراع . فإذا بإرادتهم الاستمرار في المقاومة تثبت ، وإذا ثباتهم يدفع غيرهم إلى التشبه بهم فيكثرون ، وإذا الكثرة تُبهجهم فيشجعون .

والحجاب في مجتمعنا يؤدي الغرض نفسه .

فإن كان منّا من يعلم هذا كله ويرى مع ذلك ضرراً اجتماعياً خطيراً في العودة الى الحجاب ، فعليه أن يضع في حسبانه ـ فوق كل اعتبار آخر ـ أن انتهاج سبيل العنف مع هؤلاء ، كوسيلة للحل ، ليس فقط من قبيل العبث ، وإنما هو أمر يرحّب به هؤلاء . فما من سعادة يرونها أعظم من سعادة الاستشهاد في سبيل العقيدة . كذلك فإنه من الغباء محاربة هذا التيار بمحاولة خلق تيار ديني تحتضنه السلطة وتوجّهه يرفع شعار الاعتدال . إذ ليس في الظروف التي أشرنا إلى بعضها آنفاً ما يشجع على اعتدال . لنطلب من المرأة التي يحاول مختطف أن ينتزع طفلها من ذراعيها الاعتدال . ولنطلب من الرجل الذي تلتهم النار داره الاعتدال . ولنطلب من الأب الذي يسعى مغتصب إلى اغتصاب ابنته الاعتدال . غير أننا لن نطلب الاعتدال من أناس يرون كافة دعامات حياتهم مهددة ، وكافة القيم التي نشأوا عليها وتقاليدهم التي يحبونها ويعتزون بها . أناس خيّرهم مجتمعهم صراحة بين الانحراف والاندثار .

وليست الحكومة وحدها المطالبة بالتصدّي لتصحيح الأوضاع التي دفعت هؤلاء إلى مثل هذا الموقف والمسلك . فالأفراد والجماعات كافة ـ حتى ميكانيكي السيارات الذي تحدثت عنه ـ مطالبون هم أيضاً بالمساهمة . وهي مساهمة نوجزها في جملة واحدة : كبح جماح النفس قبل أن يأتي اليوم الذي يذهب بنفوسهم .

﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ .



حجاب المرأة : هل هو من الاسلام ؟

جاء التمييز بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات مع بدء انقسام المجتمع إلى طبقات وإلى قبائل . فمع نشأة نظام الملكية الخاصة ، سواء في الأرض أو الحيوان أو النقود أو غير ذلك ، بدأ الحرص من جانب، صاحب الثروة على تنميتها وعلى التأكد من أنه سيورثها لأولاده هو . ومع ظهور نظام القبائل بزغ الاعتقاد لدى كل قبيلة قوية بأن قوتها مرتبطة بنقاء سلالتها . وهما سببان أدّيا إلى الرغبة في التأكد من نسبة الأولاد إلى آبائهم ، وبالتالي إلى ظهور مفاهيم عن السلوك المطلوب من الأنثى قبل الزواج وبعده ، وتأكيد أهمية البكارة وقت الزفاف ، وتفضيل الإسراع بتزويج الفتاة بعد بلوغها مباشرة ، أو حتى قبل بلوغها ، وإخضاع تحركاتها ونشاطها منذ وقت مبكر لرقابة الأب والأم والإخوة أو الأعمام ، إلى حين انتقالها إلى سلطة الزوج ورقابته .

وكان فرض الحجاب أحد الأنظمة المرتبطة بهذه المفاهيم ، قد ساعدت على انتشاره بعد ذلك اعتبارات اخرى ، من بينها سعي أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا إلى التشبه بأفراد الطبقة العليا ، وفرض الحجاب للتدليل على أن الرجال هم من سعة الحيلة والمهارة أو القوة بحيث بات دخلهم يغنيهم عن

خروج نسائهم للعمل ، وعن تعريضهن لظروف قد تهدّد شرفهن . فإن كان أفراد الطبقة العليا في العالم الإسلامي قد تخلّوا في قرننا هذا عن الحجاب بتأثير اتصالهم بالحضارة الغربية ، (وهو مسلك قلّدهم فيه أفراد الطبقتين الوسطى والدنيا لعشرات من السنين) ، فإن انتشار الحجاب بين أفراد هاتين الطبقتين الأخيرتين - رغم هجر الطبقة الأولى إياه - له أسباب خاصة عرضنا لها في المقال السابق، ونكتفي الآن بذكر سبب آخر، ألا وهو إحساس الطبقتين الأخيرتين بالخطر الذي يتهدّدهما من جرّاء انتشار أساليب العيش والإنتاج الغربية ، ومن جانب النشاط التجاري والصناعي الذي يمارسه أفراد الطبقة العليا من مواطنيهم والذي يحتذون فيه أساليب الغرب . ذلك أن هذا الإحساس بالخطر أدّى إلى ثورة على المفاهيم المقترنة بحضارة أعدائهم ومنافسيهم من الغربيين وأشياع الغرب من مواطنيهم ، وأدّت هذه الثورة إلى الإصرار على التمسك بتقاليد وقيم ربطوا بينها وبين الدين الإسلامي ، وذلك من قبيل التحدّي وحماية الذات ، وإن خالوا أن الأمر لا صلة له بالمصالح الطبقية .

ربط المفاهيم الاجتماعية بالدين

وكما هو الحال مع كافة القيم التي ترى طبقة أو عدة طبقات من صالحها أن تسود المجتمع الذي تعيش فيه ، ارتبطت بفرض الحجاب مفاهيم تضمّنتها العقائد السائدة ، أو أمثال العامة ، أو الأحاديث المنسوبة إلى النبي ، كمفهوم العيب ، واتهام المرأة بالغُلْمة وبأنها فتنة على الرجال ومن حبائل الشيطان ، واعتبار صوتها وغير صوتها عورة ، والقول باستحالة أن يخلو رجل وامرأة إلا كان الجنس شاغلهما ، والشيطان ثالثهما ، وبأن غالبية أهل جهنم ستكون من النساء .

فإن كانت القيم والمفاهيم عرضة للتغير على مرّ السنين بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، فإنه لمما يعرقل هذا التطور الاعتقاد بأن هذا الحكم أو ذاك (مما كان يستند في وقت ما إلى قيم وظروف معينة) ، هو من أحكام

الدين ، ولا سبيل إلى تغييره أبداً . لذلك فقد كان من السهل نسبياً على اليابانيات مثلاً أن يتخلّين عن عادة لبس الأحذية الحديدية الضيقة من أجل تصغير حجم القدم ، بسبب عدم ارتباط هذا التقليد بالدين ، في حين كان من الصعب نسبياً على المسلمات أن يتخلّين عن الحجاب الذي يرين أن القرآن قد أمرهن وألزمهن به إلى يوم الحساب .

وقد أدّى شيوع الاعتقاد بارتباط أوضاع معينة بالدين ، (كالحق المطلق للرجل المسلم في الطلاق ، أو في الزواج من أكثر من واحدة ، أو في حضانة أطفاله بعد بلوغهم سناً معينة) ، مع الشعور بضرورة تطوير هذه الأوضاع حتى تساير احتياجات العصر وظروفه ، إلى اتجاه السلطات في بعض الدول الإسلامية إلى انتهاج أحد طريقين : الأول (وهو ما لجأ إليه أتاتورك) هو الإعلان والتصريح بهجر التقيد بأحكام الدين ، والثاني (وهو ما لجأت إليه حكومتا تونس واليمن الجنوبي) هو إقحام تفسيرات على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تتفق تماماً مع نوايا السلطة ، حتى تطمئن ضمائر المؤمنين على استمرار الالتزام بالدين . فإن رأى أتاتورك مثلاً أن حق الرجل في الزواج من أكثر من واحدة شرّ اجتماعي ، ألغاه بجرّة قلم ، دون أي وازع ديني . أما إن رأت السلطات في تونس أو اليمن الجنوبي نفس الرأي ، واستقرّ عزمها على إلغائه ، ذهبت إلى أن القرآن بنصّه على شرط العدل بين الزوجات ، ثم التصريح بأن هذا الشرط لن يتحقق ، إنما يقصد إلى حرمان الرجل من حق الزواج من أكثر من واحدة ، وبالتالي فإن القانون الذي تسنّه بمنعه ملتزم بأحكام القرآن . والموقفان في رأينا غير سليمين ، إذ ينطوي الأول على تحدٍّ وتنكّر للدين ، وينطوي الثاني على تحايل ماكر على أحكامه .

والسبيل القويم في رأيي للتصدّي لمشاكل من هذا النوع ، هو تفهّم الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت بهذا الحكم أو ذاك ، وبيان ضرورة تغير الحكم لسقوط علّته بتغير الظروف ، وفق القاعدة الفقهية

القائلة بأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، مع التقيد دوماً بروح الدين ، والأغراض البعيدة للمشرّع الإلٓهي .

وهو السبيل الذي ننوي انتهاجه هنا بصدد حجاب المرأة .

الحجاب قبل الإسلام

إن الكثير من السمات التي يتميز بها وضع المرأة المسلمة ، والتي يحسب البعض أنها لصيقة بالدين الإسلامي ، عرفتها ولا تزال تعرفها مجتمعات كثيرة ، مثل أوروبا الجنوبية وأنحاء من أوروبا الشرقية والصين والهند وغيرها . من أمثلة ذلك : تفضيل المولود الذكر على الأنثى ، والتقصير في تعليم الفتاة وقصر تدريبها على الأعمال المنزلية والقيام بدور الأم ،والحدّ من اختلاطها بالذكور متى بلغت سناً معينة ، وتقييد حريتها في الحركة، والتلهف على تزويجها بسرعة ، وحق الزوج في تأديبها بالضرب ، واعتبار زناها جريمة تفوق بكثير جريمة زنا الرجل ، ومنحها قدراً أكبر من الحرية بعد بلوغها سن اليأس حين ينقضي احتمال إنجابها لأطفال من غير زوجها ، ومنحها أجراً هو دون أجر الرجل على عمل مساوٍ لعمله ، وكراهة نهوضها بدور سياسي أو اجتماعي بارز ، واعتبارها لعبة لا تصلح إلا أداة لخدمة الرجل أو متعته وإشباع شهوته .

كذلك فقد كان نظاما الحريم والحجاب معروفين سائدين في مجتمعات أخرى سابقة على ظهور الإسلام ، واستغلّهما رجال الطبقة الثرية كوسيلة لإبراز مدى ثرائهم وجاههم وللإكثار من فرص الاستمتاع الجنسي والترفيه ومن النسل . وقد ورد في العهد القديم من الكتاب المقدس ما يشير إلى لبس النساء للنقاب حتى في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد : « ورفعت رِفْقَة (ريبيكا) عينيها فرأت إسحاق ، فأخذت البرقع وتغطّت » (سفر التكوين ٢٤ : ٦٥) . وفي سفر إشعيا ٣ : ١٦ - ٢٣ : « وقضى اللّٰه على بنات صهيون إذ يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق غامزات بعيونهن وخاطرات في

سيرهن يخشخشن بأرجلهن ، أن يُعرّي عورتهن وينزع في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والأساور والبراقع » . وفي العهد الجديد (الرسالة الأولى إلى أهل كورنْثوس ١١ : ٧ ـ ١٠) : « لا حاجة بالرجل إلى تغطية رأسه ، فهو صورة اللّه ومرآة مجده . أما المرأة فمرآة لمجد الرجل . فالرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل . ولم يُخلق الرجل من أجل المرأة بل المرأة خُلقت من أجل الرجل . لهذا وجب على المرأة أن تلبس نقاباً على رأسها احتراماً منها للملائكة » .

ويتحدث ب . م . سايكس صاحب كتاب « تاريخ فارس » عن الفرس وقت داريوس (أي قبل الفتح الإسلامي بنحو ألف عام) فيقول :

« كان تعدّد الزوجات مشجّعاً عليه . وكانت الطبقات العليا تحجب نساءها فلا يظهرن للناس ولا يتنقلّن أبداً إلا في محفّات ذات ستائر محكمة الإغلاق . ولم يكن تعمل لهن التماثيل أو الصور ، كما لم ترد أسماؤهن في النقوش الباقية لدينا من ذلك العهد أو بعده . أما نساء البدو فالغالب أنهن لم يعرفن الحجاب ، وأن حالهن كانت أفضل بكثير من حال النساء المحجبات اللائي لم يكن يسمح لهن حتى باستقبال آبائهن وإخوتهن . فإن كانت هذه هي القاعدة العامة في الشرق ، فقد كان وضع المرأة في فارس أسوأ بكثير منه في الدول المجاورة . ولعل من أسباب تدهور الامبراطورية مؤامرات الخصيان ونساء الحريم المسمى بالفارسية أنديرون . وكانت الفارسيات يترفّعن عن القيام بأي عمل من الأعمال . وبالتالي فقد كنّ أدنى شأناً في هذا المقام من الإغريقيات اللواتي كن رغم حجابهن يقضين يومهن في الغَزْل وغيره من الأعمال المنزلية . ويلاحظ بوجه عام أن نسل البدويات الفارسيات كان أقوى من نسل المحجبات » .

أما في أوروبا فقد لبست نساء الإغريق والرومان النقاب للزينة ، والتزمت عذارى معابدهم بلبسه خلال الاحتفالات الدينية . وقد ظلت البراقع

الحمراء حتى عصر النهضة جزءاً من زينة الرأس ، تختار النساء له أغلى الأقمشة الشفافة أو المذهبة ، ويتفنّنّ في رصعه بالجواهر أو الأصداف أو الخرز حسب مكانة المرأة وحالتها الاجتماعية . وقد فرضت بعض نظم الرهبنة المسيحية لبس النقاب على الراهبات في مناسبات معينة ، كما كانت الفتيات يلبسنه في حفلات زفافهن حماية لجمالهن من الحسد . ولا يزال غطاء الوجه معروفاً إلى اليوم في أسبانيا في صورة المانتيلا ، وفي المكسيك في صورة الروبوزو .

والمؤكد على ضوء الشعر الجاهلي العربي ، وما أوردته كتب الأدب ككتاب « الأغاني » لأبي الفرج من قصص عن حياة العرب في الجاهلية ، أن الحجاب كان سُنّة مرعيّة عند نساء الطبقة الغنية من سكان المدن ، يتّخذنه للزينة وللدلالة على الوضع الاجتماعي ، وكان يشار إليه بأسماء مثل « النّصيف » و « السّتر » و « السجف » وغير ذلك . أما نساء البدو فكن كنساء البدو في فارس يختلطن غير محجبات بالرجال في حرية تامة . غير أن درجة التزام نساء المدن بالحجاب كانت تتفاوت من قبيلة إلى أخرى ، ويبدو أن قريشاً (وهي قبيلة النبي ، ومن أكثر قبائل العرب ثراء بفضل احترافها التجارة على نطاق واسع)، كانت من أكثر القبائل التزاماً به في الجاهلية. ويرى الفاكهي أن رجالها كانوا يزيّنون بناتهم وإماءهم ويعرضونهن غير منقبات عند الكعبة لاجتذاب الأزواج أو المشترين ، حتى إذا ما أفلحن في مهمتهن لم يفارقن الحجاب بعدها قط .

القرآن والحجاب

في « لسان العرب » : الحجاب : السِّتر . وحجب الشيء : ستره . وقد احتجب وتحجّب إذا اكْتَنَّ من وراء حجاب . وامرأة محجوبة : قد سُترت بستر . والحجاب : اسم ما احتُجب به ، وكل ما حال بين شيئين .

وقد ورد لفظ « حجاب » في القرآن سبع مرات بمعناه الأصلي

والمجازي مما يلقي ضوءاً على تطور استخدامه . كما ورد لفظ « محجوبون » مرة واحدة : ﴿ كلا إنهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ (المطففين ١٥) ، أي لا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته ، وهو أول استخدام للمعنى في القرآن (الفترة المكية الأولى من ٦١٠ إلى ٦١٤م) .

وجميع الآيات التي استخدمت لفظ « حجاب » ، عدا واحدة ، وردت في السور المكية (أي قبل ما يسمى بفرض الحجاب على النساء في العام الخامس الهجري) . وفيما يلي نصّها حسب ترتيب النزول :

١ - ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً . . . ﴾ (مريم : ١٦ - ١٧) . نزلت في منتصف الفترة المكية الثانية (٦١٤ - ٦١٥م) . وهي هنا تعني الاعتزال أو الستارة التي اعتزلت وراءها مريم أسرتها .

٢ - ﴿ إذ عُرِض عليه بالعشيّ الصّافِنات الجياد . فقال إني أحببتُ حُبَّ الخَيْر عن ذِكْر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ (ص ٣١ - ٣٢) . قيل في المعنى إن سليمان كان يملك ألف حصان أسرها في حربه ضد دمشق وغيرها . وإذ استعرضها يوماً ألهاه إعجابه بها عن صلاة المغرب، فضحّى بها جميعاً عدا مائة تكفيراً عن ذنبه . نزلت في منتصف الفترة المكية الثانية . والستر هنا هو بمعناه الصوفي : الناس والأشياء .

٣ - ﴿ وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ (الإسراء: ٤٥) . نزلت في أواخر الفترة المكية الثانية . والمعنى عند البيضاوي : حجاب يُطمس على الكفرة فيعجزون عن فهم ما تتلوه عليهم من الآيات .

٤ - ﴿ وقالوا قلوبنا في أكِنَّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون ﴾ (فصلت: ٥) . نزلت في أوائل الفترة

المكية الثالثة (٦١٦ - ٦٢٢م) . والمعنى ؛ لا نفهمك ولا تفهمنا ، فليعمل كل منا وفق ما يعتقد أنه الحق .

٥ - ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه اللّه إلا وحْياً أو من وراء حجاب ﴾ (الشورى ٥١) . نزلت في نحو منتصف الفترة المكية الثالثة . والمقصود سماع الكلام دون مشاهدة شيء ، وحجب المصطفين عن النور المنبعث من وجه اللّه .

٦ - ﴿ وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يَعرفون كلًّا بسيماهم ﴾ (الأعراف :٤٦). نزلت في أواخر الفترة المكية الثالثة ، وتتحدث عن أصحاب الجنة وأصحاب النار يوم القيامة إذ يفرّق بينهما سور أو حاجز .

أما الآية المدنية الوحيدة التي ورد بها لفظ الحجاب فهي الآية ٥٣ من سورة الأحزاب التي نزلت في العام الخامس الهجري (حوالي إبريل عام ٦٢٧م) وهي :

٧ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤْذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دُعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحْي منكم ، واللّه لا يستَحْي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول اللّه ولا أن تنكِحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند اللّه عظيماً ﴾ .

وحيث أن هذه الآية - كما هو واضح - خاصة بزوجات النبي وحدهن ، فلا يمكن من الآيات التي ذكرت لفظ الحجاب أن يستدل على حجاب المسلمات بصفة عامة .

أما الآيات الأخرى (وجميعها مدنية) التي تتنـاول مسلك النساء وهيئتهن ، فهي :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتّقيتُن فلا تَخْضَعْن بالقول فيطمعَ الذي في قلبه مرض ، وقُلْن قولاً معروفاً . وقَرْن في بيوتكنَّ ولا تبرَّجْنَ تبرُّجَ الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتِين الزكاة وأطعن اللّه ورسوله ، إنما يُريد اللّه ليُذهِب عنكم الرِّجْس أهل البيت ويُطهِّركم تطهيراً . واذكرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات اللّه والحكمة ، إن اللّه كان لطيفاً خبيراً ﴾ (الأحزاب ٣٢ - ٣٤) .

وهي أيضاً خاصة بنساء النبي .

٢ - ﴿ والقواعِد من النساء اللاتي لا يرجُون نكاحاً فليس عليهن جُناح أن يضعن ثيابهن غير متبرِّجات بزينة وأن يستعففن خيرٌ لهن ﴾ (النور ٦٠) .

فهنا أمر بالعفة ونهي عن التبرّج لا غير .

ثم آيتان أخريان هما محور كل حديث وكل نقاش حول ما إذا كان القرآن قد فرض الحجاب على المسلمات عامة ، وهما :

الأولى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرفْن فلا يُؤْذَيْن ﴾ (الأحزاب ٥٩) .

والثانية : ﴿ وقل للمؤمناتِ يغْضُضْن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ولْيُضرِبْنَ بِخُمُرِهنّ على جيوبهن ولا يُبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني أخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أُولي الإرْبة من الرجال أو الطِّفل الذين لم يظهروا على عَوْرات النساء ولا يضرِبْن بأرجلهن ليُعلَمَ ما يُخفين من زينتهن ﴾ (النور ٣١) . نزلت في رمضان سنة ٥هـ ، فبراير ٦٢٧م بمناسبة حديث الإفك .

فهنا أضيفت « نساء المؤمنين » و « المؤمنات » إلى أزواج النبي وبناته . ويقتصر الخلاف بين مؤيدي الحجاب ومعارضيه على تحديد المقصود بعبارة

« يدنين عليهن من جلابيبهن » ، وعبارة ﴿ وليضربْن بِخُمُرهن على جيوبهن ﴾ ، وتعريف الزينة التي أمر اللّه رسوله بأن يشير على المؤمنات بألا يبدينها إلا لمحارمهن الذين لا يجوز لهن الزواج من أحدهم وللرقيق والأطفال .

التفسير وأسباب النزول

وأبدأ فأنبه إلى أن الأمر في هذه الآيات لا يتجاوز حدّ النصح إلى التحريم ، ولا هي بالتي تنص على عقوبة لمن خالف ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . فالأمر هنا كالأمر في آية ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام اللّه ﴾ (الجاثية ١٤) ، وآية ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ﴾ (الإسراء ٥٣) ، وآية ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ (البقرة ٢١٩) ، وغيرها . وقد ورد في الآيتين ١٥١ و ١٥٢ من سورة الأنعام بيان بما حرّمه اللّه ﴿ قل تعالَوْا أتْلُ ما حرّم ربُّكم عليكم . . . . ﴾ ، ولم يُشر فيهما إلى تحريم لإبداء الزينة .

يقول الجاحظ في « كتاب القيان » :

« كل شيء لم يوجد محرّماً في كتاب اللّه وسنّة رسوله فمباح مُطْلَق . ولم نعلم للغيرة في غير الحرام وجهاً . ولم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ؛ كانوا يجتمعون على الحديث والمسامرة بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكر إذا أمِنوا المنكر . حتى لقد حَسِك (الحسك : الحقد) في صدر أخي بثينة من جميل ما حَسِك من استعظام المؤانسة ، وشكا ذلك إلى زوجها ، فكَمَنا لجميل عند إتيانه بثينة . فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحناً لها : هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ويطفىء ثائرة الشوق ؟ قالت : لا ، فالحب إذا نَكِحَ فسد . فأخرج سيفاً قد كان أخفاه تحت ثوبه وقال : أما واللّه لو أنعمتِ

لي لملأته منك . فلما سمع زوج بثينة وأخوها ذلك وثِقا بغيب جميل ، ورَكنا إلى عفافه ، وأباحاه النظر والمحادثة .

« فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام ، حتى ضُرب الحجاب على أزواج النبي خاصة . ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية ، ولا حراماً في الإسلام . ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن في الحوائج ، ويدخلن في الدواوين ، ونساء يجلسن للناس ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب . والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام ، أن المرأة المُعَنَّسَة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك . فلو كان حراماً وهي شابة لم يحلّ إذا عُنِّست . ولكنه أمر أفرط فيه المتعدّون حدّ الغَيرة إلى سوء الخلق ، وضِيق العَطَن ، فصار عندهم كالحق الواجب » .

فأما آية ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين ﴾ ، فقد فسّرها الواحدي صاحب أفضل كتاب في أسباب نزول القرآن ، بقوله : « نزلت في الزّناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيرون المرأة فيدنون منها فيغمزونها ، فإن سكتت اتبعوها ، وإن زجرتهم انتهوا عنها . ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ، ولكن لم يكن يومئذ تُعرف الحرة من الأمة ، إنما يخرجن في دِرْعٍ وخمار . فشكون ذلك إلى أزواجهن ، فذكروا ذلك لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، فأنزل اللّٰه تعالى هذه الآية . . فكان فُسّاق المدينة يخرجون ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا : هذه حُرّة فتركوها ، وإذا رأوا المرأة بغير قناع قالوا : هذه أَمَة ، فكانوا يراودونها » .

فحكمة الأمر هنا هي التمكين من التفرقة بين الحرائر والإماء ، وحماية الحرائر من عبث العابثين ليلاً في طرقات المدينة . ويؤيد هذا التفسير ما

يحكى عن عمر بن الخطاب من أنه ضرب أَمَةً بسوطه إذ رآها تتشبّه في لباسها بالحرائر . وغنيّ عن القول أن العلة قد زالت في عصرنا هذا بتحرير الرقيق .

وأما عبارة ﴿ وليضربن بخُمُرهـن على جيوبهن ﴾ فإن الجيب هو موضع الصدر ، أو موضع الفتحة من القميص عند الصدر . يقول الزمخشري في « الكشاف » : « كانت جيوب النساء واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها . وكنّ يسدلن الخُمُر من ورائهن فتبقى مكشوفة ، فأُمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى يغطينها » . فالمقصود إذن هو تغطية الصدر .

وأما عن تعريف الزينة فقد قال القرطبي : « اختلف الناس في قدر ذلك ، فقال ابن مسعود ظاهر الزينة هو الثياب ، وزاد ابن جبير الوجه ، وقال الأوزاعي الثياب والوجه والكفّان ، وقال ابن عباس بل إلى نصف الذراع . . . » . فالواضح أن الأمر كان بين الأقدمين موضع خلاف . وما كان موضع خلاف بين الأقدمين فمن حقنا أن نخالفهم بصدده ، وأن نأتي بتعريف للزينة الباطنة التي يمكن أن يؤدي إبداؤ ها بأبناء عصرنا هذا إلى الإفتتان الذي قصد القرآن إلى الحيلولة دونه .

أما القول بأن الخمار هو غطاء للرأس ، وبالتالي فإن الضرب به على الجيوب يعني بالضرورة ستر الوجه كله ، فقول مردود . فالخمار لغة هو كل ما سَتَر . وإنما سُمّي الخمر خمراً لأنه يحجب العقل . ولو كان القصد من الآية هو إسدال غطاء الرأس بحيث يخفي الوجه والنحر والصدر جميعاً لما ذهبت غالبية المفسرين إلى جواز إظهار الوجه . كذلك فإن التشدّد في تعريف باطن الزينة هو ، كما وصفه الجاحظ ، من قبيل التعدّي وسوء الخلق وضيق العَطَن . وقد ذهب البعض إلى أن المقصود بالإخفاء هو الجبين وحده كعلامة على أن المرأة من المحصنات فيحجم الرجال عن مضايقتهن . وعلى أي الأحوال فقد كانت كلّ من سكينة بنت الحسين بن علي ، وعائشة بنت طلحة ابن عبيد اللّه رضي اللّه عنهما من السافرات ، ولم يطعن أحد في دينهما .

وكان للنساء حتى القرن الثالث الهجري ـ وربما بعد ذلك أيضاً ـ حق الصلاة في المساجد مع الرجال . غير أن المفسرين الأولين للقرآن ـ وجلّهم من فارس التي عرفت الحجاب الكثيف للمرأة قبل الإسلام بأكثر من ألف عام ـ طالبوا المرأة بأكثر مما طالبهن به القرآن (انظر كتاب « حوادث الدهور » لابن تغري بردي الذي ينسب إلى المفسرين الفرس نشْأة نظام الحريم في الإسلام) ، وفرضوا على كل نساء المسلمين ما فرضه القرآن على نساء النبي وبناته على أساس أنه من المرغوب فيه اتباع سنته ، واتباع المسلمات لسنة أزواجه .

لقد استقر لدى المسلمين منذ البداية مبدأ جواز العمل بالعُرف في الأمور التي لم يرد فيها نص من القرآن أو السنة . فما بات للفرس السيادة في ظل الدولة العباسية ، وأقبل علماؤهم على الاشتغال بعلوم التفسير والحديث والفقه ، حتى بدأ يشيع بين المسلمين المفهوم الفارسي القديم عن وضع المرأة وعن الحجاب وعن نظام الحريم ، إلى أن استقر في أذهانهم أنها نظم وثيقة الصلة بالدين ، وأن الإسلام قد قضى بها وأقرّها . وقد ساعد على شيوع هذا المفهوم بعد ذلك رضا المفسرين العرب للقرآن عن التفسير الفارسي الصميم للآيات التي سبق ذكرها ، لما فيه من تعزيز لسلطان الذكر على الأنثى ، ولما يتيحه للرجال المعانين من عواقب الاستبداد السياسي السائد في دولتهم من فرص التنفيس عن هذه المعاناة بفرضهم استبداداً مماثلاً في محيط الأسرة .

ولا أدلّ على رسوخ هذا المفهوم بمضي الوقت في أذهان المسلمين ، من تلك الصدمة التي كانوا يصابون بها متى دخلوا في أسفارهم أقطاراً تتمتع نساؤها بالحرية التي أشاد الجاحظ بها ، ولا يعرفن نظام حجاب أو نظام حريم . يقول ابن بطوطة في وصف رحلة إلى مدينة إيوالاتن في صحراء المغرب :

« وشأن هؤلاء القوم عجيب . فأما رجالهم فلا غيرة لديهم . وأما نساؤهم فلا يتحشمن من الرجال ، ولا يحتجبن مع مواظبتهن على

الصلوات . وقد يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات . ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك . . دخلتُ يوماً على القاضي بعد إذنه في الدخول ، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن ، بديعة الحسن . فلما رأيتُها أردت الرجوع . فضحكت المرأة مني ولم يدركها خجل . وقال لي القاضي : لِمَ ترجع ؟ إنها صاحبتي . فعجبتُ من شأنهما ، فإنه من الفقهاء الحجاج . وقد أُخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته ، لا أدري أهي هذه أم لا . . ودخلتُ يوماً على أبي محمد المسّوفي ، فوجدته قاعداً على بساط ، وفي وسط داره أريكة مظللة عليها امرأة معها رجل قاعد ، وهما يتحدثان . فقلت له : من هذه المرأة ؟ قال : هي زوجتي . قلت : وما الرجل الذي معها ؟ قال : هو صاحبها . فقلت له : أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفتَ أمور الشرع ؟ قال : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير طريقة ، لا تهمة فيها ، وليست نساؤنا كنساء بلادكم . فعجبتُ من رعونته وانصرفت عنه ، فلم أعد إليه بعدها . واستدعاني مرات فلم أُجبه . . . وهم مع ذلك مسلمون محافظون على الصلوات وتعلّم الفقه وحفظ القرآن» .

الخاتمة

وهكذا نجح فقهاء الفرس ثم الأتراك من بعدهم ومن تابعهم من المفسرين العرب ، في إيهام عامة المسلمين بأن تفسيرهم المنبثق عن التقاليد الفارسية أو التركية القديمة ، أو عن مصلحة رجال العرب ، جزء لا يتجزأ من الإسلام ، ومنبثق عن القرآن . وقد لجأوا جميعاً من أجل تعزيز تفسيرهم إلى اختراع الأحاديث التي نسبوها إلى النبي ، والقصص التي أقحموها في سيرته ، مما يقضي بحجاب المرأة ، مثل : « دخلت أسماء بنت أبي بكر على رسول الله وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها النبي وقال لها : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا » ، وأشار إلى وجهه وكفّيه » .

ولمن الشيّق حقاً أن نلاحظ أنه في حين تمكّنت الحكومات والمجالس التشريعية في الدول الإسلامية بسهولة بالغة ، ودون أدنى حاجة إلى تبرير وإيضاح ، من سنّ التشريعات والقوانين المدنية والتجارية والجنائية التي لا صلة لها بما نص القرآن عليه في هذه المجالات ، كان كل تعديل مهما هان شأنه في قانون الأحوال الشخصية ، مما يستوجبه تطور الظروف وأحوال العصر ، يلقى معارضة ضارية وغضباً عارماً كثيراً ما أفلحا في تعطيله أو إلغائه . والسبب في ذلك ، في رأينا ، هو أن معظم الطبقات وجدت في تطوير التشريعات المدنية والتجارية ما يخدم مصالحها ، وفي تطوير الأحكام الجنائية ما لا يمس مصالحها من بعيد أو قريب ، فدفعها ذلك إلى تجاهل مناقضتهما للأحكام القرآنية . أما التخلّي عن المفاهيم الفارسية والتركية التي تجعل من المرأة أسيرة في قبضة الرجل ، وفي حكم الأَمَة له ، وهو ما يعني ـ كما سبق القول ـ تخلّي الرجل في مجتمعنا عن المجال الوحيد المتبقّي له لممارسة سلطانه واستبداده ، والتنفيس عما يشعر به من قهر سياسي واجتماعي واقتصادي ، فقد رآه الرجال وثيق الصلة بالإسلام ، واعتبروا مقاومته واجباً مقدساً يحتّمه الدين .

٧ عن العلمانية في العالمين المسيحي والاسلامي

يختلف تعريف الناس للعلمانية باختلاف مواقفهم منها . فمنهم من يرى أنها تقصر الاهتمام على الإنسان ومصالحه الدنيوية ، وأنها في جوهرها معادية للدين والغيبيات . ومنهم من ينفي أنها ضد الدين في شيء ، أو أنها تنكر عالم ما وراء الطبيعة . كل ما هناك هو أنها لا ترى الخير قاصراً على الآخرة ، وترى أن الحياة الدنيا يمكن أن تكون خيراً عظيماً ، وأن طلب الخير فيها خير . وهي تذهب إلى أنه ثمة في هذه الحياة الدنيا مقاصد مادية من الغباء والخطر إهمالها وعدم الاحتفال بها، وأنه من الحكمة والمصلحة ، بل ومن قبيل الرحمة والواجب ، أخذها في الحسبان ، حتى تتوفر الرفاهية المادية لأكبر عدد ممكن من الناس .

فهي لا تنكر أن ما عند اللّه خير وأبقى . ولكن : ﴿ قل من حرّم زينة اللّه التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (الأعراف ٣٢) ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا اللّه ﴾ (البقرة ١٧٢) ، ﴿ يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (البقرة ١٨٥) ، « ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ (طه ٢) ، ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (الحج ٧٨) .

فأما ما دفع أعداءها إلى وضمها بمعاداة الدين ، خاصة في العالم المسيحي ، فإصرارها على الإنتصار لحرية الفكر ، ولحق كل إنسان في أن يفكر لنفسه ، وحقه في الاختلاف في الرأي بصدد كافة مجالات المعرفة ، وفي مناقشة كافة المسائل الحيوية مثل أسس الالتزام الخلقي ، ووجود اللّه ، وخلود الروح ، وسلطان الضمير ، وفي أن يتخذ من مبادىء الأخلاق الطبيعية أساساً لنظامه الأخلاقي ، وأن يعتبر العقل هاديه الأكبر في هذه الحياة الدنيا ، والحكم الأول في سبيل إيجاد الحلول لمعضلاته .

أما ما يتفق هؤلاء وأولئك عليه بصدد تعريف العلمانية ، فهو أنها محاولة في سبيل الاستقلال ببعض مجالات المعرفة عن عالم ما وراء الطبيعة ، وعن المسلّمات الغيبية .

جذورها الحديثة في أوروبا

يمكن القول بأن الجذور الحديثة للاتجاه العلماني في أوروبا تمتد إلى أواخر العصور الوسطى ، حين وضع أشياع الفلسفة المدرسية حدّاً فاصلاً يميز بين الإيمان بالمسلّمات الغيبية وبين المعارف العلمية ، معترفين في الوقت ذاته بمجال مستقل لعلم اللاهوت وللديانات السماوية ، مختلف في طبيعته عن مجال الحقائق التي يمكن للعقل البشري أن يدركها وأن يمحّصها ويتحقّق منها . وقد تأثر هؤلاء تأثراً عظيماً بكتابات الفيلسوف الأندلسي ابن رشد ، خاصة بكتابة « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وهو ما ينعكس في تقليل القديس توما الأكويني من شأن العداوة بين المعارف العقلية والديانات المنزلة .

غير أن البعض خطا بعد ذلك خطوة أبعد ، فذهب دونس سكوتوس وأوكهام وأنصارهما إلى أن كل مسائل العقيدة مليئة بالمتناقضات التي يأبى العقل البشري قبولها ، وأنه ليس بوسع هذا العقل أن يؤدي رسالته ، وينهض

بمهمته ، إلا في مجال الخبرات القابلة للتحميص ، لا في عالم ما وراء الطبيعة . وقالوا إنه على الإنسان أن يفصل فصلاً جلياً بين مجالات المعرفة التي يمكن للعقل البشري تحصيلها ، وبين مجال العقيدة ، أي بين العلم والإيمان .

وقد مهّد هذا الاتجاه لنمو العلم الحديث وتطويره ، وشجّع على النظر والتحرّي القائمين على المنطق . كما أدّى الاهتمام الشديد الدائب الذي أولاه العلماء والمخترعون للمظاهر المتنوعة لعالمي الطبيعة والإنسان ، وجهودهم المثمرة من أجل خدمة البشرية وسدّ احتياجاتها المادية ، إلى الغضّ من سمعة رجال الدين ومكانتهم ، وهم المشغولون بمسائل وخلافات رأى عدد متزايد من الناس أنهم في غنى عنها ، وأنها لا تحقق طائلاً أو نتائج ملموسة .

ومع ذلك ، وبالرغم من المساهمة القيمة التي قدّمها عصر النهضة في سبيل تعزيز النظرة العلمانية ونشرها ، فإن جذورها لم ترسخ إلا في القرن السابع عشر ، وذلك بفضل ديكارت وهوبز وسبينوزا ولايبنيتز ، ثم ديدرو ودالامبير من بعد ، وهم الذين حاولوا لأول مرة رسم صورة عقلانية للكون تقوم على أساس من المعارف العلمية الثابتة .

لقد ظل الاعتقاد السائد حتى نهاية العصور الوسطى هو أن الكنيسة تحتكر الوصاية على خير الإنسان في الدنيا والآخرة ، وأن لها حق الهيمنة على الدولة وتوجيه الحكومات التي يقتصر دورها على تنظيم بعض مظاهر الوجود البشري العرضي قصير الأمد في هذه الحياة الدنيا ، متاع الغرور . أما عصر النهضة ، فبالرغم من أنه كان يمثل نقطة تحول هامة في الفكر الفلسفي والفكر السياسي معاً نتيجة إعلائه من شأن النظرة العلمانية ، فقد هدّد إنجازاته ما اتسم به عصر الإصلاح الديني الذي تلاه مباشرة من جهود تستهدف العودة إلى المفاهيم الكنسية . ففي حين أكّد ماكيافيلي وأتباعه الكثيرون حق الأمير في أن يحكم رعاياه مستقلاً عن الكنيسة ، وفي أن يصدر القوانين والتشريعات غير

المنبثقة عن القانون الكنسي ، عاد مارتن لوثر إلى بيان ضرورة إخضاع الأنظمة والمؤسسات الدنيوية للسلطة الدينية ، كما تمكن كالڤن من تأسيس حكومة ثيوقراطية في جنيف تحكم وفق ما خال أنها شريعة الله .

عصر التنوير

أما القرن السابع عشر فقد شهد تثبيت دعائم العلمانية ، وذلك بفضل مفكرين من أمثال مونتيسكيو أنكروا أن تكون الحقيقة واحدة مطلقة وعالمية النطاق ، وذهبوا ـ لأول مرة ـ إلى أن الشرائع لا تصح إلا متى أخذت في الاعتبار اختلاف المجتمعات وتباينها ، وعكست التطورات المتلاحقة فيها ، وقبلت مبدأ ضرورة تعديلها على ضوء ما يطرأ على كل مجتمع من تغييرات .

ثم جاء عصر التنوير في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فكان من أهم ما اتسم به تفجّر النزاع حول حق الرجل العادي في النظر بنفسه في أمور الدين والعقيدة . فقد كان ثمة تفرقة واضحة جلية بين رجل الدين وبين غيره . كان على رجل الدين وحده واجب الإلمام الواسع بالعقيدة وتفاصيلها ، وما كان أحد لينتظر من غيره التبحر فيها ، أو يطالبه بأكثر من فكرة بسيطة عن الأركان الأساسية للدين . أما غير ذلك من المسائل التي لا يحيط بها علمه ، ولا طاقة لقدرته على الفهم بها ، فعليه بصددها أن يذعن لرأي الكنيسة وأن يطيع أوامرها طاعة عمياء . وقد رضيت الكنيسة بهذا الوضع منذ نشأتها ، ورضي به الرجل العادي ، واستقرّ الاعتقاد بأنه لا مناقص من أن يكون هذا الرجل العادي جاهلاً إلى حد كبير بالشؤون الروحية .

ثم طرأ على هذا الوضع تغير جوهري في عصر الإصلاح الديني . فقد سعت اللوثرية إلى تبسيط العقيدة ، وتخليصها من مظاهرها المعقّدة ، وقلّصت من نطاق النظريات الكنسية حتى باتت قاصرة على ما ورد في الكتاب المقدس ، وأنهت احتكار القسس الكاثوليك للطقوس الدينية . كذلك فقد كان من شأن ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الأوروبية المختلفة أن بات

الدين أمراً قريباً من مفهوم الرجل العادي . ولا بدّ من الاعتراف لكالڤن بفضل إتاحة الفرصة للرعية كلها أن تقوم بنفسها بتفسير العقائد بعد أن كان هذا التفسير حكراً على القساوسة ، وذلك حين حثّ كل مواطن على الاجتهاد ، وبيّن له فضل إقباله على التعمق والتبحر في علوم الدين حتى لا يكون أداة صماء بكماء عمياء في أيدي محتكرين ، بعضهم من الأفّاقين الدجّالين .

مثل هذا الموقف خلق مُتَنَفَّساً صحياً وصمام أمن في الدول البروتستانتية حالا دون ازدهار العلمانية العدوانية التي عرفها العالم الكاثوليكي . ففي الدول الأولى ظهر نوع جديد من المواطنين العاديين المقرّين بنتائج البحوث العلمية ، والمهتمين مع ذلك بالنظر بأنفسهم في مسائل العقيدة . أما في الدول الكاثوليكية فسرعان ما أعقب عصر الإصلاح الديني حركة مناهضة للإصلاح بزعامة سواريز اليسوعي ، أعادت تأكيد الموقف التقليدي البالي ، وأصرّت على ضرورة أن يقنع الرجل العادي بفتات المعارف الدينية ، والقول بأنه لا بأس عليه من جهله ما دام يذعن إذعاناً تاماً للحقائق التي تعلنها كنيسته . وقد جاهدت العامة في فرنسا وغيرها من الأقطار الكاثوليكية من أجل تأكيد حقها في أن يكون لها دور فعّال نشط في شؤون الدين رغم أنف كنيسة متشبثة بسياسة تجاهل الرجل العادي ، وظهر مذهب الينسينية اللاهوتي الذي يؤيد منح الرجل العادي هذا الحق . غير أن الكنيسة أبت أن تكون مسائل العقيدة من شأن هواة غير متخصصين ، أو أن تكون في متناول أيديهم كما هي في متناول أيدي القساوسة المدرّبين . وكانت خلاصة موقفها أن ثمة بضع عقائد بسيطة واضحة يمكن أن يشترك الناس العاديون في استيعابها مع القساوسة ، بيد أن هناك حشداً هائلاً من العقائد صعبة الفهم مما لا ينبغي للعامة أن تخوض فيها ، وعليها قبول حكم الكنيسة بصددها دون إعمال للفكر .

ردّ الفعل

إزاء هذا الموقف المتعنّت من الكنيسة الكاثوليكية ، أضحى البديل الوحيد أمام الكاثوليكي العادي الباحث عن شكل من أشكال التعبير عن نفسه ، أن يحوّل اهتماماته وتساؤلاته وطاقاته إلى مجالات لا دخل للكنيسة فيها ولا يمتدّ إليها سلطانها ؛ وهي المجالات الاجتماعية والسياسية والعلمية . وإذ أصرّت الكنيسة على رفضها اشتراكه بأي وجه من الوجوه في مجال النظرية اللاهوتية واجتهاده في أمور الدين ، فقد أصرّ الرجل العادي من جانبه على ألا تشارك الكنيسة على الإطلاق في المجالات الدنيوية العلمانية ، كما أبى أن يستند في بحثه في المسائل الدنيوية إلى مفاهيم لاهوتية ومسلّمات دينية .

وكان ظهور هذا الاتجاه المضادّ للكنيسة ، والمعادي لرجال الدين ، معاصراً لنمو الطبقة المتوسطة . وإذ عجز البورجوازي المثقف عن أن يجد لنشاطه مجالاً في الكنيسة باعتباره رجلاً عادياً ، أدار ظهره كلية للكنيسة ، وبات المحرك الرئيسي للهجمات العنيفة المتزايدة ضد علماء اللاهوت المشغولين بمسائل ما وراء الطبيعة والغيبيات . ولم يكن في نية هؤلاء العلمانيين الجدد أن يفرّقوا بين الكنيسة والدين ، أو أن يظلوا على توقيرهم القديم للعقيدة حتى مع مجاهرتهم بالعداوة للكنيسة . فقد كان العلم قد بدأ يلقي ظلال الشك على أقدس المعتقدات الدينية . وكان لا بد من وقوع الصدام في النهاية . وفي حين زادت بمرور الوقت دقة وسائل العلمانيين وسهولة استخدامهم لأساليب البحث العلمي والنقد والتمحيص ، باتت سلطات الكنيسة ونظرياتها عاجزة عن الحيلولة دون انتشار العلمانية في كافة مجالات الفكر والنشاط البشريين،فكان أن تقلّص نفوذها في المجتمع، وكان أن انصرف الناس عنها ، خاصة الطبقة المتوسطة ، لا يطلبون منها مساعدة أو يلتمسون النصح والإرشاد ، وتعلّقت الآمال بالعلم وحده باعتباره القادر على تحقيق أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية والرخاء والسعادة لأكبر عدد ممكن من أفراد البشر .

الدين العلماني

ظل إذن دور الكنيسة في الانحسار والتقلص التدريجي ، خاصة منذ الثورة الفرنسية ، حتى بدأ يظهر فيها اتجاه جديد خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، إذ طلع عدد من رجال الدين في الدول الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء يقولون بأن العلمانية ليست ضدّ المسيحية ولا ضدّ الدين . ويرى هؤلاء أن كنيسة العصور الوسطى أخطأت إذ ركّزت اهتمامها على الحياة الأخرى دون الحياة الدنيا وأبدت احتقارها للمشاغل الدنيوية . كذلك فقد أخطأ العلمانيون الملحدون إذ بالغوا في حصر اهتمامهم على مجال التجارب العملية المباشرة التي يمكن التحقّق منها فوراً ، دون المكوّنات البعيدة للواقع ، ودون الميتافيزيقا واللاهوت . ثم خرجوا بنظرية « المسيحية العلمانية » ، قائلين بأنه من الواجب اهتمام المسيحية بالدنيا اهتمامها بالآخرة ، وأن تتاح للإنسان في عالمه المادي فرصة تعزيز القيم المسيحية ونشرها ، وبأنه يمكن اكتشاف المعنى الحقيقي لرسالة المسيح ، وتحقيقه عملاً ، من خلال شؤون الحياة اليومية ، وواقع الحياة العلمانية في المدن .

في العالم الإسلامي

أما عن الوضع في العالم الإسلامي فإنه يختلف ويتفق مع ما ذكرناه لتوّنا عن العالم المسيحي في أمور شتى :

وأبرز أوجه الاختلاف هو أن الإسلام في صدره لم يعرف كنيسة أو نظام رجال الدين ، ولا كانت في دولته وقتها طبقة منهم متميزة عن غيرها . فالأمور الدينية والدنيوية واحدة لا تمايز بينها . وإمام الجماعة في الصلاة هو قائدها في الحرب . ولا اختلاف في زيّ يحكمه اختلاف المنصب . والقرآن كتاب مفتوح ، بلسان عربي مبين ، بوسع الكافة أن تقرأ فيه . ولا كان ثمة من ادّعى أن التفسير حكر عليه . وكان النظر في علوم الدين مرحّباً به ، مشجّعاً عليه . كما كان الاجتهاد في أموره متاحاً لكل من قدر عليه . كذلك كان الإسلام أكثر

الأديان اتفاقاً مع المنطق والعقل وطبائع البشر ، وكانت تعاليمه أقل التعاليم حاجة إلى الدخول في صراع مع النتائج التي تتوصل إليها العلوم . وبالتالي فإن السلطة في دولته لم تسع إلى الحدّ من حرية العلماء في أبحاثهم ، ولا كانت تنكّل بهم بدعوى خطر ثمار علمهم على العقيدة .

وليس ثمة كتاب مقدس أحفل من القرآن بالآيات التي تحض الناس على النظر والتفكير وتحكيم العقل ، ولا أجوى منه على عبارات مثل : أو لم ينظروا . . . فلينظر الإنسان . . . أفلا يتدبرون . . أفلا يعقلون . . . لعلهم يتفكرون . . . لو كانوا يفقهون . . . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف . . . فإن كان قد ورد به بعض المعارف التاريخية أو الجغرافية أو الفلكية أو غيرها ، فهي لم ترد مقصودة لذاتها ، وإنما للتدليل على قدرة الله ، ولإقناع قوم ذوي حظ من العلوم محدود، ولا بأس من تنمية تلك العلوم فيما بعد بما يتفق مع سعة المدارك ، ونمو حصيلة المعارف . وإن كان قد فضّل العمل من أجل الآخرة فهو لم ينكر أن العمل الدنيوي خير ، ولا هو أوصى بإهمال المعايش والمقاصد المادية ، ولا وقف حائلاً دون السعي من أجل توفير الرفاهية للناس ، ولا قضى بإخضاع المؤسسات الدنيوية لسلطة دينية لا وجود لها أصلاً في الإسلام . أضف إلى ذلك أن بساطة العقيدة الإسلامية وخلوّها من كل مظاهر التعقيد نفيا الحاجة إلى كهنوت يتخصص في الغوص في أعماقها للخروج على الناس بعد ذلك بما يكتشفونه من حقائق .

كذا كان الإسلام حين كان الإسلام إسلاماً . فإن كان العصر الأموي قد شهد ظهور جماعة من الأتقياء الذين انصرفوا بكليتهم عن مشاغل الدنيا إلى القرآن يتفهّمون معانيه ، ويستنبطون منه الأحكام ، وإلى الحديث يتلمسونه حيث كان ، وإلى الجلوس في المساجد يتدارسون التفسير والسنّة والسيرة ، فإن التفرقة الواضحة بين الفقهاء وعلماء الدين وبين غيرهم لم تبدأ إلاّ في العصر العباسي . ففي ذلك العصر أضحى التعليم الديني أكثر تنظيماً ، وبات فيه من

المناهج ما يسمح بالتخصص. فإن درس الدارس هذه المناهج وبرز فيها أمكن اعتباره من الفقهاء ، وإن لم تكن ثمة درجات علمية يحرزها من أتم دراسته بعد امتحان. إنما كان الامتحان امتحان الرأي المحيط به من علماء ومتعلمين. وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ لأن الفقه يؤهل أصحابه لتولي مناصب يتعيشون منها كمنصب القاضي ومنصب المؤدب والمعلم لأولاد الخلفاء والأمراء والأغنياء . أضف الى ذلك أن الفقهاء سرعان ما تطلّعوا في ظل دولة العباسيين إلى أن تصبح لهم ـ دون طبقة الكتّاب والوزراء ـ اليد العليا في الدولة التي أطاحت بالأمويين بدعوى هجرهم للشريعة ، فباتوا يصرّون على أن يلتزم السلطان بأحكام الشرع ، وهو ما كان يهمهم إذ هم وحدهم المؤهلون ـ في زعمهم ـ لأن يحدّدوا في ثقة ماهية الشرع .

رجال الدين

وهكذا بدأت تتكوّن في العالم الإسلامي طبقة من رجال الدين شبيهة إلى حدّ كبير بكهنوت المسيحية ، وبدأت تظهر فيه الشرور والدواعي التي أدّت في العالم الغربي إلى غلبة العلمانية . فقد باتت هناك الآن طبقة تحتكر مناصب معينة ؛ ذات زيّ خاص تُعرف به ؛ تصدر الفتاوى وتوجد الرخص لمن شاء من ذوي السلطة أو الثروة التخلص من الالتزام بحكم من أحكام الدين ؛ تحاكم وتجلد أو تعزل من قال قولة تخالف عقيدة السلطان وفقهاء السلطان (كما في محنة خلق القرآن) ؛ تقتل السهروردي وتسجن ابن تيمية بتهمة الزندقة ، وتصلب الحلاج المتصوف بتهمة الكفر ؛ ترى من حقها أن تقفل باب الاجتهاد فلا يجوز لأحد بعد ذلك أن يُعمل فكره في مسألة قضى الأقدمون بحكم فيها ؛ تغرق الكتب أو تخرّقها أو تحرّقها (فعلها في كتب ابن رشد) ، وتستعيذ بالله وتبرأ إليه من العلوم التي لا تكون سبباً للناس إلى رحمة الله ، ووسيلة إلى غفرانه ، (راجع قصة ابن ثوابة في كتاب « أخلاق الوزيرين » لأبي حيان التوحيدي) . فإن كانت لم تقتل أو تسجن أحداً من

العلماء نتيجة لنظرية طلع بها ، فلأن العلوم لم تكن قد بلغت في العصور الوسطى مبلغاً يمكن للفقهاء الاحتجاج عنده بتناقض اكتشافاتها مع المعارف الواردة بالكتب المقدسة .

وازداد وضوح معالم هذه الطبقة من رجال الدين المسلمين حين ارتأى محمد علي في مصر ، ثم ولاة الأقطار الإسلامية الأخرى قطراً تلو قطر، الأخذ بنظامين للتعليم متباينين كل التباين : أحدهما يلتزم بالنمط الغربي ، وتوضع مناهجه على غرار المناهج في معاهد العلم الأوروبية ، ويُغفَل فيها تدريس الدين وعلومه ؛ في حين يلتزم الثاني بالمنهج الإسلامي التقليدي القديم . وكانت أولى ثمار هذه السياسة أن نشأت هوّة رهيبة بين عقلية متلقّي التعليم الديني وعقلية متلقّي التعليم المدني ، وبالتالي بين رجال الدين وسواد الناس ، وأن انصرف هؤلاء الأخيرون عن التبحر في العلوم الدينية ، ولم يروا بأساً في جهلهم المستفحل بها ، مكتفين بأدنى قدر من الإلمام بأركان الإسلام والشعائر .

لم يعد بالإمكان منذ ذلك الحين أن تتكرر قصة المرأة من العامة التي قامت في المسجد تعارض رأياً لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فيقرّ لها عمر بالصواب وعلى نفسه بالخطأ. ولا بات بالوسع أن نعثر في مجتمعنا على تاجر خزّ يشغل نفسه بالفقه كما فعل أبو حنيفة ، أو بقّال يتخصص كما تخصص أبو بكر الباقلاني في درس إعجاز القرآن . فمجال مثل هذه الدراسات قد تُرك بأسره للفقهاء : طبقة متميزة عن غيرها من الطبقات في السلوك ، وفي الخلفية الثقافية ، وفي درجة الإلمام بمظاهر حضارة العصر ، بل وحتى في الزيّ واللهجة . فإن ألحّ على رجل عادي سؤال يتعلّق بأمر من أمور دينه ، لم ينظر في كتب الأقدمين التي بات لا يطيق فهمها ويدعوها بالكتب الصفراء ، وإنما يلجأ الى رجل الدين يلتمس عنده الرأي أو الفتوى ، ويقبل هذا الرأي أو هذه الفتوى دون جدال لعجزه عن الجدال ، ثم يقبّل يده ويلتمس منه البركة كما تفعل العامة مع قساوستها في العالم المسيحي .

وقد تقبّل رجال الدين المسلمون هذا الوضع بالرضا . وإذ اضطرتهم الحكومات والظروف لأن يقبلوا أيضاً عدم التدخل في مختلف شؤون الحياة المدنية ، حاولوا الإصرار على عدم تدخل المدنيين في الشؤون الدينية . فإن أرادت الحكومة مثلاً أن تُدَرِّس لطلبة مدرسة القضاء الشرعي علوم عصرية الى جانب العلوم الدينية ، احتجوا على تدريس علم الطبيعة لأنه :

ومن يقل بالطبع أو بالعِلّة فذاك كفر عند أهل المِلّة !

وإن طلع طه حسين بكتابه « في الشعر الجاهلي » ، تقدّموا ببلاغ إلى النائب العام يطالبون « بإبادة الكتاب، وإحالة المؤلف الى النيابة ، وإلغاء وظيفته » لأنه تعرّض لقصة إبراهيم وإسماعيل في القرآن ، وللقراءات السبع ، ولنسب النبي . وإن كتب الدكتور هيكل سيرة نبوية ، أو توفيق الحكيم مسرحية عن الرسول ، هاجوا وعجبوا كيف يجرؤ رجال من غيرهم على التصدّى لمثل هذه الموضوعات التي خالوها حكراً عليهم .

فإن كانت الظروف لم تتح لهم في ذلك الوقت فرصة تحقيق مرادهم ، فقد مكّنتهم في الحقبة الأخيرة من منع عرض أفلام كفيلم « الرسالة » ، أو تمثيل مسرحيات كمسرحيتي الشرقاوي عن الحسين ، وإرهاب الحكيم إذ شرع يكتب عن مناجاته ربه ثم أحجم ، ثم إذا بهم الآن يسعون إلى تجريم طبع الكتب الدينية دون تصريح منهم ، وفرض عقوبتي الحبس والغرامة مع المصادرة في أحوال المخالفة ، تماماً كما كانت تفعل الكنيسة في أوروبا في العصور الخالية .

الخلاصة والنتيجة

خلاصة القول أن الاتجاه العلماني تبلور في الغرب كردّ فعل لتعنّت الكنيسة في رفضها أن يكون لغير رجالها شأن في بحث مسائل العقيدة ، مما اضطر المدنيين إلى التحول بطاقاتهم إلى مجالات رفضوا بدورهم أن يكون للكنيسة دخل فيها . وقد كان المفروض ألا تثور في العالم الإسلامي هذه

المشكلة لأسباب أوردناها ، أهمها أن الإسلام لا يعرف كنيسة أو رجال دين ، ويشجع الكافة على النظر في علومه والاشتغال بها . غير أن الظروف التاريخية شاءت أن تقوم طبقة منهم ، وأن يدّعي أفراد هذه الطبقة لأنفسهم حقوقاً مماثلة في أمور كثيرة لحقوق رجال الكنائس المسيحية ، وأن تنطوي تصرفاتهم على نفس التعنت وضيق الأفق والتحكم ، مما دفع بالرجل العادي في العالم المسيحي إلى تبنّي النظرة العلمانية ، وإلى تركه الدِّين بأسره لرجاله ، والانشغال عنه بالأمور الدنيوية والعلوم غير الدينية .

وقد شهد القرن العشرون في العالم الإسلامي بزوغ اتجاه محمود من جانب المثقفين من غير رجال الدين إلى النظر في علوم الإسلام ، والكتابة فيها ، وتأكيد حقّهم في الاجتهاد . وكان المفروض والمنطقي أن يحظى هذا الاتجاه بمباركة الفقهاء وترحيبهم وتشجيعهم . غير أن الذي حدث كان خلاف ذلك ، وكان على غرار موقف اليسوعيين الذين أنكروا أن تكون مسائل العقيدة من شأن الهواة غير المتخصصين ، وأصرّوا على ضرورة إذعان الرجل العادي للحقائق التي يدلى بها رجال الكنيسة . فكان أن بدأ يظهر في العالم الإسلامي نوع من الإرهاب للمثقفين والكتّاب من غير رجال الدين ، من شأن امتداد نطاقه ، وعجز المثقفين عن استئصال شأفته ، أن يؤدي إلى وأد الاتجاه الصحي الذي كان على وشك أن يفرض نفسه ، وإلى شيوع علمانية مناهضة للدين ورجاله ، وإفساح الطريق في مجال الدين للمزيد فالمزيد من التحجّر والجمود والرجعية .

٨ تأملات في حقيقة أمر السلف الصالح

في رواية « ميدان واشنجطون » لهنري چيمس ، يظل الأب يكرّر أمام ابنته سرد مناقب أمها المتوفاة التي لا تذكرها الفتاة ، ويعدّد محاسنها ، ويشيد برشاقتها وخفة روحها ، وثقافتها وعذوبة طبعها ، ويقارن بين افتقار البنت إلى الكياسة والفطنة واللباقة ، وبين تألّق الأم وذكائها وتوهّج عقلها ، حتى تفقد ابنته كل ثقة في نفسها ، وحتى تخجل من مجرد حياتها ، فلا تكاد تقدم على عمل إلا أحست أنها لا بدّ قد أخطأت ، ولا تقول قولاً إلا شعرت بعده بأنه قول سخيف أحمق .

وكثيراً ما تخطر أحداث هذه الرواية في ذهني كلما سمعت من الوعاظ في المساجد ، أو قرأت لأحد الكتاب الإسلاميين إشادةً بمناقب السلف الصالح ، تعقبها في العادة إدانة لمسلك الأجيال التالية له ، بما فيها جيلنا الأخرق التعس . وقد ظللت أمداً طويلاً أصدّق ، كما صدّقت الفتاة أباها في رواية هنري چيمس ، ما يُردَّد عليّ بكرة وعشيا من وصف للسلف الصالح ، وتعابير الإزراء بجيلي ، حتى رأيتني وكأنما أنا قزم قَدْم عند قدمي عملاق عظيم ، أو خنفساء تلهو في ظل قدّيس ورع .

ثم جاء الوقت الذي بدأ الشك فيه يخامرني بصدد صحة ما يكرره

الناس ، وشرعت أفكر في أنه ربما كان لهذا الاعتقاد لديهم جذور وأسباب تاريخية لا صلة لها بعظمة شأن السلف وتفاهة شأني ، وفي أنه ربما كان وراء الإشادة بهؤلاء ، والإزراء بمن جاء بعدهم ، بواعث غير الرغبة في تصوير القدوة الحسنة ، وحثّي على الاقتداء بها .

وجاءت قراءاتي التاريخية مؤيدة لهذا المنحى الفكري لديّ ، خاصة حين اكتشفتُ أن الكتّاب المحدثين يخفون في مؤلفاتهم حقائق عن ذلك السلف أوردتها كتب القدماء . فإذا بي ، وقد تأكّدت الفكرة عندي ، أهتف هتاف الطفل في قصة « ملابس الأمبراطور الجديدة » لهانس أندرسن ، وأعاهد نفسي على ألا أقرأ بعدها سيرة لأحد أهل السلف بقلم كاتب إسلامي معاصر .

أسباب النظرة الإسلامية الرومانسية إلى السلف

وقد كنت أشرت في الفصل بعنوان « الشرائع والذرائع » إلى أحد أسباب هذا الاتجاه إلى تصوير عهد الخلفاء الراشدين تصويراً رومانسياً ، أورده هنا بإيجاز شديد ثم أنتقل إلى ما يليه . فمعظم معالم الصورة إنما حدّدها مؤلفو العصر العباسي حين انقطعت الصلة تماماً بين فكر الفقهاء ومصنّفي الكتب في الشريعة وبين واقع حياة الرعية والحكام . ذلك أنه نجم عن إحجام الفقهاء عن تطوير الشريعة وفق ظروف العصر الذي يعيشون فيه ، وملاءمة فقههم لاحتياجاته ، وتجميدهم للأحكام مع إيصاد باب الاجتهاد ، أن ساد لدى الجميع الاعتقاد بأن أمر تطبيق الشريعة أمر نظري بحت ، يمكن التأليف والحديث فيه وليس بالوسع محاولته . وإذ كان من الصعب على رجال الدين ، ومن غير العملي ، تكفير الغالبية العظمى من أفراد الأمة ، ومن الخلفاء والسلاطين والولاة ، بسبب مسلكهم المخالف مخالفة صارخة للشرع ، خرج الفقهاء بنظرية مؤدّاها أن هذه المخالفة قدر من الله لا رادّ له ، قد تنبأ الرسول بها ، وأن المقدّر لأمة المسلمين أن يتدهور حالها ، ويسير مسلك أفرادها من سيء إلى أسوأ ، حتى يأتي المهدي المنتظر ، وتتحقّق بمجيئه أحوال مثالية

يمكن في ظلها تطبيق الشريعة تطبيقاً سليماً كاملاً .

ولكي يثبت هؤلاء نظريتهم ، ويدعموا افتراضهم ، اتجهوا إلى المبالغة في تعظيم السلف ، والمثالية في تصوير أفراده ، فكأنما هم من الملائكة أو دون الملائكة بقليل ، بحيث يتوهم القارىء أو السامع أموراً ثلاثة (كل منها مطلوب من أجل إثبات النظرية) :

الأول : أنه من قبيل الحماقة أن يطمع أحد منا في أن يكون مثل هذا السلف الصالح ؛

والثاني : أن الأجيال التالية للسلف الصالح مجبولة على النقص والفساد ، تالفٌ حالها ؛

والثالث : أن تطبيق الشريعة كان أمراً ميسوراً وقت أن كان ذلك السلف الصالح على قيد الحياة ، وهو الآن متعذر لفساد الناس بعدهم ، وسيظل متعذراً إلى ما شاء الله .

وأنتقل الآن إلى السبب الثاني :

موقف المؤرخين والفقهاء من علم التاريخ وأدب التراجم

لم يكن المؤرخون المسلمون في العصر الوسيط بالغافلين عن منهج البحث التاريخي وسبله . وقد طبّقوا بالفعل على ما تحصّل لديهم من مادة تاريخية نفس المبادىء العلمية التي ابتدعها ونمّاها علماء الحديث في دراستهم للأحاديث المنسوبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام . وما من شك في أن المؤرخين المسلمين قد حققوا إنجازات رائعة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، والتزموا بالمعايير العلمية الدقيقة التزاماً لا يزال المؤرخون الغربيون يغبطونهم عليه إلى يومنا هذا .

غير أنه بمضي السنين ، وبازدياد تحرّرهم من تأثير الفقهاء ورقابتهم ، أثاروا عداوة هؤلاء الأخيرين وريبتهم ، وهما عداوة وريبة تحوّلتا إلى حرب

مريرة على المؤرخين في عصور الانحطاط الفكري في الدولة الإسلامية . وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء ، وعن اضطرار المؤرخين الى تبني موقف من أحداث الماضي شبيه بموقف الفقهاء منها ، وأضحى الهدف من الكتابات التاريخية هو الهدف الذي حدّده الفقهاء للمؤرخين ، ألا وهو أن يكون علم التاريخ وأدب التراجم وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية ، والمبادىء الأخلاقية الرفيعة ، والمثل العليا ، لا تسجيل الحقائق بأكبر قدر مستطاع من الموضوعية بعد تمحيص ما تجمّع منها لدى المؤرخ .

ومن هنا بدأت تتكوّن نظرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم ، وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية بكثير عن هدف تعزيز الإيمان ، والوعظ ، وبيان نماذج السلوك التي ينبغي على المتقين أن يحذوا حذوها أو يتجنبوها . وكانت ثمرة ذلك أن بات المسلمون ينظرون إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز مثلاً على أنه من أعظم خلفاء الإسلام ، لمجرد ورعه وتقواه ، وموقفه العادل من العلويين وبنى هاشم ، في حين لم تجلب السياسة المالية والإدارية لهذا الخليفة غير خراب الدولة . ولا يزال المسلمون إلى يومنا هذا يمصمصون شفاههم إعجاباً بموقفه من واليه على حمص الذي كتب إليه : « إن مدينة حمص قد تهدّم حصنها ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه » ، فردّ عليه عمر بن عبد العزيز بقوله : « أما بعد ، فحصِّنها بالعدل . والسلام » . وهو ردّ ـ رغم ما فيه من بلاغة تستهوى العرب ـ يستوجب المؤاخذة البرلمانية في أي نظام حكم ديموقراطي .

كذلك فقد تكوّنت لديهم صورة ثابتة شوهاء من الصعب تغييرها عن يزيد ابن معاوية والحجاج بن يوسف الثقفي ، لمجرد أن جيش يزيد قتل الحسين بن عليّ وصحبه ، غير آخذين في الحسبان كفاءة يزيد الإدارية المتميزة ، ولا الآثار الوخيمة التي كان لا بدّ وأن تعود على الدولة الإسلامية من جرّاء ثورة الحسين ، ولمجرد قسوة الحجاج في استئصاله شأفة المارقين الخارجين على

الدولة ، وهو الذي شهد له المؤرخون الأوروبيون بأنه أحد أعظم الإداريين في تاريخ العالم .

وهم دائماً منحازون في عواطفهم إلى المأمون في حربه ضد الأمين ، بتأثير القصص التي رواها مؤرخو الدولة العباسية عن تهتك الأمين في مسلكه الشخصي ، ووقار مسلك المأمون ، دون أن يلقوا بالاً إلى حقيقة نوايا أنصار المأمون ، وهم الفرس الذين ساءهم تغليب الأمين ، الخليفة العربي القح ، للعنصر العربي عليهم ، وأمّلوا أن تكون لهم الهيمنة على مقاليد الحكم بتولية المأمون نصف الفارسي ، وهو ما حدث فعلاً .

على أي حال فإن مثل هذه النظرة الى التاريخ وشخصياته التي لا تعرف فاصلاً بين التقوى والسلوك الشخصي ، وبين اعتبارات السياسة والمصلحة العليا للدولة ومقتضيات الإدارة الحازمة الرشيدة ، لا يمكن أن تخدم الفهم السليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية ، ولا يمكن أن تتمخّض إلا عن تمجيد سطحي لهذا ، وحطٍّ من قدر ذاك ، وعن حنين إلى زمن « السلف الصالح » من الصعب تبريره أو الدفاع عنه .

ثم جاء الغزو العثماني للأقطار العربية بما صحبه من موات فكري ، فانصرفت غالبية المسلمين عن القراءة إلا في كتب الأدعية والحديث والشعر والحكايات الشعبية ، وأدارت للمؤلفات التاريخية ظهرها حتى نست ماضيها أو كادت ، وتلاشى التأثير السيء الذي كان لتلك المؤلفات فيما يتصل بالنظرة الرومانسية إلى الأحداث والشخصيات . وإذ بزغت مع القرن التاسع عشر بوادر نهضة فكرية جديدة ، كان المفروض أن يتولى حاملو شعلتها مهمة تصويب هذا الخطأ . وقد كان من السهل عليهم جميعاً ـ نظرياً على الأقل ـ أن يغرسوا بكتاباتهم في التاريخ الإسلامي نظرة جديدة إلى ذلك التاريخ وأبطاله في أذهان قرائهم التي باتت غالبيتهم جاهلة كل الجهل به وبهم ، بحيث اعتمدوا اعتماداً كلياً على المؤلفين المحدثين في تحصيل معارفهم . غير أن

هؤلاء القادة لم يفعلوا ، وتبنّوا نفس النظرة ونفس القيم والمفاهيم التي كانت للأسلاف ، وكانوا أعجز من أن يطبّقوا معايير جديدة مستنيرة في الحكم . فكان أن كُتبت الحياة من جديد لمعايير القدماء ، وهيمنت مقاييس الموتى على عقول الأحياء .

طبيعة العقلية العربية

ويكمن السبب الثالث لهذه النزعة الرومانسية في طبيعة تكوين العقلية العربية . فالمعروف عن العربي اتجاهه إلى اتخاذ مواقف عقلية متطرفة من الناس والعالم والأحداث حوله ، وإلى النظر إلى كل ما يصادفه ، وكل من يلقاه ، بمنظار لا يرى من الألوان غير الأبيض الناصع أو الأسود القاتم ، دون الفروق الدقيقة في الأفكار والألوان والظلال ، ولا يعبر عن رأيه إلا في صيغة منتهى التفضيل ، ولا يرتاح خاطره إلا إن تطرّف في أحكامه . فالشيء عنده إما ممتاز أو فظيع ، والعمل الفني إما « أكثر من رائع » أو « في منتهى السوء » ، والرجل إما ملاك كريم أو شيطان رجيم . وإذ كان مثل هذا الاتجاه العقلي لا يرضيه إلا الإعجاب الحماسي أو الإدانة الكاملة ، فإنه من النادر أن نسمع عربياً يقول في حكم له : « هو أميل إلى الجودة وإن كان يعوزه كذا » ، أو « هو إنسان لا بأس به غير أنه كذا » .

وقد يرجع البعض هذا الميل إلى طبيعة الصحراء التي تركت أثراً عميقاً في شخصية العربي . ففي الصحراء يعقب الشتاء القارس الصيف القائظ ، والليل ذا النسمة الباردة المنعشة نهار خانق . والبدوي فيها يصادف بعد السفر الطويل المضني في أرض قاحلة جرداء ، واحات وافرة الخضرة والمياه والظلال . وهو قد يلقى أثناء سيره بناقته التي تحمل كل ما ملكت يداه ، عدواً يجرّده من كل ثروته في دقائق ، فينتقل خلال هذه الدقائق من حال الى حال . ثم ها هي الوديان الصخرية التي تظل معظم الحول في جفاف الموت ، يأتي عليها موسم الأمطار فتغطيها السيول المتدفقة التي تجرف أمامها كل ما اعترض

سبيلها. فليس من المستغرب إذن أن نجد العربي في مسلكه الشخصي ينتقل من حال الهدوء والاستسلام والتوكل بغتة الى انفجار عاطفي مدمر ، ومن الكرم المشرف على السرف إلى الحرص المشين وإلى الغدر ، ومن الشجار المبالغ في عنفه إلى الصلح والعناق وتبادل القبلات . ويأتي هذا الانتقال في سرعة عجيبة مذهلة ، لا تعرف مراحل متدرجة في المشاعر أو الأفكار .

وقد أثّر هذا التكوين النفسي في أحكامه ، فكان فيها شديد الميل إلى المبالغة ، لا يحسن غير المباركة أو اللعن ، ولا تخطر بباله ضرورة التزام الدقة . فالدقة إنما هي من معالم المجتمع الصناعي ومن المقتضيات الأساسية للحياة فيه . والفرد فيه إن أغفلها دفع ثمناً باهظاً لهذا الإغفال . فعمله مرتبط بآلة لا يسمح تسييرها بإغفال الدقة . والمؤاخذة العنيفة والجزاء في انتظاره إن هو تأخر عن عمله بضع دقائق . والعلاقات في مجتمعه خالية إلى حدّ بعيد من الاعتبارات الشخصية ، وعليه إزاءها أن يكون دقيقاً فيما يقول أو يفعل . أما الفلاح أو البدوي الذي يتمتع بقدر أوفى من الاستقلال، ومن الحرية في أن يذهب ويجيء وقتما شاء ، وفي إطلاق الكلام على عواهنه ، لن يؤدي خطأ مفرد في عمله الى كارثة ، ولا بيان تعوزه الدقة إلى اضطراب في مجريات الأمور ، فهو بمأمن من الأخطار التي تنجم عن المبالغة ، ولا بأس من أن يطلق لنفسه العنان فيها . واختصاراً فإن المبالغة ظاهرةٌ حضارية ، شديدة الارتباط بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

الهرب إلى الماضي

والسبب الرابع هو شغف العربي بالأوضاع والأشكال المثالية ، حتى مع إدراكه في قرارة نفسه أنها تناقض الواقع ، وتخالف الحقيقة وطبائع الأشياء . وهو واجد في هذه الصور المثالية ما يرضي حاسته الجمالية إرضاء لا توفره فوضى الواقع الذي يعيش فيه وتعقّده . وقد نمّت من هذا الميل عنده طبيعة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتردّية حوله . فالإنسان الذي تعتمل في

نفسه مطامح وأفكار ومشاعر ورغبات من الصعب أو المستحيل عليه أن يترجمها إلى واقع بسبب الظروف التي يحيى في ظلها ، هو أميل من غيره إلى أن يلقي بنفسه في خضم عالم خرافي ، يرضيه عاطفياً ، ويسمح له بأن يعيش ولو للحظات قصار في جو من نسج مطامحه وأحلامه ، فإذا هو في فكره يراعي رغباته لا واقع الأمور ، وينظر إلى الناس والأشياء وإلى الماضي كما يحلو له أن تكون عليه ، لا كما هي عليه أو كانت عليه فعلاً .

وقد كانت تعاسة غالبية أفراد المجتمعات الإسلامية أحد الأسباب الرئيسية في اختيارهم الهرب إلى الماضي ، علّهم يجدون في « أمجاده » تعويضاً عن واقعهم البائس . فهنا حاجة ماسة الى أن يعثروا في تاريخهم على « أيام تليدة مجيدة » سبقت « التدهور » الذي يعانون منه ، وعلى شخصيات تاريخية تحيطها هالة ساطعة من البطولة والقدسية والصلاح ، سبقت الخلف الطالح الذي يعايشهم . وما دامت هناك مثل هذه الحاجة الملحة ، فلا مفر من ظهور أناس يستغلّونها ويجدّون في محاولة إشباعها .

فهناك من ناحية تلك التنظيمات الدينية المتطرفة التي يهمها أن تجتذب أنصاراً جدداً لها . وما من شيء يجذب الأنصار قدر ما يجذبهم الحديث عن روعة ماضي الأمة الإسلامية ، وعن عظمة السلف الصالح ، ثم عن فساد حال الأمة اليوم وكفر أهلها . هذا الموقف من جانب التنظيمات المتطرفة ليس في حقيقة الأمر موقف من يسعى إلى توفير الحلول لمشكلات مجتمعهم ، وإنما هو موقف من يريد تخدير أناس فشلوا في حل مشكلاتهم ، من أجل اجتذابهم بعد ذلك إلى هذه التنظيمات .

وهناك من ناحية أخرى أولئك الوعاظ والمؤرخون والكتّاب الإسلاميون الذين يستجيبون لهذه الحاجة سعياً وراء كسب الرضا والشعبية ، أو كسب المال والنفوذ . فالمؤرخ ـ كما هو معروف ـ إذ تجتمع لديه الحقائق والوقائع عن حقبة تاريخية أو عَلَم من أعلام الماضي ، يجد من المحتم عليه أن ينتقي

منها البعض الذي يراه جديراً بالتسجيل ، وأن يغفل البعض الآخر الذي يظنّه خليقاً بأن يندرج في طيّ النسيان . وهو في حرّيته هذه أشبه بالمغناطيس : يجذب إليه من الحقائق التي أوردتها المصادر والوثائق ما يناسب أغراضه أو وجهة نظره ، ويترك ما عداها . وكثيراً ما تكون هذه الأغراض هي أغراض عصره وجيله ، كما أنه كثيراً ما يتبنى المؤرخ الانتهازي وجهة النظر التي سيسرّ الجمهور أن يراه قد تبنّاها .

مثل هذا الاتجاه شائع لدى مؤرخين من كافة العصور وشتى البلدان . غير أنه لم يحدث قط أن كان في مثل قوته التي نلمسها لدى مؤرخي الإسلام في عصرنا هذا ، وهم الذين لا ينظرون إلى الوقائع والشخصيات التاريخية إلا باعتبارها مشجباً يعلقون عليه آراءهم ونظرياتهم التي سبق لهم صوغها قبل أن ينظروا في التاريخ لإثباتها . ويكفيني للتدليل على ما أذهب إليه أن أشير الى أولئك المؤرخين الماركسيين الذين طالما حدّثونا عن « اشتراكية » محمد والإسلام ، معطين لأبي ذر الغفاري وغيلان الدمشقي وأفكارهما أهمية ليس لهما أو لها أساس من الواقع قط ، وعارضين لبعض الأحداث التاريخية كثورة الزنج أو حركة القرامطة عرضاً كله التواء وسفسطة ومسخ لحقائق التاريخ .

مسلك مؤرخينا المعاصرين

هنا يضحي المؤرخ المزعوم أو كاتب السيرة ، كمن يدخل مغارة مظلمة وفي يده بطارية جيب ، يسلّطها على هذا الركن من المغارة أو ذاك ، وهذه الحيطان أو تلك ، متجاهلاً ما عداها عامداً متعمداً ، ظاناً أنه بوصفه لبنية المغارة بعد خروجه قد أسقط إلى الأبد نواحيها التي أغفلها واختار ألا يسلّط الضوء عليها . غير أن هذه النواحي ـ للأسف ـ تظل قائمة رغماً عنه، وعدم إنارتها لا يعني إزالتها ، والشقي البائس هو من صدّق وصفه ، فهو الذي سيدفع ثمن تجاهل سائر الجوانب والأنحاء .

فكتّاب السير الإسلامية ومؤرخو الإسلام في زماننا ، إذ يريدون الاستجابة لحاجة المسلمين إلى أمجاد للماضي ، وإلى بطولات وسلف صالح ، يعمدون إلى لوي الحقائق ، وتطويع الثابت ، وحذف الشهادات التاريخية والإغضاء عنها ، غير مدركين أن مسلكهم هذا من شأنه أن يجعل دراسة « التاريخ » عبثاً في عبث ، وجهداً عقيماً . بل إن كاتباً مستنيراً جريئاً كطه حسين ، نجده في كتابه « الفتنة الكبرى » لا يتردد في رفض ما شهد به كافة المؤرخين المسلمين القدماء بشأن الأسباب التي أدت إلى عزل عثمان بن عفان لسعد بن أبي وقاص عن ولاية الكوفة ، ويبني رفضه على حجة واحدة ، هي أن سعداً « هو الذي فدّاه رسول الله بأبيه وأمه يوم أُحد ، وهو ثالث ثلاثة في الإسلام ، وأول رام بسهم في سبيل الله ، قد رضي عنه رسول الله وجعله في العشرة الذين ضمن لهم الجنة . فمن أتيح له هذا الفضل كله لا يمكن أن يلتوي على بيت المال بدين قلّ أو كثر ، ولا أن يشك فيه عبد الله بن مسعود هذا الشك » !

فإن كان هذا هو موقف طه حسين ، فليس من المستغرب أن يتجاهل غيره من المحدثين بعض روايات القدماء عن سعد مثل : « عن الترمذي أن عبد الرحمن بن المسوّر قال : خرجت مع أبي وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن الأسود إلى سرع ، فأقمنا بها خمسين ليلة ، ودخل علينا رمضان ، فصام المسوّر وعبد الرحمن وأفطر سعد وأبى أن يصوم . فقلت له : يا أبا إسحاق ! أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت بدراً ، وأنت تفطر وهما صائمان ؟! فقال سعد : أنا أفقه منهما » . ومثل : « عن ابن جريج : حدثني زكريا بن عمرو أن سعد بن أبي وقاص وفد على معاوية ، فأقام عنده شهراً يقصّر الصلاة ، وجاء شهر رمضان فأفطره » . ومثل : « عن جابر بن سمرة : شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ، فقالوا إنه لا يحسن أن يصلي ، فبعث عمر رجالاً يسألون عنه بالكوفة فقيل لهم : أما إذ نشدتمونا بالله فإن سعداً لا يعدل في القضية ، ولا يقسم

بالسوية ، ولا يسير بالسّرية » . ومثل : « عن أسد بن موسى : كان لعبد الله ابن مسعود على سعد مال ، فقال له ابن مسعود : أدِّ المال ! قال : ويحك ! والله اني لأراك لاقٍ مني شرّاً . هل أنت إلا ابن مسعود عبد بني هذيل ؟ قال ابن مسعود : أجل والله ، وإنك لابن حَمنة ! فتدخّل هاشم بن عتبة وقال لهما : إنكما صاحبا رسول الله ينظر إليكما الناس ! »

مثل هذه الأمور لا تسيء إلى سعد رضي الله عنه ، وإنما هي تؤكد أنه حتى أفراد السلف الصالح كان بهم من جوانب الضعف ما بنا ، وأنهم ليسوا بالمنزهين عن الخطأ ، ولا هم بمعجزي الخلف عن الاقتداء واللحاق بهم .

الخاتمـــة

لقد أدرك أهل الغرب أنه لا بدّ في الدراسات التاريخية من قدر كبير من الموضوعية إن شاء الناس أن يفهموا أنفسهم ومجتمعهم ، وأن يدركوا أبعاد حاضرهم ، وأن هذه الموضوعية لن تتأتى إلا بالتزام صارم بالمنهج العلمي في البحث ، لا تؤثر فيه المشاعر القومية ، أو الآراء السياسية ، أو الاحتياجات النفسية .

أما نحن ، فإنما نريد أن تكون كتابة التاريخ على ضوء أهداف محددة سلفاً ، (ولو كان من محدديها موظفون بوزارة التربية والتعليم) ، وأن نفهم أنفسنا الفهم الذي نهواه ، وأن تفرض الحقيقة السيكولوجية نفسها على المؤرخ وكاتب التراجم لا الحقيقة المطلقة . وفي رأيي أن فهم الذّات والمجتمع والحاضر متعذر في مثل هذه الحالة ، بل هو متعذر ما لم يستند أيضاً إلى فهم موضوعي للحضارات الأخرى ، ولتاريخ العالم كله ، بحيث نبني ذواتنا ومجتمعنا على أساس خلفية من مجموع الإنجازات الحضارية للبشرية . غير أن عجزنا عن فهم ذاتنا يؤدي بالضرورة الى العجز عن فهم الاختلافات الحضارية بين العالم الإسلامي والمجتمعات الأخرى ، وهو أمر

يتحمل وزره مؤرخونا وكتاب السير عندنا ، كما يتحمله خطباء المساجد والوعاظ وعلماء الدين . أو كما قال أتاتورك :

« إن الأمة التي تصر على التمسك بأساطير لا أساس لها من الواقع ، من الصعب أو من المستحيل عليها أن تتقدم » .

* * *

وليس ثمة مخرج لنا من هذا التحجر الذي نعاني منه ، سوى بالكف عن الحنين إلى الماضي ، إلى ماض هو - إلى حدّ كبير - من نسج خيالنا نحن وخيال مؤرخينا ، وإلى الأيام المجيدة التي عاشها الصحابة والتابعون ، وعن التحسر على أنفسنا ، والسير هائمين وقد التوت أعناقنا من فرط تلفّتنا إلى الوراء ، بدلاً من التطلع دوماً إلى مستقبل أفضل ، بفضل المزيد فالمزيد من الجهد في الإنتاج .

عندئذ يمكننا أن نتحرر كما تحررت الفتاة في ختام رواية هنري جيمس ، وذلك حين أدركت حقيقة بسيطة للغاية : هي أنه ليس هناك ما يحتم عليها أن تكون كأمّها .

قراءة جديدة لكتاب

« الإسلام وأصول الحكم »

للشيخ علي عبد الرازق

٩

" لست عليهم بمسيطر "

« لو كان في الحق ما يصدم مشاعر الناس ، فخير للمشاعر أن تُصْدَم من أن نُخفي الحقَّ عن أعين الناس » .

ـ القديس چيروم

كتاب « الإسلام وأصول الحكم » للشيخ علي عبد الرازق (١٨٨٨ ـ ١٩٦٦) ، هو أحد الكتب النادرة التي أفلحت في أن تهزّ الحياة الفكرية في العالم الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين . صدر في إبريل سنة ١٩٢٥ ، أي قبل عام بالضبط من صدور كتاب آخر كان له نفس الدويّ والأهمية والتأثير ، وهو كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين (إبريل ١٩٢٦) . وقد كان في تتابع صدورهما دلالة على خصب الفكر المصري وحيويته في الثلث الأول من هذا القرن ، وعلى ما كان يمكن أن تكون عليه ثمار هذه النهضة وهذا الاتجاه العلمي الخالص لو كان قُدّر لهما أن يزدهرا . غير أن الرجعية وأنصار القديم اتّخذوا من هذين الكتابين الصغيرين ، أو المقالين الطويلين ، موقفاً نجح في إرهاب صاحبيهما ؛ فأحجم علي عبد الرازق عن إعادة طبع كتابه بعد محاكمة الأزهر له واتهامه بالزندقة ومنعه من التدريس ، في حين اضطر طه حسين إلى حذف فصول من الطبعات التالية

لكتاب الشعر الجاهلي ، وتغيير عنوانه ، بعد الطعن في دينه ، ومطالبة الأزهر بفصله من الجامعة ، واضطرار الحكومة إلى حسم الأمر عن طريق طلب اقتراع بالثقة فيها في البرلمان . فإن كان طه حسين قد زعم فيما بعد في مقال نشره بالفرنسية في باريس عام ١٩٤٧ تحت عنوان « الاتجاهات الدينية في الأدب المصري الحديث » ، أن كتابه وكتاب الشيخ علي عبد الرازق « قد نجحا في إرساء دعائم الفكر الحرّ في الإسلام بصورة حاسمة » ، فإن الواقع كان مخالفاً لهذا الزعم من جانبه ، إذ ترتّب على الإرهاب الذي تعرّض الرجلان له ، إرهاب غيرهما ، فلم يُقدِم أحد بعدهما على تجربة مماثلة ، ونشر بحوث تتمتّع بما تمتّع به بحثاهما من حرية . وهو ما نعتبره مسئولاً إلى حد كبير عن التحجر الفكري الذي نخبره في الثلث الأخير من قرننا هذا .

وقد وصف علي عبد الرازق كتابه الذي يقع في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير بأنه لم يتعدّ مراحل البحث الأولي ، وبأنه مجرد تمهيد لما وعدنا به من مواصلة له . غير أنه لم يواصل ، بالرغم من أنه عاش بعد ذلك أكثر من أربعين سنة جديبة صامتة . وهو أمر كفيل وحده بأن ينبّهنا إلى مدى الخسارة وقتل المواهب اللذين تحمّلهما ولا يزال يتحمّلهما الفكر الإسلامي بسبب إرهاب أناس لا ينتجون ولا يسرّهم أن ينتج الناس ؛ لا يفكرون ولا يطيقون أن يروا غيرهم يفكرون ؛ قد أراحهم قفل باب الاجتهاد من مهمة إرهاق الذهن ، فإن أرهق غيرهم ذهنه أرهقوه وكرهوه وحاربوه وأسكتوه . وأيّ وسيلة أنجح في سبيل الإسكات لدى شعب أمّي من الاتهام بالكفر والمروق من الدين ؟ وأي امرىء أسوأ حالاً من عاقل يجري عليه حكم جاهل ؟

لم يفلح إذن حرص علي عبد الرازق (كما ذكر في مقدمة كتابه) على الاكتفاء « بإشارات ربما خفيت على صنف من القارئين جهتُها ، وبتلويحات قد تفوتُهم دلالتُها ، وبكنايات توشك أن تصير عليهم ألغازاً ، وبمجاز ربما حسبوه حقيقة ، وبحقيقة ربما حسبوها مجازاً » . فهم ـ على غبائهم ـ يتمتعون بحاسّة شمّ خارقة ، وبذكاء نفّاذ يداني العبقرية في مجال واحد لا مجال غيره :

مجال التنبّه إلى كل نبوغ يمثّل إدانة دامغة لخمول ذكرهم ، ونصب الكمين لصاحب كل نشاط هو بمثابة إصبع اتّهام تشير إلى تقصيرهم . ولا يزال البعض إلى يومنا هذا يتّهمه بأنه ألّف كتابه بوحي من أسياده الأنجليز المستعمرين ، أو أن الانجليز ألّفوه ودفعوه إليه حتى ينشره باسمه !

فـؤاد والخـلافـة

وقد ذكر علي عبد الرازق في المقدمة أن توليته القضاء الشرعي عام ١٩١٥ حفزته على البحث في تاريخ القضاء بجميع أنواعه ، ثم في أركان الحكومة الإسلامية ، ثم في نظام الخلافة ، وأن اشتغاله بالبحث في هذه الموضوعات سبق إتمام الكتاب ببضع سنين . غير أن الأرجح عندنا ، إن لم يكن من المقطوع به ، أن اتجاه البعض إلى تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين بعد إلغاء تركيا لنظام الخلافة عام ١٩٢٤ ، كان الحافز الأكبر وراء إتمام البحث ونشره على النحو الذي نجده بين أيدينا ، وذلك بالرغم من توفر إشارات في الكتاب تدلّ على أن الخلافة في تركيا لم تكن بعدُ قد ألغيت وقت كتابة الفصول الأولى منه . فقد كان هدف الرجل أن يقطع على الملك فؤاد السبيل إلى تحقيق غرضه . كذلك فإنه مما لا شك فيه أن الملك كان أشدّ الناس حنقاً على هذا الكتاب ، وأول من دفع علماء الأزهر وغيرهم إلى مهاجمته وتكفير صاحبه ، وذلك بالنظر إلى أن الكتاب قد أفلح فعلاً في أن يسهم في تبديد الفكرة ، وتعطيل القصد .

فالكتاب رغم أنه يبدو في صورة البحث العلمي الخالص ، كان وراءه غرض عملي محدّد ، هو الحيلولة دون تنصيب خليفة للمسلمين . لذلك اتجهت كافة مناحي البحث وحججه إلى بيان الفكرة التالية : أن « الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون ، وأن الخلافة ليست من الخطط الدينية ، وإنما هي خطة سياسية صرفة ، وأنه قد كان من مصلحة السلاطين أن يروّجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا الدين دروعاً تحمي

عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم ، وحتى يوهموا الناس أن طاعة الأئمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله . وتلك جناية الملوك واستبدادهم بالمسلمين ؛ أضلّوهم عن الهدى ، وحجبوا عنهم مسالك النور باسم الدين ، وباسم الدين أيضاً استبدّوا بهم وأذلّوهم ، وحرموا عليهم النظر في علوم السياسة ، وباسم الدين خدعوهم وضيّقوا على عقولهم ، في حين أن وظائف الحكم ومراكز الدولة لا شأن للدين بها ، ولا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلّوا له واستكانوا إليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية ، وأمتن ما دلّت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم » .

تلك إذن هي النتيجة الأساسية التي أراد علي عبد الرازق أن يخلص إليها وأن يروّجها بين الناس . وهو هدف عملي مشروع. غير أنه ، كأي هدف عملي مقصود لذاته ، عرضة لأن يميل بالباحث العالم إلى انتقاء الحجج التي تخدم غرضه دون سواها ، وتدعم دعواه دون التي تضعف منها . وقد كان هذا هو شأن علي عبد الرازق في كتابه على روعته وقوته وأهميته في تاريخ الفكر الإسلامي . فهو في رأينا تعامى عن أمور لا نشك لحظة في أنها كانت ماثلة أمام عينيه ، بيد أنه ارتآها موهنَة لحجته فأسقطها ، ودار حولها دون أن يتعرض لها بالمناقشة .

فضل الشيخ

غير أنه من واجبي قبل أن أتعرض لبعض مظاهر هذا التعامي والإغفال وتطويع الحجج لصالحه ، أن أسجل فضل الشيخ في كشف النقاب عن عدد من الحقائق ، وفي إزالة الكثير من الأوهام الشائعة . فهو مثلاً أول من نبّهنا إلى أن من نسمّيهم بالمرتدين في مغرب حياة الرسول وخلال خلافة أبي بكر، لم يكن جميعهم في واقع الأمر مرتدين ، بل كان فيهم من بقي على إسلامه ولكنه أبى

أن ينضم إلى الوحدة السياسية للعرب ، من غير أن يرى في ذلك الرفض حرجاً عليه ولا غضاضة في دينه . ولم تكن محاربة أبي بكر لهؤلاء للدين ، وإنما هي السياسة والذود عن دولة العرب والدفاع عن مصالح قريش التي استقر عزمها على أن يكون الأئمة منها دون سائر القبائل . وقد دلّل على ذلك بقصة مالك بن نويرة الذي أعلن إلى خالد بن الوليد أنه لا يزال على الإسلام ولكنه لا يؤدّي الزكاة إلى أبي بكر . ولم يكن مالك هو وحده الذي شهد لنفسه بالإسلام . بل شهد له به عمر وأبو بكر . ومع ذلك فقد قتله خالد ، لا لنزاع في أصول إيمان أو قواعد دين ، ولكن لنزاع في ملوكية ملك .

كذلك كان عليّ عبد الرازق أول من نبّه إلى أن اتخاذ نظام الخلافة عقيدة شرعية ، والقول بأنه حكم من أحكام الدين ، ليس لهما سند واحد في كتاب الله او الحديث ، وإنما ارتكز النظام منذ زمن أبي بكر على أساس القوة والغلبة والقهر ، ورأى فيه الكثيرون بعده خير مبرر لاستبدادهم وبغيهم ، وأقوى حافز لرعيتهم على قتال الخارجين عن طاعتهم . كما أشار إلى أن هذا الاعتبار الأخير كان السبب في قلة حظ العلوم السياسية في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين ، وعزوف العلماء عن التأليف في السياسة والبحث في أصولها أو في أنظمة الحكم ، بل وعن ترجمة كتب اليونان في هذه الموضوعات ، وذلك بالنظر إلى إدراك الخلفاء لحقيقة هامة ، هي أن علم السياسة بما يكشف عنه من أنواع الحكم وخصائصه وأنظمته من أخطر العلوم على الملك .

وكان صوت الشيخ أول صوت في تاريخ الإسلام يذهب إلى أن شعائر الله تعالى ومظاهر دينه لا تتوقف على ذلك النوع من الحكومة الذي يسميه الفقهاء خلافة ، ولا على أولئك الذين يلقّبهم الناس خلفاء . كذلك فإن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من ذلك ، « فإنما كانت الخلافة ولم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين وينبوع شرّ وفساد » . كما كان أول

صوت يجهر بالقول بأن المُلك وظيفة لا صلة لها بوظيفة الرسالة ، وأن تنفيذ الدعوة الدينية خارج عن حدودها ، وأن ولاية الأنبياء ولاية روحية لا ولاية سلاطين وأمراء ، « وليس للدين صفة سياسية على الإطلاق ، ولا دخل له بالحكم الذي خلّى الله بين نظمه وبين عقولنا ، وترك الناس أحراراً في تدبير هذه النظم على ما تهديهم إليه عقولهم وعلومهم ومصالحهم » .

هل جمع النبي بين الرسالة والملك ؟

هذه مجرد أمثلة قليلة لأفضال صاحب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » . غير أن المؤلف من أجل إثبات براءة الإسلام من نظام الخلافة ظن أن أهم سبيل إلى تحقيق غرضه التدليل على أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يجمع بين الرسالة والملك ، ولم يؤسس بالإسلام دولة سياسية مدنية كان هو ملكها وسيدها . « فإن كان في الحكومة النبوية بعض ما يشبه أن يكون من مظاهر الحكومة السياسية وآثار السلطنة ، فهو شيء خارج عن حدود رسالته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن جزءاً مما بعثه الله له وأوحى به إليه » .

وأقوى ما استند إليه علي عبد الرازق لإثبات رأيه هذا ، آيات من القرآن المجيد تنكر أن يكون للنبي شأن في الملك السياسي ، وتتضافر على بيان أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان . هذه الآيات هي :

﴿ لا إكراه في الدين ﴾ البقرة ، ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ النحل ، ﴿ فذكّر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ﴾ الغاشية ، ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ آل عمران ، ﴿ أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ﴾ يونس ، ﴿ وكذّب به قومك وهو الحق ، قل لستُ عليكم بوكيل ﴾ الأنعام ، ﴿ وأعرِض عن المشركين ، ولو شاء الله ما

أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ الأنعام ، ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلاً ﴾ الإسراء ، ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليهم وكيلا ؟ ﴾ الفرقان ، ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ ﴾ الشورى .

هذه الآيات وغيرها أتخذها علي عبد الرازق دليلاً على أن القرآن صريح في أن محمداً لم يكن له من الحق على أمته غير حق الرسالة ، ولا من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله إلى الناس ، وأنه لم يكلف شيئاً غير ذلك البلاغ ، وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاء به ، ولا أن يحملهم عليه . فكتاب الله يمنع أن يكون النبي حفيظاً على الناس أو وكيلاً أو مسيطراً ، ومن لم يكن حفيظاً ولا مسيطراً فليس بملك ، لأن من لوازم الملك السيطرة ، ومن لم يكن وكيلاً على الأمة فليس بملك أيضاً . ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ النحل .

اختلاف الوضع بعد الهجرة

غير أن الذي نلاحظه أن معظم هذه الآيات التي استشهد بها علي عبد الرازق آيات مكية ، نزلت قبل أن يهاجر النبي إلى المدينة ، وقبل أن يؤسس فيها حكومة ذات الطابعين الديني والسياسي معاً ، وقبل أن توحى إليه آيات مثل :

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الأحزاب ، ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ الأحزاب ، ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ النساء ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ النساء ، ﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول ﴾ الأنفال ، ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى . . . . ﴾ الأنفال ، ﴿ لقد

رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ الفتح ، ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ الأنفال ، ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض ﴾ المائدة ، ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ التوبة ، ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ الأنفال .

وينتظر القارىء أن يتصدّى علي عبد الرازق في تفنيده لمزاعم القائلين بأنه قد كان للنبي زعامة الملك في المدينة إلى جانب زعامة الرسالة ، بالحديث والتفسير لآيات مثل : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ النور ، ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ﴾ المائدة ، ﴿ لئن لم ينتهِ المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنُغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً . ملعونين أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً ﴾ الأحزاب ، ﴿ فإن لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ محمد . ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ﴾ التحريم ، ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ البقرة ، ﴿ يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال ﴾ الأنفال .

غير أن الكاتب ، للغرابة الشديدة ، يغفل ذكر هذه الآيات إغفالاً تاماً ، وهي التي نراها حجة قوية في جانب القائلين بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان مؤسس حكومة ، وأن ولايته على قومه لم تكن - كما زعم علي عبد الرازق - ولاية روحية بحتة كتلك التي كانت لإخوانه من الرسل الذين لم يخطر ببالهم قط تأسيس دولة أو تنظيم حكومة . وفي زعمي أن السبب في إغفال علي عبد الرازق لذكر هذه الآيات وغيرها هو أنها تنتقص من قيمة الرأي الذي

يذهب إليه . فلو أن النبي كان مبشراً ونذيراً لقومه فحسب ، وليس عليهم بوكيل ، وليس عليهم بمسيطر ، وليس عليه إلا البلاغ ، وليس له أن يُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، لما أشرف بنفسه على تطبيق حكمي قطع يد السارق وجلد الزاني وعلى جمع الزكاة وقسمة الغنائم وتعبئة الجيوش ومصادرة أملاك بني قريظة وقتل أسراهم .

يقول الواقدي في كتاب « المغازي » :

« كان كعب بن الأشرف شاعراً ، وكان يهجو النبي وأصحابه ويحرّض عليهم كفار قريش في شعره . فقال رسول الله : من لي بابن الأشرف فقد آذاني ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا أقتله . قال : فافعل : فمكث ابن مسلمة أياماً لا يأكل ، فدعاه رسول الله فقال : تركتَ الطعام والشراب ؟ قال : يا رسول الله ، قلت لك قولاً فلا أدري أَفِي لك به أم لا . قال رسول الله : عليك الجهد ؛ شاور سعد بن معاذ في أمره . فاجتمع ابن مسلمة ونفر من الأوس فقالوا : يا رسول الله ، نحن نقتله . فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف فضربوه بأسيافهم . واحتملوه حتى أتوا النبي فوجدوه واقفاً على باب المسجد ، فقال : أفلحت الوجوه ! قالوا : ووجهك يا رسول الله ! ورموا برأسه بين يديه ، فحمد الله على قتله . فلما أصبح رسول الله قال : من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه . فخافت اليهود فلم يطلع عظيم من عظمائهم ولم ينطقوا ، وخافوا أن يُبَيَّتُوا كما بُيِّتَ ابن الأشرف » .

هل ثمة تناقض ؟

المشكلة إذن هي مشكلة التوفيق بين مجموعة الآيات المكية التي استند إليها علي عبد الرازق لإثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجمع بين الرسالة والملك ، وأن الله لم يكلفه بغير البلاغ ، ولم يكن له أن يحمل الناس على ما جاء به ، وبين مجموعة الآيات المدنية التي استندنا نحن إليها في تدليلنا على أنه كان ثمة حكومة ونظام ملك .

لا أقول إن روح الآيات الأولى مناقضة لفحوى الآيات الأخيرة . فليس ثمة تناقض في الذكر الحكيم ، وإن بدا للبعض ذلك . كل ما هنالك ،(وهو ما يغفله البعض فيتوهّم تناقضاً) ، هو حدوث تطور في الظروف والملابسات التي نزلت في خلالها الآيات ، وفي طبيعة الدعوة والرسالة ، وفي وضع النبي عليه السلام بعد الهجرة إلى المدينة .

لقد كان النبي في مكة في قلة قليلة من المؤمنين (بلغ عدد المهاجرين إلى المدينة نحو سبعين) . فلم يكن يُعقل أن تنزل آنذاك آيات تدعو إلى حرب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وإلى قتلهم وصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو نفيهم من الأرض ، ولا كان للنبي وقتها سلطة جلد زان أو قطع يد سارق ، وما كان بوسعه غير أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وغير أن يُعرض عمّن اتخذ إلهه هواه وأشرك بالله . والمؤكد أن الرسول لم يكن يهدف من وراء تبليغه رسالة ربه إلى السيطرة على قريش ، ﴿فذكّر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر﴾ . غير أن قريشاً أدركت في وقت مبكر ما أدركته ثقيف في وقت لاحق ، وهو أن من شأن اعترافها بمحمد رسولاً لله أن يمكّنه من فرض سيطرته السياسية عليها ، ما دام هذا الاعتراف يتضمن الإقرار بأن ما يبلّغهم إيّاه من أحكام وأوامر هي من عند الله ولا سبيل إلى مخالفتها . وهو أمر كان سيسفر لا محالة عن تغيّر جذري في أوضاع مكة السياسية ، وفي موازين القوى داخل عشائر قريش .

وقد أدرك علي عبد الرازق نفسه هذه الحقيقة ، فنراه يقول :

« إن الرسالة لذاتها تستلزم للرسول نوعاً من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم . فمقام الرسالة يقتضي لصاحبه سلطاناً أوسع مما يكون بين الحاكم والمحكومين ، بل وأوسع مما يكون بين الأب وأبنائه . قد يتناول الرسول من سياسة الأمة مثل ما يتناوله الملوك . بيد أن وظيفته أيضاً أن يتصل بالأرواح التي في الأجساد ، وينزع الحجب ليطلع على القلوب التي في

الصدور . وله ، بل عليه ، أن يشقّ عن قلوب أتباعه ليصل إلى مجاري الخواطر ومنابع النيات . وله رعاية الظاهر والباطن . ومن أجل ذلك كان سلطان النبي بمقتضى رسالته سلطاناً عاماً ، وأمره في المسلمين مطاعاً ، وحكمه شاملاً . فلا شيء مما تمتدّ إليه يد الحكم إلا وقد شمله سلطان النبي ، ولا نوعٌ مما يُتَصَوَّر من الرياسة والسلطان إلا وهو داخل تحت ولاية النبي على المؤمنين » .

غير أنه بعد هذا مباشرة يتراجع فيقول : « تلك قوة قدسية يُختص بها المرسلون ، وليست في شيء من معنى الملوكية . إنها رسالة ودين ، وحكم النبوة لا حكم السلاطين . ونعود فنحذّرك من أن تخلط بين الحكمين . فولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، وولاية الحاكم ولاية مادية . تلك للدين ، وهذه للدنيا ، تلك لله ، وهذه للناس . تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية . ويا بعد ما بين السياسة والدين » .

على أي حال فقد حدث في أواخر الفترة المكية أن لقيت مفاوضات النبي مع ممثلي أهل يثرب النجاح ، وهم الذين كانوا في حاجة ماسة إلى زعيم سياسي قوي يضع حداً للفوضى وللصراع الدموي المتواصل بين الأوس والخزرج اللذين جعلا من الحياة في مدينتهم جحيماً لا يطاق ، ويعيد تنظيم علاقات اجتماعية خرّبتها النزاعات القبلية التي بلغت ذروتها في يوم بُعاث . والغالب ان يكون أهل المدينة قد أدركوا ما لم يدركه علي عبد الرازق ، (أو أدركه ولم يبح به) ، من أن الأنصياع للرسالة الدينية من شأنه أن يسفر عن قيام حكومة وزعامة سياسية .

حكومة المدينة

بدأ الأمر في بيعة العقبة بأن أخذ الأنصار أنفسهم بحمايته وحماية من معه من المهاجرين . والراجح عندي أنه لم يكن ثمة التزام غير هذا الالتزام . غير أنه ما أن هاجر النبي إلى المدينة ، حتى تتابعت التطورات في مكانته

الشخصية نتيجة لتغير الظروف . وكان أول هذه التطورات ذلك الكتاب الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار ، والذي وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وهو المعروف بدستور المدينة . وقد وضع هذا الدستور الاعتبارات العملية وواقع الأحوال في المقام الأول دون المثل الدينية التي كان النبي يريدها للأمة . فإن كان قد ورد به « أنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم » ، فالواضح أن الهدف الأول له كان خلق جماعة متآزرة متآلفة من العناصر الكثيرة المتباينة في مجتمع المدينة ، وهو ما استدعى الاحتفاظ بقدر كبير من أحكام العرف السائد بين قبائل العرب الجاهليين .

غير أنه ما انتصر المسلمون في بدر حتى تغيرت الظروف تغيراً أصبح هذا الدستور معه غيرذي موضوع. لقد أصبح الآن لزاماً على المؤمنين أن يطيعوا الرسول : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ (آل عمران) ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسولهِ ويتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ (النساء). ونزلت الآيات توضح أن الإيمان بالرسول لازم لزوم الإيمان بالله : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأْذن لمن شئت منهم ﴾ (النور)؛ ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزّروه وتوقّروه وتسبّحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ﴾ (الفتح)؛ ﴿ ألم يعلموا أن من يُحادِد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ﴾ (التوبه). وللنبي امتيازات هي وإن كانت متواضعة فقد خصّه الله بها وحده : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعضٍ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ،

لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ﴾ (الحجرات)؛ ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ (النور)؛ ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يديْ نجواكم صدقة ﴾ (المجادلة)؛ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ؛ ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ (الأحزاب) .

وقد أدّى فرض الحج إلى بيت الله الحرام بمكة على المسلمين ، واعتباره ركنا من أركان الدين ، إلى نتائج غير متوقعة . فما دام أهل مكة يأبون الإذن للمؤمنين بدخولها للحج ، فلا بدّ من إجبار قريش على إدخالهم ﴿ إن الذين كفروا ويصدّون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يُردْ فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ (الحج). أضف إلى ذلك أنه قد كان للنبي والمهاجرين حساب يريدون أن يسوّوه مع قريش التي طردتهم من ديارهم . فكان لا بدّ إذن من فريضة جديدة ، هي الجهاد ، أي الحرب في سبيل الله . غير أن الأنصار لم يكونوا قد وعدوه بغير الدفاع عنه وأصحابه متى وقع هجوم عليهم ، وكان الكثيرون من المهاجرين كارهين لفكرة البدء بقتال أقربائهم وعشائرهم، فنزلت الآيات: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كُره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ (البقرة)؛ ﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . ولينصرنّ الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ﴾ (الحج).

مفهــوم التطــور

ثمة إذن نقلة ضخمة بين مفهوم آيات مثل : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ و ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ و ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ و ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ و ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ ، ومفهوم آيات مثل : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ﴾ و ﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ﴾ و ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ و ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ و ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ . فهنا إذن حكومة ودولة ، حتى مع نفي الشيخ علي عبد الرازق أن يكون الملك وظيفة ذات صلة بالرسالة وقوله إن تنفيذ الدعوة الدينية خارج عن حدودها ولم يكن جزءاً مما بعث الله له نبيه . لقد بتنا في المدينة إزاء مجتمع قد تبلورت معالمه وأضحى في حاجة إلى أحكام تنظمه ، وأمة متجانسة ذات أغراض دنيوية لا بدّ لقائدها أن يسعى من أجل تحقيقها . فإن كانت الأحكام التنظيمية التي أوردها القرآن قليلة ، « فلأنها النظام الذي تقضي به البساطة الفطرية » التي كان عليها المجتمع في ذلك الحين ، لا لأن الله لم يشأ أن تقوم « مملكة نبوية » .

وأكرر هنا قولي إنه ليس ثمة تناقض في الآيات أو تعارض ، وإنما هي نقلة وتطور وتغير في الأوضاع . والغريب أن الأكثرية من المسلمين رغم أخذها بمفهوم التطور بصدد بعض الآيات والأحكام ، (كتحريم الخمر الذي جاء تدريجاً لا بصورة مباغتة) ، ؛ تأبى قبول هذا المفهوم في الحالات الأخرى ، وتأبى تفسير الأحكام القرآنية على ضوء تطور أحداث السيرة النبوية ، وهو ما يدفع البعض إلى أن يتوهم وجود التناقض . فهو إن وجد آيات تثني على اليهود ، وأخرى تلعنهم ، ولم يقرأ هذه وتلك وفي ذهنه قصة محاولة النبي في أول عهده بالمدينة إقناع اليهود بنبوته ، ثم غضبه عليهم بعد ذلك إذ أصرّوا على تكذيبه ، خال تعارضا في القرآن ولم يعلم « أن الله لم ينزل شيئاً إلا وقد

أصاب الذي أراد » (السيوطي) . وقد ذكر السيوطي أن « من أقسام النسخ في القرآن ما أمر به لسبب ثم يزول السبب ، كالأمر حين الضعف والقلّة بالصبر والصفح ثم نُسخ بإيجاب القتال . بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلّة تقتضي ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر » (الإتقان في علوم القرآن) . وقال أبو إسحاق الإسفراييني إنه « إذا تعارضت الآيات نظرنا في التاريخ ، فنترك المتقدم بالمتأخر ، ويكون ذلك نسخاً وإن لم يُعلم » . وقال ابن العربي إن كل ما في القرآن من التولّي والإعراض والكف عن الكفار منسوخ بآية السيف ، قد نسخ فيه الحكم مع بقاء الآيات .

* * *

خلاصة القول أن الشيخ علي عبد الرازق عجز ، أو هو تغافل ، عن أخذ مفهوم تطور الدعوة النبوية في الحسبان . فإن كان عجزا فهو عجز تشاركه فيه الأكثرية من أفراد أمة المسلمين ، إما لطبع توارثوه يحول دون تقبلهم لفكرة التطور ، (وقد سبق لنا الحديث في هذا الموضوع في مقالنا « الدعوة إلى تطبيق الشريعة ») ، أو لخشية من أن يؤدي القول بتطور الدعوة إلى إنكار المصدر الإلهي للقرآن ، (وهي خشية لا أعرف ما هو أدعى منها للسخرية) ، أو لسبب لا ذنب لهم فيه ، وهو عدم ترتيب السور والآيات في المصاحف بين أيدينا وفق تاريخ النزول ، فإذا السورة المدنية تعقبها مكية تعقبها مدنية ، وإذا السورة الواحدة تتضمن من الآيات ما هو مدني وما هو مكي ، وإذا المنسوخ وقد تلا الناسخ ، والدعوة إلى الصفح عن المشركين وقد أعقبت الدعوة إلى قتلهم . وهو أمر قد ساهم مساهمة خطيرة في حجب مفهوم تطور الدعوة النبوية عن المسلمين .

غير أن هذا موضوع آخر ، قد نعرض له في كتاب آخر .

لَيْتَ الكلابَ لنا كانت مجاورةً
وليتنا لا نرى ممّن نرى أحدا

الإمام الشافعي

١٠ دفاع عن الكلاب في الاسلام

هذا المقال مهدى إلى ابنتي : أزعجها ـ وهي شديدة الحب لكلبها ـ أن تسمع « مدرّسة » الدين في مدرستها تذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بقتل الكلاب كافة ، وأنه قال إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة ، وجاءت تسألني عما إذا كان ما ذكرته « المدرّسة » صحيحاً . قلت :

عرف العرب في الجاهلية الكلب وأحبّوه ، وحرصوا على اقتنائه لنفعه ووفائه ، وأسموه صديق الإنسان . قال الجاحظ :

« لو اعترضتَ جميعَ أهل البدو ، في جميع الآفاق من الأرض ، أن تُصيبَ أهلَ خيمة واحدة ليس عندهم كلب واحد فما فوق الواحد ، لَمَا وجدتَه . كذلك كانوا في الجاهلية ، وعلى ذلك هم في الإسلام » .

وقد ذكروا الكلب في العديد من أمثالهم ، فقالوا : « آلف من كلب » ، و « أشكر من كلب » . وما كان الزرّاع بأقل تعلقاً من البدو به . ومما يعكس هذا الكلف وقوة العلاقة به أنه كان الحيوان المستألف الوحيد الذي أسماه

الجاهليون بأسماء لا صلة لها بمظهره وصفاته مثل : سعد ومسعود وأنيس ومرجان وسَمْحة . ومن كلابهم من نال شهرة تاريخية مثل « براقش » ، ومن عتاقها وكرامها وأحرارها من حفظوا لأعراقها أنساباً قائمة ، مثل كلب جذعان ، وهو : السُّهْلَب بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفَّر بن مُحارِش !

كذُلك كثرت تسميتهم لأبنائهم بكلب وكليب ، كأنهم قصدوا بذلك التفاؤ ل بمكالبة العدوّ وقهره ، أو تأوّلهم فيه الحراسة واليقظة وبُعد الصوت والوفاء وغير ذلك من صفات الكلب الحميدة التي ما كانوا غافلين عنها . فإن كان بعض قبائلهم ـ كبني أسد ـ قد عرف أكل لحمها (خاصة لحم الجِراء الذي استمرأوه ووصفوه بأنه لذيذ كلحم الحمام) فإن ذلك لم يكن ، على الأرجح ، إلا في زمن المجاعات . وإن كانوا قد استخدموا كلمة « كلب » في السباب والإهانة ، فكذا هي الحال في معظم الأمم واللغات منذ القدم وإلى يومنا هذا ، لسبب لا هو بالمعروف ولا بالذي نجد مبرراً له .

ومن الأسباب التي دفعت العرب في القرى والمدن إلى اقتناء الكلاب والإبقاء على الكلاب الشريدة في الطرقات ، أنها كانت تأكل من القمامة المطروحة خارج الدور ، فتساعد أهل القرية أو المدينة على التخلص منها . وقد ظل هذا هو الحال في معظم المدن الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل العشرين . وقد ذكر أحد زائري استنبول من الفرنسيين في منتصف القرن الماضي ، وهو الكاتب إكْسافييه مارمييه ، أن الكلاب الضالة في تلك المدينة شر لا بدّ منه ، إذ كان يمكن أن تتسبَّب القمامة لو لم تأكل الكلاب جانباً عظيماً منها ، في انتشار الأوبئة . وقد شابه حال القاهرة والإسكندرية في ذلك القرن حال استنبول . غير أن محمداً عليا والي مصر رأى الوباء الناجم عن الكلاب الشريرة أخطر شأنا من ذلك الناجم عن القمامة ، فجمع عدداً غفيراً من تلك الكلاب ملأ به سفينة كبيرة ثم أغرقها في البحر .

لهذا السبب الذي ذكرناه لتوّنا احتمل أهل يثرب كثرة الكلاب الضالة في مدينتهم ، وهو ما أسفر أحياناً عن انتشار مرض الكَلَب[1] بين أهلها انتشاراً خطيراً ، مما حدا بالنبي عليه السلام إلى أن يأمر بقتل جميع الكلاب فيها . ذكر صحيح مسلم « أمر رسول الله بقتل الكلاب ، ثم عاد فرخّص في كلب الصيد وكلب الغنم » . وفي حديث آخر عن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر قال : « أمرنا رسول الله بقتل الكلاب ثم نهانا عن قتلها » . وقيل إنه استثنى من القتل كلب الصيد وكلب الدار وكلب الدَّرب وكلب الغنم وكلب الزرع . والواضح من هذا أن أمر القتل كان مبنياً على علّة وظروف خاصة بذلك الوقت وتلك المدينة ، وأن النبي عاد فاستثنى من الأمر تلك الكلاب التي لا دخل لها في انتشار الوباء ، والتي يحتاج الإنسان إليها في رعاية مصالحه . وقد تكرر صدور الأمر بقتل الكلاب في عهدي أبي بكر وعثمان ، ولنفس العلة . قيل : « ما خطب عثمان خطبة إلا أمر بقتل الكلاب وذبح الحمام » .

غير أن الثابت أن تهاون المسلمين في التخلص من الكلاب الشريدة في مدن الدولة الإسلامية ـ ربما بسبب مساهمتها في تطهيرها من القمامة ـ قد تسبّب في ظهور وباء الكلَب مرة بعد أخرى واستفحال أمره . وفي اعتقادي أن بعض الفقهاء والعلماء ، وقد ضاق ذرعاً بهذه الظاهرة الخطيرة المتكررة ، ارتأى أنه لا سبيل إلى استئصال شأفة هذا الوباء ومصدره إلا بنسبة أحاديث وضعها إلى النبي عليه السلام ، تبغّض الكلاب إلى المسلمين ، وتدفعهم إلى

---

(١) الكَلَب ، بفتح اللام ، هو الدّاء . والمصاب به كَلِب ، بكسر اللام ، أو كَليب . وكانت العرب تعتقد أن الكلْب المسعور قد سيطرت الجن عليه ، وتعالج الكليب بما تراه كفيلاً بطرد الجن ، كسقيه دم ملك (وهو أنجع دواء له في زعمهم) . وقد حدث وقت انتشار الداء في البصرة عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ م ، أن أمر واليها زيادُ بن أبيه بكتابة دواء الكلْب في صحيفة تعلّق على باب المسجد الأعظم ليعرفه جميع الناس .

احتقارها وتجنّب اقتنائها ، وتيسّر عليهم قتلها والقضاء عليها . فكان أن نسب هؤلاء إلى الكلب النجاسة ، وهو ما لم ينسبه القرآن إليه ، وما يخالف مفهوم حديث ابن عمر الـذي أورده البخاري في صحيحه : « كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله وتبول ، فلم يكونوا يرشّون شيئاً من ذلك » (يعني الماء لتطهير المكان) . وذكر هؤلاء الفقهاء أن كل ما يلمسه الكلب يضحى نجساً ، وأن المكان الذي يرقد فيه ينبغي تطهيره بالماء ، وحكموا بأن دنوّ الكلب من أحد المصلين يبطل صلاته ، ونسبوا إلى النبي من الأحاديث ما يقول : « من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو كلب ماشية نقص من أجره كل يوم قيراط » ، (وفي رواية أخرى : « قيراطان ») . وفي سُنَن ابن ماجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب أو صورة » ، وفسّر المفسرون ذلك على أن الملائكة تكره الرائحة الخبيثة ، واخترعوا قصة تذكر أن جِروا تسلّل فاختبأ تحت فراش النبي دون أن يشعر به ، فامتنع جبريل عن دخول دار النبي حتى تنبّه إلى وجود الكلب فأخرجه . ثم استطردوا فنسبوا إلى النبي قوله إن الكلاب من الجن ، أو أن الحيّات والكلاب كانت أُمّتين فمُسِخَتا ! .

وقد رسخت هذه الأحاديث الموضوعة وغيرها في نفوس العامة من المسلمين ، حتى صار الكلب حيواناً يتجنبه أتقياؤهم ويتّقيه المصلون . فإن كان الباعث الأصلي على اختلاق هذه الأحاديث حميداً ، فالثابت لدينا أنه لا أساس لها . وقد روى مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : بينما امرأة تمشي بفلاة من الأرض اشتد عليها العطش، فنزلت بئراً فشربت ، ثم صعدت فوجدت كلباً يأكل الثرى من العطش ، فقالت : لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذي بلغ بي . فنزلت البئر فملأت خُفّها وأمسكته بِفِيها ، ثم صعدت فسقته . فشكر الله لها ذلك وغفر لها . . قالوا : يا رسول الله ، أَوَلنا في البهائم أجر ؟ قال : نعم ؛ في كل كبد رطبة أجر » .

ثم ها هو الإمام مالك يعتقد طهارة الكلب ، والزهري وداود والحسن

البصري وعروة بن الزبير يرونه طاهراً « ولكن يُغسل الإناءُ من ولوغه » ، ورجال الشريعة يجيزون اقتناءه وشراءه وبيعه والإيصاء به ويقضون على من قتل كلباً أن يدفع ديته لصاحبه . والماوردي والنووي ومسلم يذهبون إلى عدم جواز قتل ما لا ضرر فيه من الكلاب ، والكافة متفقون على جواز اتخاذه للزراعة والماشية والصيد . هذا فضلاً عن أن بعض المفسرين يقول في قوله تعالى ﴿والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ﴾ إن المحروم هو الكلب ، وإن إطعامه واجب على المسلم .

قال الجاحظ :

« لقد أمر عمر بقتل الدِّيَكة ، ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ، ورويتم في قتل الحمام مثل روايتكم في قتل الكلاب ، ولم أركم رويتم أن الحمام مِسْخ ولا أن بعضه من الجن . ولعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور . وقد علمتم أن ولاة المدينة ربما هجموا على صاحب الحمام إذا خِيف قِبَلَهُ القمار . فما بالكم لم تُخَرِّجوا للكلاب من التأويل والعذر مثلَ الذي خَرَّجتم للحمام والدِّيَكة ؟! » .

الكلب عند الجاحظ والدَّميري

وقد كان للجاحظ فضل عظيم في الانتصار للكلب وبيان محاسنه وخلاله ، ولم يقتصر ـ كما اقتصر الشعراء والكتاب قبله وبعده ـ على الدفاع عن الكلاب السَّلوقية[1] والكلاب العتاق . وقد أورد في الفصول التي عقدها للكلب في كتابه « الحيوان » جُلّ ما جمعه الإغريق عنه من المعارف العلمية ، والكثير مما قاله العرب فيه من شعر ونثر . ثم سعى (كما سعى محمد بن موسى الدَّميري المصري من بعده في كتابه « حياة الحيوان الكبرى ») إلى

---

(١) السَّلُوقي : نسبة إلى سَلوق ، وهي مدينة باليمن .

بيان وجوب رعاية حق الكلاب وتعداد أفضالها والحميد من خصالها ، وتدوين الملاحظات الثاقبة على سلوكها .

فعند الجاحظ والدميري :

أن إلـف الكلب فوق إلف الإنسان الألوف . وهو حيوان كثير الوفاء ، قليل السآمة ، صبور على الجفوة ، حمول للجراحات الشداد . ومن طبعه أنه يحرس صاحبه ويحمي حرمه شاهداً وغائباً ، ذاكرا وغافلاً ، نائماً ويقظاناً . وهو أيقظ الحيوان عيناً في وقت حاجته إلى النوم ، وإنما غالب نومه نهاراً عند الاستغناء عن الحراسة . وهو في نومه أسمع من فَرَس، وإذا نام كسر أجفان عينيه ولا يطبقها وذلك لخفّة نومه . ومِن أَنَفَة الكلب أنه لا يرضى بالنوم والربوض على عفر التراب متى رأى البساط ، ولا يرضى بالبساط إذا هو وجد الوسادة . فمن نُبله في نفسه أنه يتخير دائماً أنبل موضع في المجلس .

وهو يقبل التأديب والتلقين والتعليم ، حتى لو وضعتَ على رأسه مسرجة وطرحت له طعاماً لم يلتفت إليه ما دام على تلك الحالة ، فإذا أخذت المسرجة عن رأسه وثـب إلى الطعام . ومن عجيب طباعه أنه يُكرم الجلّة من الناس وأهل الوجاهة ولا ينبح أحدا منهم ، وربما حاد عن طريقه ، وينبح الدنس الثياب من الناس والضعيف الحال. ومن طباعه البصبصة والترضّي والتودد والتآلف بحيث إذا دُعي بعد الضرب والطرد رجع ، وإذا لاعبه صاحبه عضّه العض الذي لا يؤلم ، وأضراسه لو أنشبها في الحجر لنشبت .

وفي الكلب من اقتفاء الأثر وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات . والسلوقي منها يعرف الميت من الناس من المتماوت ، حتى إن الروم لا تدفن ميتاً حتى تعرضه على الكلاب لتتيقن من موته . وقد يخرج الصياد المجرب بالكلب ووجه الأرض مغطى بالثلج ، فلا يعلم الصياد مع ذهنه وعقله موضع الصيد ، بينما يذهب الكلب يميناً وشمالاً ولا يزال يتشمم حتى يعرف مواضع الصيد بأنفاس أبدانها .

ويدافع الجاحظ عن الكلب إذ يتهمه البعض بأنه من لؤمه وغدره أن اللص إذا أراد سرقة دار أطعم الكلب الذي يحرسها قبل ذلك مراراً ، ودنا منه ومسح ظهره حتى يُثبت صورته ، وحتى إذا أتاه بعد ذلك ليلا أسلم إليه الكلب الدار بما فيها . فيقول الجاحظ متهكماً :

« إنك حين تكلِّف الكلب ـ مع ما قد عجّل إليه اللص من اللُّطَف والإحسان ـ أن يحترس من خديعة المحسن إليه مخافة أن يكون يريد بإكرامه سوءاً ، لَحَسُن الرأي فيه . ولو كان للكلب آلة يعرف بها عواقب الأمور ، وكان يوازن بين عواجلها وأواجلها ، ويعرف مصادرها ومواردها ، ويختار أنقص الشَّرَّين وأتمَّ الخَيْرين ،ويتثبَّت في الأمور ويخاف العيب، ويعرف الحجّة من الشُّبْهَة ، والثقة من الرِّيبة ، ويتثبّت في العلة ، ويخاف زَيْغَ الهوى وسَرَف الطبيعة ، لكان من كبار المكلَّفين ، ومن رؤوس الممتَحَنين !! » .

ويروي الجاحظ قصتين تذكراننا ببعض تجارب بافلوف :

فهو يذكر في الأولى أن صديقاً له حبس كلبه في حجرة وأغلق دونه الباب . وفي الوقت الذي اعتاد طباخه فيه أن يرجع من السوق ومعه اللحم الذي يطعم الكلب منه ، قام صديق الجاحظ بتجربة هي أنه أَحَدَّ سكيناً بسكين ، فإذا الكلب ينبح ويروم فتح الباب ، لتوهّمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة[1] ، وأنه يشحذ السكين ليقطع اللحم !

وفي القصة الثانية أن غلمانه وغيرهم من أهل الدرب الذي يسكنه الوزير ابن الزيات ذكروا له أن كلباً كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب على فرس . إلا أنه كان إذا رأى الوزير داخلاً إلى باب الدرب أو خارجاً منه ، لم ينبح البتّة ، لا عليه ولا على فرسه ، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق ، ولكنه يدخل الدهليز سريعاً . فلما سأل الجاحظ عن سر ذلك ، قيل له إن الوزير كان إذا أقبل ، صاح خادمه بالكلب وهدّده بالضرب بحركة من

---

(١) الوظيفة : ما يُرتَّب من طعام أو رزق في اليوم أو الشهر أو السنة .

يده ، فيدخل الكلب الدهليز ، وأن هذا لم يحدث إلا ثلاث مرات ، أصبح الكلب بعدها إذا رأى الوزير دخل الدهليز من تلقاء نفسه ، حتى إذا ما توارى الوزير عن الأعين خرج الكلب ووثب على عراقيب دواب الناس الآخرين !

خليل الإنسان

وفي كتب التراث العربي قصص عديدة عن وفاء الكلب وذكائه :

فالإمام أبو الفرج بن الجوزي يروي أن رجلًا خرج في بعض أسفاره فمرّ على قُبَّة فخمة مبنية أحسن بناء . فسأل رجلاً مُسِنًّا عن سبب بنائها ، فأخبره أن ملكاً كان بتلك الأرض كان له كلب لا يفارقه في سفر ولا حضر ، ولا نوم ولا يقظة ، وكانت له جارية خرساء مقعدة . فخرج ذات يوم إلى بعض متنزهاته ، وأمر بربط الكلب لئلا يذهب معه ، وأمر طباخه أن يصنع له طعاماً من اللبن كان يهواه . وصنع الطباخ الطعام ، وجاء به فوضعه عند الجارية والكلب ، وتركه مكشوفاً وانصرف . فأقبلت حيّة عظيمة إلى الإناء فشربت من ذلك الطعام وذهبت . ثم أقبل الملك من متنزهه ، وأمر بالطعام فوضع بين يديه . فجعلت الجارية تصفّق بيديها وتشير إلى الملك أن لا يأكله ، فلم يفهم ما تريد ، ووضع يده في الإناء . وجعل الكلب يعوي ويصيح ويجذب نفسه من السلسلة حتى كاد أن يقتل نفسه . فتعجب الملك من ذلك وأمر بإطلاقه ، فأُطلق ، فغدا إلى الملك وقد رفع يده باللقمة إلى فيه ، فوثب وضرب يده ضربة أطارت اللقمة منها . فغضب الملك وهمّ أن يضرب الكلب . فأدخل الكلب رأسه في الإناء ، وولغ من ذلك الطعام ، فأنقلب على جنبه ومات . فعجب الملك ، ثم التفت إلى الجارية فأشارت إليه بما كان من أمر الحيّة . ففهم الملك الأمر ، وأمر بدفن الكلب وبناء القبة عليه .

ويروي أبو عثمان المديني أن رجلًا من بغداد خرج يوماً في حاجة له ومعه كلبه ، حتى انتهى إلى قوم كان بينه وبينهم عداوة . فقبضوا عليه والكلب

يراهم ، وأدخلوه الدار والكلب يتبعهم ، وقتلوا الرجل وألقوه في بئر ، وطموا رأس البئر وطردوا الكلب . فخرج يسعى إلى بيت صاحبه يعوي فلم يعبأ به أحد . ثم افتقدت أم الرجل ابنها وعلمت أنه قد تلف ، فأقامت عليه المأتم . ثم حدث يوماً أن اجتاز بعض قتلة الرجل بالباب والكلب رابض ، فلما رآه وثب عليه فخمش ساقه ونهشه وتعلق به . واجتهد المجتازون في تخليصه منهم فلم يفلحوا . وجاء حارس الدرب فقال : لم يتعلق هذا الكلب بالرجل إلا وله معه قصة ، ولعله هو الذي قتله . وسمعت أم القتيل الكلام فخرجت ، وتأملت الرجل فتذكرت أنه كان أحد أعداء ابنها. وتعلّقت به فرفعوهما إلى الخليفة الراضي ، وادعت عليه القتل فأمر الخليفة بحبسه بعد أن ضربه فلم يقر . فلما كان بعد أيام ، أمر الراضي بإطلاقه ، وأمر بعض غلمانه بأن يرسل الكلب خلفه ويتبعه . فلما دخل الرجل داره ، بادره غلام الخليفة ودخل خلفه ، وأدخل الكلب معه ، ففتش البيت فلم ير أثراً . غير أن الكلب أخذ ينبح عند موضع البئر ، فأمر الغلام بنبش البئر فنُبشت ووجدوا الرجل القتيل .

لمثل هذا الوفاء أحبّ العرب الكلب ورحموه وقرّبوه ، وكان لبعض شعرائهم ـ كعليّ بن الجهم والأمير ابن المعتز ـ قصائد طويلة في مدحه . قال الحارث بن صعصعة :

فيا عجباً لِلخِلّ يهتك حُرمتي ويا عجباً للكلب كيف يصون

وإبراهيم بن هَرْمة :

يكاد إذا ما أبصر المرءَ مقبلاً يكلّمه من حبّه وهو أعجمُ

بل إن بعضهم كان يترك في وصيته مبلغاً من المال ينفق على كلابه، أو يوقف عليها وقفاً . ولن ينسى المسلمون قصة « قِطْمير » كلب أصحاب الكهف الذي ذكره القرآن ، والذي قال بعض مفسّريه إنه سيحشر يوم القيامة في الجنة مع الصالحين .

قال محمد بن حرب :

دخلتُ على كلثوم بن عمرو العتّابي فوجدته جالساً على حصير وبين يديه شراب في إناء ، وكلب رابض بحياله يشرب من إناء آخر . فقلت له : ما الذي أردتَ بهذا ؟ قال : إسمع ! إنه يكفّ عني أذاه ، ويكفيني أذى من سواه ؛ يشكر قليلي ، ويحفظ مبيتي، وهو من بين الحيوان خليلي ! قال ابن حرب : فتمنّيت والله أن أكون كلباً له لأحوز هذا النعت منه .

وفي مناقب الإمام أحمد بن حنبل أنه بلغه أن رجلاً من وراء النهر عنده أحاديث عن الرسول . فرحل إليه فوجده يطعم كلباً . فسلّم عليه ابن حنبل فردّ السلام ، ثم انشغل عن ضيفه بإطعام الكلب . فاغتاظ ابن حنبل إذ أقبل الشيخ على الكلب ولم يقبل عليه . فلما فرغ الشيخ التفت إلى ضيفه وقال : كأنك وجدت في نفسك إذ أقبلت على الكلب ولم أقبل عليك ؟ قال : نعم . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قطع رجاء من ارتجاه، قطع الله منه رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة » وقد قصدني هذا الكلب فخفتُ أن أقطع رجاءه فيقطع الله رجائي منه . فقال ابن حنبل : هذا الحديث يكفيني ! ثم رجع .

وفي الرسالة القشيرية أن عبد الله بن جعفر خرج إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يعمل فيها . وإذ جيء للغلام بغذائه ، وهي ثلاثة أقراص ، رمي بقرص منها إلى كلب فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني فأكله ، وبالثالث فأكله . فقال له ابن جعفر : يا غلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال : ثلاثة أقراص . قال : فلِمَ آثرتَ هذا الكلب على نفسك ؟ قال : هو جائع وقد كرهت ردّه . قال ابن جعفر : فما أنت صانع اليوم ؟ قال : أطوي يومي هذا . فقال ابن جعفر لأصحابه : تلومونني على السخاء وهذا أسخى مني .

* * *

والخلاصة أن المسلمين الأوائل كانوا يدركون علة أمر النبي بقتل كلاب يثرب وعلة عدوله عنه (وهي خطر الوباء) . ومثات هي الأوامر التي صدرت عن الرسول لأسباب وقتية ولعلل زال الحكم بزوالها . ومفهوم تكرر الأمر في عهدي أبي بكر وعثمان أن العلة نشأت من جديد ، ثم زالت . أما عن حديث الملائكة فلا نحسبه بعد ما أوردناه وما لم نورده مما سجلته الكتب عن اقتناء المسلمين ـ حتى الفقهاء منهم ـ للكلاب، وما حبوها به من عطف ورحمة ورعاية ، إلاّ أن يكون منسوباً كذباً إلى الرسول . ونحن بعد ذلك نذكر لمن أصرّ على أنه حديث صحيح ، قول الخطابيّ : « وإنما لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة مما يحرّم اقتناؤه من الكلاب والصور . فأما ما ليس اقتناؤه من الكلاب بحرام ، والصورة التي تُمْتَهَنُ في البساط والوسادة وغيرهما ، فلا يمتنع دخول الملائكة بسببه». والكلب الذي قد يعني الخطابي أن اقتناءه حرام هو ـ كما ورد في الحديث عن جابر « الأسود البهيم ذي النُّكْتَتَيْن على عينيه » الذي أمر الرسول بقتله دون غيره . وقد كانت العرب في ذلك الوقت ترى أن النكتتين فوق عيني الكلب وغيره ، علامة أكيدة على أن صاحبها شيطان من الشياطين .

ذاك يا بنيّتي بعض ما حضرني مما يمكن أن تردّي به على « مدرّسة » الدين . فإن أصرّت بعد كل هذا على أن الملائكة لن تدخل بيتك ، فسليها عما إذا كانت الملائكة تدخل بيتها هي .

رسالة أمريكا (١)

صوت المرأة عورة في تكساس !!

ـ قد كان من واجبي أن أحذّرك قبل قدومك . بيد أني خشيت أن يثنيك تحذيري عن المجيء إلى هيوستون . والأمر على أية حال رهن مشيئة اللّه .

هكذا قال يحيىٰ خيري مدير المركز الإسلامي في هيوستون بالولايات المتحدة فور أن استقر بنا المجلس في سيارته خارج مبنى المطار ، وبدأت السيارة تتحرك تجاه منزله . وإذ لمح بطرف عينه ، (أو هو خمّن دون أن ينظر) تعبير الدهشة على وجهي ، عاد يكرر :

ـ بإذن اللّه لن يحدث إلا كل خير . وقد كلفت صباح اليوم خمسة من الشباب الرياضيين الأقوياء في المركز بحمايتك طوال الندوة .

ـ حمايتي ؟! حمايتي ممّ ؟

ـ من المتطرفين بيننا . وهم للأسف يشكلون الأغلبية هنا في تكساس . فالولاية ليست معقل الرجعية في السياسة الأمريكية فحسب ، وإنما هي معقل الرجعية في الفكر الإسلامي أيضاً ، وإن كان قد قيل لي إن الوضع في إينديانا أسوأ حتى منه هنا. أتعلم أنهم أحرقوا في الاسبوع الماضي أحد المساجد في إينديانابوليس لأن النساء يصلين فيه مع الرجال ؟ ثم أتعلم أن المركز

الإسلامي في واشنجطون قد أمرت السلطات الأمريكية بإغلاقه لأجل غير مسمى بعد معركة دارت فيه بالسكاكين بين المسلمين ؟

- أتهزل ؟

- ليتني كنت أهزل . وسترى بنفسك هنا العجب العجاب . وأين ؟ في أمريكا ! في الولايات المتحدة ! وممن ؟ من مهندسين وأطباء ورجال أعمال مسلمين ، ونوابغ طلبة البعثات الموفدين من الأقطار الإسلامية لدراسة الإلكترونيات ! أمور لا أعتقد أنك رأيت مثلها في مصر أو في البلاد الإسلامية التي زرتها.

وتنهّد الدكتور يحيىٰ خيري ثم ابتسم وهو يربت على ركبتي قائلاً :

- ربنا يستر !

قلت : وما دخل محاضرتي في كل هذا ؟

قال : المشكلة هي أنني كنت قد طلبت من « دار الشروق » في بيروت إرسال مائة نسخة من كتابك « دليل المسلم الحزين » لبيعها في المركز أثناء الندوة . وقد وصلت النسخ منذ أسبوع . وقرأ بعضهم الكتاب .

- ثم ؟

- هاجوا وماجوا واعتبروا الكتاب كله كفراً في كفر . وأتاني وفد منهم يطلب الإطلاع على نص محاضرتك الذي كنتَ قد أرسلته إليّ من القاهرة . فلما قرأوه زاد هياجهم ، وطلبوا مني إلغاء المحاضرة . غير أني كنت حازماً في رفضي طلبهم . فهدّدوا بإحداث الشغب وإنزالك بالقوة من المنصة إن حاولتَ إلقاءها . وهذا هو السبب في تكليفي للخمسة بحراستك . وسيقفون خلفك على المنصة طول الوقت .

- شكراً لك . غير أني في مثل حزمك في رفض هذا العرض منك .

- ولكن . .

ـ أتراني أقبل التحدّث في سبل إصلاح حال الأمة الإسلامية وحولي حرس يحمونني من مسلمين ، ومندوبو الصحف والإذاعات الأمريكية يشهدون المنظر ، ويكتمون الضحك على أمة الإسلام إذ يحتاج صاحب الرأي الجديد فيها إلى حماية ؟

سكت يحيـىٰ برهة يفكر ، ثم قال : الأمر لك . ثم غيّر من لهجته فجأة وقال ضاحكاً :

ـ أتعلم ما قالوه أيضاً ؟ قالوا إن والدك المرحوم أحمد أمين كان كافراً هو الآخر، وأنك بالتالي كافر وابن كافر «وذو نسب في (الكافرين) عريقُ»! لا تبتئس، فهم يتهمونني أنا أيضاً بالكفر، ويرفض بعضهم الصلاة خلفي حين أؤمهم ، ويصفون زوجتي التي تعلّم أطفالهم الدّين واللغة العربية أيام السبت والأحد ، تطوّعاً وبغير أجر ، بأنها « غير ملتزمة » ، لأنها لا تغطي شعرها خارج المسجد . كذلك اتهموني بأني إنما دعوتك لإلقاء المحاضرة الرئيسية بالندوة من أجل تعزيز جانب المستنيرين ووجهة نظرهم ، ولإضعاف تأثير جماعتهم المتطرفة في سائر الجالية الإسلامية هنا . . أتريد الحقيقة ؟ هم محقّون في هذا الاتهام الأخير ! ها ها ها ! ما علينا ! ألف حمد للّه على السلامة . نوّرت تكساس . . ولكن ، أصحيح ما بلغنا من أن رجاء النقاش قد حوكم وفصل من رئاسة تحرير مجلة « الدوحة » بسبب نشره مقالات لك ؟

* * *

في صباح اليوم التالي ، كنت مع يحيى في مكتبه بالمركز الإسلامي ، نتصفح الكتب التي وصلته من مختلف أقطار العالم الإسلامي لعرضها في معرض الكتاب خلال مدة الندوة ، حين طرق طارق الباب .

كان شاباً كئيب الوجه ، زريّ الهيئة ، في نحو الثلاثين ، لم يحلق شعر لحيته ليومين أو ثلاثة . دخل فلم يعن بأن يعرّفنا بنفسه ، وإنما شرع من فوره

بعد إلقاء التحية يفتح حقيبة صغيرة معه ، ليخرج نسخة من « دليل المسلم الحزين » ، يلوّح بها في وجه الدكتور يحيىٰ :

ـ أفي نيتكم أن تعرضوا هذا الكتاب في المعرض ؟

وأدرك يحيىٰ ما هو آت ، فبادر بسرعة يقول :

ـ دعني أعرّفك بمؤلفه . الأستاذ حسين أمين .

وبهت الشاب وقد أُخذ على غرّة . واكتفى بإيماءة خفيفة من رأسه تجاهي على سبيل التحية ، معيداً الكتاب إلى حقيبته دون أن يكمل ما أراد قوله .

ـ يا دكتور يحيى ، أنا عندي شكوى .

ـ ألن تعرّفنا أولاً بنفسك ؟ لا أظن أني رأيتك هنا من قبل .

فهمهم همهمة لم نتبين منها إسماً أو لقباً أو صناعة . ومضى يقول :

ـ لاحظت في المسجد أموراً عجيبة ، لا يرضاها الله ولا يقرّها الإسلام والمسلمون . فليس ثمة ستارة تحجب المصليات عن المصلين ، وبوسع الرجال من مكانهم أن يروا النساء وهن يركعن ويسجدن ، وهو ما من شأنه أن يثير فيهم أحطّ الغرائز البهيمية ، خاصة أن بعض النساء يأتين مرتديات البنطلون . ثم إن الميضأة الخاصة بالنساء بابها دائماً مفتوح . وقد رأيتهن بنفسي من قمة شارع ألاباما ، ومن على بعد مائتي متر أو يزيد ، يتوضأن كاشفات عن مفاتنهن . فهل يجوز هذا في بيت من بيوت الله ؟ وكيف تجيز إدارة المركز للنساء أن يدخلن المسجد بالبنطلون ، وأن يدخلن مكتبة المركز حاسرات الرأس ؟

قال يحيى :

ـ نودّ أن نتشرّف بسماع اسمك في وضوح قبل الشروع في الردّ .

ـ إسمي محمود .

ـ محمود ماذا ؟

ـ لا أرى في معرفتك لأسمي أهمية .

ـ وصناعتك ؟

ـ مهندس في شركة حسن علام بالقاهرة .

ـ أحديث العهد أنت بالقدوم إلى الولايات المتحدة ؟

ـ لي فيها ثمانية أيام .

ـ في مهمة ؟

ـ في إجازة .

ـ في إجازة تقضيها في مدينة هيوستون ؟

ـ نعم .

ـ ألك أهل أو معارف هنا ؟

ـ لا .

ـ وحصلت على تأشيرة دخول من سفارة الولايات المتحدة في القاهرة لقضاء إجازة في هيوستون ؟

ـ نعم .

ـ بسهولة ؟

ـ نعم .

ـ عجيبة ! إني أعرف امرأة مصرية في سان فرانسيسكو مصابة بالسرطان ، رفضت السفارة الأمريكية في القاهرة منح تأشيرة دخول لأخيها الراغب في رؤيتها قبل أن تموت .

ـ ما دخل كل هذا فيما سألتك عنه ؟

نهض يحيى من مقعده وأشار إلينا أن نحذو حذوه :

ـ سنذهب معاً إلى قمة شارع ألاباما للتحقق من إمكان رؤية مفاتن النساء في الميضأة من ذلك المكان .

ومضينا إلى قمة ألاباما . باب الميضأة مفتوح حقاً ، غير أننا ـ للأسف ـ

لم نتمكن من رؤية شيء في الداخل على الإطلاق .

ـ لعلك تسلّقت عمود النور هذا في طلب رؤية واضحة ؟ أم هي مخيّلتك التي أرتك ما لم تره عيناك ؟

ولم يجب المهندس . واستمر يحيى قائلاً :

ـ لا تؤاخذني . ولكنك تذكرني بنكتة العجوز التي توجّهت بشكوى إلى الشرطة من أن الشاب الذي يسكن في المنزل المواجه لمنزلها يتجرد من ملابسه والشباك مفتوح . فلما مضى الضابط معها إلى غرفتها للتحقق من الأمر ، لم يتمكن من رؤية شيء مما ذكرته . فقالت له : لا يا سيدي الضابط ، ولكنك إن صعدت فوق الدولاب تمكنت من رؤية كل شيء !

ثم عدنا إلى مبنى المركز .

ـ أزرت مسجد الرسول في المدينة ، أو المسجد الحرام بمكة ؟

ـ نعم .

ـ أفي أي منهما ستارة تفصل بين المصلين والمصليات ؟

ـ لا . ولكن النساء لا يدخلن إليهما يرتدين البنطلونات التي تحدّد معالم أعجازهن .

ـ أقرأت سورة النور ؟

ـ طبعاً !

ـ ألم تجد فيها : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم » ؟

وغض المهندس من بصره عند سماع الآية ، وتمتم يقول : لكن . . .

ـ لكنك تحملق وتحملق وتحملق ، ثم تهبّ هائجاً تستنكر . وتصعد فوق الدولاب ، وتهتف صارخاً تستغيث . أليس كذلك ؟ أمتزوج أنت ؟

ـ لا .

ـ تزوّج بالله عليك وأرح نفسك وأرحنا . أنت تستنكر دخولهن المسجد بالبنطلون ، أو مكتبة المركز حاسرات الرأس . غير أني أريد أن أخبرك بأمر .

لقد كان لهذا المركز من أربع سنوات مضت مدير يرى مثل رأيك ، ويأمر النساء بما تريد أن تأمرهن به . أتدري ما كانت النتيجة ؟ انخفض عدد المترددات على المسجد وعلى المركز معاً خلال عام واحد بنسبة تزيد على النصف ، واضطر هو نفسه بعد ذلك إلى تخفيف الحظر ، رائياً من المصلحة مراعاة واقع الحال في الولايات المتحدة ، والأخذ بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بشِّر ولا تنفِّر » .

ـ ولكن أصواتهن تتناهي إلى الرجال الغرباء وهن يتحدثن في المسجد قبل الصلاة وبعدها . وصوت المرأة عورة كما ورد في الحديث الشريف .

ـ أين قرأت هذا الحديث ؟

ـ في صحيح البخاري .

مدّ يحيى يده إلى رفّ وراء مكتبه ، وأنزل منه بعض المجلدات من صحيح البخاري ليناولها الشاب .

ـ أرني أين ورد هذا الحديث في صحيح البخاري .

ـ لم أقرأه بنفسي فيه . غير أنه قد قيل لي إنه وارد به .

ـ سأكون شاكراً لو أنك دللتني على موضعه في البخاري أو مسلم قبل انتهاء « إجازتك » في هيوستون . غير أن الذي قرأته أنا في الكتب أن عائشة رضي الله عنها كانت تحثّ الرجال الغرباء على القتال في وقعة الجمل ، وأن كلاً من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة رضي الله عنهما كان لها ندوات أدبية تحضرها سافرة ويحضرها الشعراء ورجال الأدب ، وكانت تتحدث إليهم فيها . أقرأت شيئاً من هذا القبيل ؟

ـ نعم .

ـ فأنت أفقه منهن في الدين ؟

ـ لا .

ـ كثّر الله خيرك ، وصحبتك السلامة .

هزّ يحيى رأسه بعد انصراف الشاب ، ثم هتف بي :

أترى كيف تسيطر الأفكار الجنسية على هؤلاء ؟ من استمع إليهم أو قرأ رسائلهم التي يبعثون بها إلى المجلات الإسلامية والردود عليها ، لا بد أن يحسب الرجل المسلم حيواناً بشعاً لا همّ له في الحياة غير إشباع الشهوة الجنسية ، وأن يرى المرأة لا تعدو أن تكون أداة للشيطان ، ولا صنعة لها في هذه الدنيا غير تحريك الشهوات . أي نوع من التفكير السقيم هذا ؟ ! سأصحبك بعد صلاة الظهر إلى مركز بحوث الفضاء خارج هيوستون . وسترى فيه الأمريكية والأمريكي ، والكومبيوتر ثالثهما ، يكدحان جنباً إلى جنب ، من الخامسة صباحاً إلى التاسعة مساء ، في سبيل تطوير العلوم ، دون أن يترك لهما كدحهما بقية طاقة للتفكير في عورات أو ستائر أو مفاتن ، مع أن معظم العاملات فيه يرتدين البنطلون الذي يحدّد معالم أعجازهن ! ثم يأتي « مفكرونا الإسلاميون » ليشيروا شامتين إلى ما يسمونه بانحلال الأخلاق في المجتمع الغربي ، مستشهدين بواقعة هنا وواقعة هناك . وماذا عن الوقائع هنا وهناك في مجتمعنا الإسلامي الذي لا يملك ديناً ، ولا يقدم للبشرية علماً ؟ لقد كان في ولاية لويزيانا منذ عامين عربي مسلم يسمونه بأمير اللواء الإسلامي ، ويعمل في مكتب إعلامي تابع لإحدى السفارات العربية . هذا « الأمير » كان إذا أراد أن يسلّم مذكرة للسكرتيرة الأمريكية التي تعمل بالمكتب ، أدار رأسه حتى لا يقع نظره على مفاتنها ، أو سلمها الأوراق من وراء حجاب . أتعلم أنه قبض عليه في آخر عام ١٩٨١ لاعتدائه جنسياً على طفلة مسلمة في الثانية عشرة من العمر هي ابنة صديق له ؟ غير أن لدى « مفكرينا » من الصفاقة ما يسمح لهم بالحديث عن مادية الغرب وروحانية الشرق : مادية الغرب التي أنتجت للبشرية موسيقى باخ ، وأدب تولستوي ، ولوحات فان جوخ ، وكتابات توينبي في التاريخ ، وروحانية الشرق التي أنتجت معبود الجماهير أ. ع. ، وحبيبة الملايين فضيحة هانم حركات .

ستسمعهم هنا أثناء مدة إقامتك يدينون المجتمع الأمريكي . سَلْهم ما

الذي أجبرهم على المجيء إليه والإقامة فيه . ويدينون الإفراط في التكنولوجيا ، مستشهدين بأقوال مفكرين من الغرب نفسه من أمثال شوماخر في انتقادها . (هم دائماً يستشهدون بالغربيين لإدانة الغربيين !) . سلهم ما سرّ هذه اللهفة الشديدة من جانب أغنيائهم على اقتناء أحدث ثمار التكنولوجيا الغربية ، دون أن يقدّم مجتمعهم إسهاماً واحداً في ميدانها ، بل ودون أن يحاول أحدهم فهم كيفية عمل هذه المنتجات الغربية التي يفخرون بشرائها من أموال النفط .

أدر التليفزيون الأمريكي وسترى على الشاشة طالبة إيرانية تدرس الطب في جامعة كاليفورنيا ، ترتدي الحجاب ، وتتحدث إلى الأمريكيين زاعمة أن وضع المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية ، أفضل من وضع المرأة في المجتمع الغربي ، وأن مجتمعها الإسلامي يوفر لها الكرامة والشرف . الكرامة والشرف ؟ ! سترى بنفسك هنا كيف يعامل الرجال المسلمون زوجاتهم . بعضهم يحرّم على زوجته النظر من النافذة ، لأن الرجال الأمريكيين قد يمرون تحتها يجرون بالشورت أثناء رياضتهم الصباحية . . أحدهم أخرب بيده جهاز التليفزيون ليحول بين زوجته ورؤية برامجه ، حتى اضطرت المسكينة إلى الالتجاء سراً إلى جارتها الأمريكية للتفرج عليه عندها حين يكون الزوج في عمله . . أحدهم يرفض أن يشتري غسّالة كهربائية تستعين بها زوجته على أداء أعمال البيت الكثيرة ، بحجة أن الغسالة الكهربائية بدعة لم تكن على عهد الرسول والصحابة رضوان الله عليهم . . أحدهم يرفض السماح لابنته التي لم تبلغ التاسعة بمصافحة الرجال . . . أحدهم ، وهو طالب يعد رسالة الدكتوراه في الفيزياء ، طلق زوجته في الأسبوع الماضي للسبب الآتي : دعا أستاذه الأمريكي إلى العشاء في داره . وكانت الزوجة طوال الوقت قابعة في المطبخ تناول زوجها الصحون من وراء باب حجرة الطعام . ثم حدث بعد العشاء أن قام الأستاذ ـ على عادة الأمريكيين ـ يساعد في نقل الصحون إلى المطبخ. وهناك ـ ويا للهول ! ـ التقى بالزوجة المختبئة ، فحيّاها وكلمها ، بل

وصافحها ! فما خرج من المنزل حتى طلق طالب الفيزياء زوجته ، متهماً إياها بأنها لا بدّ قد شجعت الأستاذ بنظرة خفية منها على أن يفعل فعلته .

وتأتي الفتاة الإيرانية لتحدث الامريكيين عن كرامة المرأة في مجتمعنا !

أتعلم أننا نشهد شهرياً هنا في الولايات المتحدة ، حادثاً واحداً على الأقل تهرب فيه امرأة مسلمة مع رجل أمريكي ؟ لقد دعوت في رمضان الفائت عدداً من عائلات المسلمين للإفطار في بيتي . وإذ دخل الرجال الصالون ، ورأوا بعض النسوة جالسات فيه ، صاح أحدهم : « شيلوهم من هنا ! » ، وكأنهن كومة من القمامة أو سقط متاع ، فغادرت النساء الغرفة فزعات مسرعات ذليلات . ثم تأتي الفتاة الإيرانية لتحدثنا عن كرامة المرأة في مجتمعنا .

وتناهى إلى سمعنا صوت المؤذن . فقمنا لصلاة الظهر . واتجهنا بعد الصلاة إلى مركز بحوث الفضاء .

وفي المتحف الملحق بمركز البحوث ، يقع بصري على الطوابير الطويلة المتتالية من الأطفال والصبية الأمريكيين من ذكور وإناث ، يمسك بعضهم بيد البعض ، وينتقلون من الصواريخ إلى مركبات الفضاء ، إلى نماذج الأقمار الصناعية ، إلى القطع الحقيقية من صخور القمر يلمسونها بأيديهم ، إلى مكان عرض ملابس رجال الفضاء ونسائه وما أُدخل عليها عبر السنين من تعديلات ، إلى قاعات السينما تعرض الأفلام عن تاريخ الطيران وتاريخ غزو الفضاء ، إلى اللوحات التي تسجل أمجاد عباس بن فرناس وليوناردو دافينشي ، إلى نموذج ضخم للمريخ ، إلى مركز مراقبة الرحلات إلى القمر ، إلى مركز تدريب رجال الفضاء ونسائه ، إلى نماذج بالحجم الطبيعي لهم وهم جلوس داخل المركبة ، إلى مركز تقييم نتائج الرحلات . . . . الكل يستمع في شغف ونهم إلى شرح مدرسات من زنجيات وبيض . صبي يدلف إلى داخل صاروخ في رهبة ، وآخر يخرج من مركبة فضاء في زهو ، وثالث يشدّ زميلته

من ذراعها ليريها نماذج الطعام الذي يتناوله رجال الفضاء ونساؤه أثناء الرحلة، أو الرسوم التي توضح كيفية تخليص الجسم من نفاياته خلالها . وعند كل من المعروضات سمّاعة إن رفعها الطفل ووضعها عند أذنه ، سمع شرحاً مفصلاً مبسّطاً لما هو معروض أمامه ، وكيفية عمله ، وتاريخ الجهود التي بُذلت في سبيل التوصل إلى صنعه .

وتكون مراقبتي لهؤلاء الصبية والفتيات الصغار ، ولمدرّسيهم ، ولكبار العلماء والمهندسين والأطباء العاملين بالمركز يحوطون الجميع برعايتهم ، وينثرون أمامهم كنوز معارفهم ، أطول من مراقبتي للمعروضات . وتقفز إلى ذاكرتي أسئلة القراء في مجلاتنا « الإسلامية » : هل يجوز للعروس خلع الحجاب في ليلة الزفاف ؟ هل تنقض صبغة اليود الوضوء ؟ ما حكم الشرع في قص شعر المرأة ؟

ثم أتذكر أطفالنا في مصر فتكاد عيناي تدمعان من الغيظ وفرط الحسد . وأتذكر بالأخص طفلاً مصرياً كان يفخر أمامي قبل سفري إلى أمريكا بأيام قلائل ، بأن والده المقاول الكبير تمكن من الحصول على نسخة من فيلم « خمسة باب » ، وأنه سيشاهده ذلك المساء ، وكان بقية الأطفال من أصدقائه يرمقونه أثناء حديثه وقد أكلت قلوبهم الغيرة ، وبعضهم يظنه كاذباً أو مبالغاً في ادعائه . . . . .

(للحديث بقيّة)

رسالة أمريكا (٢)

١٢

شموع من ورق

قضيت الأيام الثلاثة السابقة على افتتاح الندوة الإسلامية بمدينة هيوستون ، في محاولة التعرّف على مختلف الاتجاهات الفكرية السائدة بين المسلمين في تكساس . وكان خير سبيل لتحقيق هدفي هو قضاء وقتي بأسره من ساعة صلاة الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء في المركز الإسلامي والمسجد الملحق به ، لا أفارقهما إلا لتناول الوجبات . فعلى المركز يتدفّق المشتركون في الندوة من جميع أنحاء الولاية ، بل ومن الولايات المجاورة . والغالبية تجتمع في المسجد لأداء الصلوات الخمس . والبعض يبيت ليله فيه . فكنت أتنقّل من حلقة إلى حلقة ، ألقي التحية ثم أجلس ، وأصغي السمع في انتباه ولا أتكلم إلا نادراً . حتى إذا ما فرغوا من حديثهم وقاموا ، قمت لأنتقل إلى حلقة أخرى .

الأكثرية هنا تنتمي إلى التيار الديني المتطرف : قد أطلقوا اللحى ، وتجهّمت الوجوه منهم ، يرتدون الجلابيب أو الزي القومي الباكستاني ، ونساؤهم يرتدين النقاب الذي لا يظهر غير العينين . وهم يرون ضرورة الأكل باليمين والشرب باليمين ، « فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » (رواه مسلم) ، ويرون في شرب الإنسان وهو قائم مخالفة للسنّة ، « ومن

نسي فليستـقِء » (ورد في الصحيح) ، ويحرّمون الغناء والموسيقى واقتناء الصور الفوتوغرافية . وكذا يستنكرون التصفيق في التعبير عن الإعجاب لأن الجاهليين كانوا يصفّقون أثناء طوافهم بالكعبة ، فإن استحسنوا فكرة من محاضر أو قولاً من متحدّث اكتفوا بالهتاف : « اللّه أكبر ! » . والبعض منهم يسافر مرّة كل أسبوع إلى مكان يبعد عن هيوستون مسافة مائتي ميل ، لشراء الدجاج ولحم الحيوان المذبوح وفق حكم الشريعة ، من مذبح يمتلكه رجل أمريكي (علمت فيما بعد أنه يهودي) ، لديه شريط تسجيل سُجّلت عليه البسملة عشرات المرات ، كلما قدّم دجاجه وحيواناته للذبح أدار الشريط ، فيصبح اللحم بذلك حلالاً للمسلمين المتّقين .

الكثيرون منهم قدموا إلى الولايات المتحدة من الأقطار الإسلامية منذ ما يـزيد على عشـر سنوات ، للعمـل أو الدراسـة ، فراراً بـإسلامهم من « الاضطهاد » . وهم يعتبرون أنفسهم في دار هجرة ، ويعتقدون أن الإسلام الصحيح سيخرج من أمريكا ، ويتوقعون أن يعودوا إلى بلادهم كما عاد النبي والصحابة إلى مكة وقت فتحها ، حين يقوم فيها نظام إسلامي حقيقي . ورغم طول مقامهم في الولايات المتحدة فقد أدهشني ضعف حصيلتهم من اللغة الانجليزية ، وقلة استفادتهم من الجوانب الإيجابية للحياة الأمريكية . فهم يقضون كل أوقات فراغهم إما في المسجد ، أو قابعين في دورهم ، أو في زيارات لزملائهم من المسلمين ، يصلّون جماعة ، أو يقرأون في صحيح البخاري ، أو يتآمرون على الأقباط المهاجرين مثلهم (أيضاً لشعورهم بالاضطهاد !) ، أو يغتابون مسلمين ومسلمات لم يـرضوا عن مسلكهم وزيّهم . وهم يتحاشون الاختلاط بالأمريكيين ، لأن الإسلام في زعمهم ينهي عن اتخاذ المسلم لغير المسلم صديقاً . وأما المتاحف فلا يعرفون إليها طريقاً ، وهي الحاوية لصور يقول ابن ماجة في سُننه إن الملائكة تهرب منها ، وأصنام قد حرّم الإسلام صنعها .

ومع أنهم أكثر الناس حديثاً عن أهمية الوحدة بين المسلمين ، وأن

يكونوا كالبنيان المرصوص ، يشدّ بعضهم من أزر بعض ، فهم أكثر الناس نهشاً لأعْرَاض غيرهم من المسلمين . بعضهم يسمّي هذا المسجد الذي يصلي فيه « مسجداً ضراراً » لأن إدارة المركز الإسلامي اضطرت من أجل بنائه إلى اقتراض المبلغ اللازم من بنك أمريكي بفائدة ! بالربا المنهي عنه صراحة في القرآن ! وهم يهزأون في غلظة ممن يأكل على المنضدة لا على الأرض ، ولا يتجه في جلوسه إلى القبلة ، ولا يقصّر جلبابه إلى ما فوق الكعبين ، ويتّهمون مدير المركز بمخالفة السنة والتهاون في الدين وبالهزيمة النفسية أمام حضارة الغرب ، لأنه يرتدي بنطلوناً « يبرز مفاتنه » . بل لقد صفعه أحدهم ، وهو أمير اللواء الإسلامي في هيوستون ، على وجهه لهذا السبب ، ثم مضى يعدو هارباً ورئيس المركز يعدو وراءه للحاق به ، والأمريكيون يتفرّجون عليهما في الطريق .

لسان حالهم يشهد بأن المسلم كلما ازداد فظاظة وكراهة لمخالفيه كان أقرب إلى اللّه تعالى وإلى الإيمان الحق . وأغلب ظني أنهم حين يتلون من آي الذكر الحكيم ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ، أو ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ ، يودّون في أنفسهم أن القرآن لم يوردها واكتفى بآيات مثل : ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ . وقد قفزت إلى ذهني أثناء إنصاتي إليهم ومراقبتي لوجوههم الناضحة بالكراهية والحقد ، شخصية چاڤير في رواية هيجو « البؤساء » . وچاڤير هذا ضابط شرطةٌ هو ابن لمجرم أثيم . وقد بلغ به مقته لأبيه ، وهو بعدُ صبيّ ، حدًّا قرّر معه أن يخالفه في كل شيء . فكان أن أصبح ضابط شرطة يتعقّب المجرمين من أمثال أبيه في كفاءة ومثابرة وغلظة قلب . ثم إذا به يتبيّن في النهاية في لحظة صدق أنه في حقيقة أمره لا يعدو أن يكون مجرماً كوالده ، وإن كان إجرامه قد تستّر وراء زيّ ضابط الشرطة ، وستار تطبيق العدالة . فهو يعامل الخارجين على القانون معاملة لا تقل إجراماً عن معاملة أبيه للأبرياء .

هو إذن مجرد حقد لدى هؤلاء ، كان يمكن أن يتخذ أية صورة من

الصور ، ثم اتخذ بالمصادفة المحضة صورة التطرف في الدين . وكما أن الخوارج كانوا في الحقيقة قوماً من البدو خرجوا على السلطة ثقيلة الوطأة واتهموها بالكفر ، وهجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب ، واستأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد ، فكذلك هؤلاء : الفظاظة والحقد والكراهية هي الأصل ، والدين قناع رقيق لا يكاد يخفي الوجه الكئيب وراءه . وقد أدّى عزوفهم عن تقبل أي جانب إيجابي من جوانب الحضارة الأمريكية التي جاءوا بمحض اختيارهم للعيش في ظلها ، وعن الاختلاط بالأمريكيين ومشاركتهم حياتهم وإتقان لغتهم ، إلى خشونة في معاملة الأمريكيين إياهم . وهي خشونة انعكست بدورها في معاملة الرجال المسلمين لزوجاتهم ، ينفّسون في قمعهم لهن عما يشعرون به هم من قمع ورفض واضطهاد . فذهبت النساء (شأنهن دائماً ، خاصة في مجتمعنا الإسلامي) ضحية ما لا ذنب لهن فيه .

* * *

جاء يوم المحاضرة فإذا الصفوف العشرة الأولى من القاعة قد شغلها هؤلاء القوم بأكملها أو حجزوا المقاعد الشاغرة فيها لرفاقهم ، مُبعدين بإشارة من اليد كل من تقدّم للجلوس عليها ممن ليس من جماعتهم . كانوا يتهامسون فيما بينهم في هيئة المتآمرين ؛ هذا يشير لرفيقه بطرف لحيته إلى مكاني في صف خلفيّ ، وذاك ينبّه زميله إلى فقرة من كتابي « دليل المسلم الحزين » أو من إحدى مقالاتي بمجلة « الدوحة » القطرية أو « العربي » الكويتية وهو يرسم دائرة حمراء حولها ، وثالث قد انحنى على أذن جاره يُسرّ إليه حديثاً سريعاً وكأنما يحدّد له دوره خلال الجلسة . كل هذا ورئيس المركز يراقبهم وفي عينه القلق ، لا يدري ما عساهم يصنعون .

وأخيراً وقف ليعلن عن محاضرتي ويقدّمني للناس . وإذ أشار إليّ كي أتقدّم إلى المنصّة ، إذا برجل في جلباب أبيض ولحية سوداء يسارع إلى

الميكروفون فيختطفه اختطافاً من يد الرئيس ويصيح فيه :

ـ السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . أيها الناس ! خزياً لكم أيّ خزي ! قوموا من كراسيكم واستغفروا اللّه سبحانه وتعالى ، فقد أتيتم بجلوسكم على الكراسي أمراً نكراً . وايم اللّه إنكم لتعلمون حق العلم أنه لا النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ولا صحابته رضوان اللّه عليهم أجمعين ، كانوا يستخدمونها ، وأنكم باستخدامكم إيّاها تُحدثون في الدين ، وتأتون ببدعة تفضي بصاحبها إلى النار . وقد جاء في الأثر الشريف أن . . . .

قاطعه الدكتور يحيىٰ خيري في حدّة وهو يحاول نزع الميكروفون من يده :

ـ إسمح لي أن أسألك . . .

ـ وقد جاء في الأثر الـ . . . .

ـ إسمح لي أن أسألك . ألك سيارة ؟

ورأينا وجه الرجل أمامنا يمتقع .

ـ أكرر سؤالي : ألك سيارة ؟ . . . وإذ ترفض أن تجيب فإني أجيب نيابة عنك . نعم لديك سيارة شيفروليه خضراء ، موديل ٧٦ ، لا أذكر رقم لوحاتها . ثم أسألك: أتجلس في هذه السيارة إذ تقودها وأنت على أرضها أم على مقعد القيادة منها ؟ ثم أعود فأسألك : أكان للنبي صلوات اللّه وسلامه عليه أو لأحد من الصحابة أو التابعين سيارة ؟ أكان لدى أحد منهم ساعة كالتي أراها في يدك ؟ لقد شكت أمرأتك إلى امرأتي من أنك ترفض أن تشتري لها غسالة ملابس كهربائية لأنها في رأيك بدعة ، في حين لم تر بأساً من شراء آلة كاتبة كهربائية لنفسك . أتنتقي من سنة النبي ما تهوى وتهجر ما تهوى ؟

قال الرجل متلعثماً : السيارة في مدينة كبيرة مثل هيوستون لا غنى عنها

في التنقل من بيتي إلى العمل أو المسجد . والساعة لازمة حتى أكون في مقر عملي في الموعد المحدد :

قال يحيىٰ : غير أن كل ما من شأنه أن يريح امرأتك ويخفف عنها عبء العمل المنزلي غير لازم ومخالف للسنة . أليس كذلك ؟

صاح البعض في الصفوف الخلفية : اللّٰه أكبر ! مستحسنين ما قاله يحيى . وعاد الرجل مخذولاً إلى المكان الذي جاء منه ، فجلس على الأرض .

وأعترف هنا بأني مدين لهذه الحادثة البسيطة بأن مرّت محاضرتي في هدوء ودون صخب أو مقاطعة . فقد أضعفت هزيمة الرجل وهتاف الصفوف الخلفية من مركز المتحفّزين في المقاعد الأمامية . ولا شك عندي في أن هؤلاء كانوا يعتزمون الإقدام أثناء المحاضرة على أمر ما من شأنه إفساد الندوة بأسرها ، ومنعي من إكمالي حديثي . غير أني ما فرغت من إلقاء محاضرتي حتى كانوا قد استعادوا ثبات جأشهم ، وثاب إليهم روعهم .

وبدأت مناقشتهم لي .

قام أحدهم ليقول بلهجة ماكرة شأن من اكتشف أمراً ظنني حريصاً كل الحرص على إبقائه سراً :

ـ قد تناهى إلى علمي ، ولا تسلني من أين ، أنك . . . أنك تعمل سفيراً بوزارة الخارجية المصرية !

ـ هذا صحيح .
ـ ألا تخجل ؟ ألا تستحي ؟
ـ سأكون شاكراً لو نبّهتني إلى دواعي الخجل في الأمر .
ـ ألا تخجل من العمل خادماً لنظام يذبّح المسلمين في مصر ؟
ـ أَوَقَـدْ وصلتك معلومات تفيد بهذا الذي تقول ؟

ـ نعم !
ـ فإنها لم تصلني . ولو كانت وصلتني لاستقلت .
ـ أؤكد لك أنها صحيحة .
ـ ما على تأكيد مثلك أبني قراراتي .

قام آخر يسأل دون استئذان من رئيس الندوة :

ـ تختّم الرجال بالذهب : حرام هو أم حلال ؟
ـ ما سؤالك عن هذا ؟
ـ لأني أرى في إصبعك خاتم زواج من ذهب . والرسول عليه الصلاة والسلام قد نهى عن تختم الرجال بالذهب . فإن كان لا علم لك بالحديث فأنت امرؤ جاهل لا حق لك في الكلام عن الإسلام ، وإن كنت عالماً به وتعصى الرسول عامداً متعمداً فلا حق لك في الكلام عن الإسلام .

صاح الجالسون في الصفوف الأمامية : اللّه أكبر ! اللّه أكبر !

قلت :

ـ أريد أن أنبّه أولاً إلى أن هذا السؤال وسابقه لا علاقة لهما بموضوع المحاضرة . وأنبّه ثانياً إلى أني قد ذكرت في محاضرتي أن انشغال أمة المسلمين بمثل هذه التوافه من الأمور هو أحد أسباب تدهور حالها . وأنبه ثالثاً إلى فقرة في كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد تذكر أن الصحابيّ الجليل سعد بن أبي وقاص كان يلبس الخزّ ويلبس خاتماً من ذهب . وهو مع ذلك ، برغمك ورغم أصحابك ، أحد العشرة المبشّرة بالجنة .

صمت وذهول ، يقطعهما هتاف من الصفوف الخلفية : اللّه أكبر ! ويبدا الأمر الآن وكأنما نحن نشهد إحدى مباريات فريقي الأهلي والزمالك لكرة القدم ، لا ندوة عن « حاضر الأمة الإسلامية : المشكلات والحلول المقترحة » .

قال ثالث :

ـ شكّكت في محاضرتك في بعض الأحاديث الواردة في صحيح البخاري . وأنت تعلم أن « صحيح البخاري » أصحّ الكتب عند عامة المسلمين بعد كتاب اللّه عزّ وجل . وتشكيكك فيه يعني التشكيك في الإسلام بأسره. ولا أحسبك إلا من أولئك الذين يسعون إلى هدم الإسلام ، شأن كبير القبط لويس عوض . كما أني لا أرى أن المصادفة وحدها هي التي جمعت بين مقالاتك ومقالات القسيس لويس في توقيت واحد بمجلة « المصوّر » .

قلت :

ـ سأتغاضى عن البذاءة التي وردت في النصف الثاني من حديثك ، مكتفياً بالردّ على نصفه الأول . . الإمام البخاري هو أحد أجلّة علماء المسلمين رغم كل ما ذكره الحاقدون ممن حكم بكفره أثناء حياته . وفي رأيي أنه أسدى إلى الإسلام وإلى علم الحديث خدمة كبرى إذ انتقى من بين ستمائة ألف حديث اجتمعت لديه زهاء سبعة آلاف وثلاثمائة، حكم بصحتها . وقد أخطأ البخاري مع ذلك إذ كان الإسناد عنده هو « قوائم الحديث » ، إن سقط سقط ، وإن صح السند وجب قبول الحديث مهما كان مضمون المتن . وكانت النتيجة أنه أورد في صحيحه بعض الأحاديث متينة الإسناد ظاهراً ، والتي يحوي متنها ما يجافي المنطق أو العلم أو التاريخ الثابت . وأضيف إلى هذا أنني لست أول من شك في صحة بعض ما أورده البخاري . سبقني إلى ذلك ابن خلدون الذي دعا إلى أن يكون أساس تمييز الصحيح من الزائف هو التمييز بين الممكن والمستحيل ، وابن عبد البر والنووي اللذان نفيا صفة الحديث الصحيح عن كل ما يخالف المنطق ، وكذا ابن تيمية ومحمد عبده ورشيد رضا وأحمد أمين . وأراهم على حق .

قال رابع :

ـ إن كنت تدّعي الإسلام ، فلم لا ترتدي الزيّ الإسلامي ؟

رفعت حاجبيّ متظاهراً بالدهشة وقلت :

ـ أهناك حقاً زيّ إسلامي ؟

ـ نعم ! الجلباب الأبيض الذي كان يرتديه الرسول عليه الصلاة والسلام .

ـ أما كان يرتديه أبو جهل أيضاً ، وأبو لهب، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ؟ إنه زيّ جاهلي يا صاح ! وكذلك اللحى ، لحى جاهلية . أضف إلى ذلك أن الله تعالى قال في سورة الأنعام ﴿ وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم ﴾ ، وليس لبس البدلة مما فصّل الله لنا تحريمه ، وبالتالي فليس هو بالحرام أصلاً أو بالذي ينفي صفة الإسلام عن مرتديها .

قال خامس :

ـ قلت في إحدى مقالاتك بمجلة « الدوحة » (قبل أن يمنعوا نشر سمومك في دولة قطر) ، إن هجرة الصحابة إلى الحبشة كانت من أجل هدف اقتصادي . وهو ما يتضح منه أنك تجرد الدعوة الإسلامية من اتصالها بالوحي ، وأنك تراها مجرد حركة طبيعية مادية بحتة ، ونتيجة للصراع الطبقي . وهو ما يذكرنا بأسلوب الشيوعيين في تفسيرهم لأحداث التاريخ ، ويدلنا على أنك تسعى إلى غرس الفكر الماركسي في أذهان المسلمين عن طريق هذه الكتابات المتصلة بالدين .

أجبت :

ـ ما قلته في مقالي الذي أشرت إليه هو أنه ربما كان من بين البواعث التي حَدَتْ بالنبي عليه الصلاة والسلام إلى أن يوجه أكثر من نصف عدد المسلمين وقتها إلى الهجرة إلى الحبشة (رغم ما قيل من أن الاضطهاد الذي تعرّضوا له هو الباعث الوحيد على هذه الهجرة) ، رغبته في السّعي إلى كسر الاحتكار التجاري الذي فرضه الأثرياء من تجار مكة ، بأن يبحث هؤلاء المسلمون عن

طريق آخر للتجارة غير خاضع لسيطرتهم . ودعمت افتراضي هذا بحجّتين : الأولى : أن جُلّ مهاجرة الحبشة كانوا من أفراد الجماعات الداخلة في حلف الفضول ، والثانية : أن عدداً منهم بقي في الحبشة حتى بعد هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة وانقضاء ذلك الاضطهاد ، فلم يتركها إلى الحجاز حتى العام السابع من الهجرة . فأنت إذن ـ كعادة أمثالك ـ لم تناقش الحجج التي استندت إليها لتدحضها ، ولا التفت إلى وصفي لهذا الرأي بأنه افتراض ، ولا إلى كلمة ربما في بداية حديثي ، ولا إلى أني أقول إن الاضطهاد ليس بالسبب الوحيد للهجرة إلى الحبشة . وإنما استقر رأيك على أني ماركسي، وأني جعلت هجرة الصحابة إلى الحبشة من أجل هدف اقتصادي . وهذا مجرد مثل على ما تتمتعون به من « أمانة علمية » ، وعلى قدرتكم على الاستنباط .

ثم قل لي: كيف يتضح مما كتبته أنني أجرّد الدعوة الإسلامية من اتصالها بالوحي ؟ كيف ؟ ألا يمكن أن يقترن بالوحي بواعث اقتصادية وسياسية واجتماعية ؟ وماذا عما ورد في القرآن الكريم عن المطفّفين وعن أكل مال اليتامى وعشرات غير ذلك من أوجه المظالم الاقتصادية والاجتماعية السائدة وقتئذ . غير أنه في رأيكم أن كل من يشير إلى صراع طبقي لا بدّ أن يكون ماركسياً شيوعياً ، وأن فكرة الصراع الطبقي من الأوهام التي اختص ماركس بابتداعها . فإن رغب أحدكم في التأكد من حقيقة مذهبي وما إذا كنت شيوعياً أم لا ، فإني أحيله إلى مقالاتي في مجلة المصور ، التي أهاجم فيها الفكر الماركسي .

قال سادس :

ـ دافعت في محاضرتك عن البدعة ، وجعلتها مرادفة ومساوية لكلمة « جديد » ، وجعلت البدعة بمعنى الإبداع والاختراع . وليس أحد يجهل أن كلمة « البدعة » إذا أطلقت فمعناها البدعة في الدين ، وهو الإتيان بما يخالف النصوص الشرعية والإحداث في الدين ما ليس فيه ، لقوله صلى الله عليه

وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو ردّ » ، وقوله « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » . وجميع المسلمين يفهمون هذا المعنى إلا أنت ، فأنت تفهم البدعة بمعنى الجديد والإبداع والاستنباط والتجريب والاجتهاد ، وتهدف بشرحك الكلمة على هذا النحو هدم الدين من أساسه .

قلت :

ـ لو كلّفت نفسك بالنظر في « لسان العرب » لوجدت فيه : « بدع الشيء وابتدعه : أنشأه وبدأه واستنبطه وأحدثه . والبدعة كل محدثة وما لم يكن له مثال موجود . وفلان بِدْع في هذا الأمر : أي أوّل لم يسبقه أحد . وأبدعتُ الشيء : اخترعته لا على مثال » . فكان الأولى بك إذن أن تقول إن جميع المسلمين يفهمون معنى البدعة إلا حسين أمين وصاحب « لسان العرب » ، فهما يفهمان البدعة بمعنى الجديد والإبداع والاستنباط والاختراع . غير أني وجدت نفس المعنى في معاجم اللغة الأخرى . وأستبعد أن يكون ابن منظور وأصحاب المعاجم الأخرى قد قصدوا بشرحهم الكلمة على هذا النحو « هدم الدين من أساسه » .

سأل سائل من الصفوف الخلفية :

ـ ما رأيك في حديث الذبابة ؟

ـ حديث الذباب هذا الذي أصبح الآن من أكثر الأحاديث تردداً على الألسنة منذ أن دافع البعض عن صحته في برامج تيليفزيونية في مصر ، مؤكدين نسبته إلى النبي ، هو :

« إذا وقعت ذبابة في شراب أحدكم فليغمسها ثلاثاً ، فإن في أحد جناحيها سمّاً وفي الآخر شفاء » . وقد ورد في صحيح البخاري وسنن ابن ماجة عن أبي هريرة .

وسأكتفي هنا بأن أذكر ما أورده ابن قتيبة في كتابه « تأويل مختلف الحديث » ، من ردود أصحاب الكلام وأصحاب الرأي على رواة مثل هذه الأحاديث . قالوا إن رواية هؤلاء للسخافات تبعث على الإسلام الطاعنين ، وتُضحك منه الملحدين ، وتزّهّد من الدخول فيه المرتادين ، وتزيد في شكوك المرتابين ، كروايتهم في عجيزة الحوراء في الجنة أنها ميل في ميل ، وفيمن قرأ سورة كذا وكذا ومن فعل كذا وكذا أسكنه اللّه من الجنة سبعين ألف قصر ، في كل قصر سبعون ألف مقصورة ، في كل مقصورة سبعون ألف مهاد ، على كل مهاد سبعون ألف كذا ، وكروايتهم في الفأرة أنها يهودية ، وأنها لا تشرب ألبان الإبل كما أن اليهود لا تشربها ، وفي الغراب أنه فاسق ، وفي السنور أنها عطسة الأسد ، والخنزير أنه عطسة الفيل ، وأن الضبّ كان يهودياً عاقاً فمسخ ، وأن الوزغة كانت تنفخ النار على إبراهيم ، وأن الأرض على ظهر حوت ، وأن أهل الجنة يأكلون من كبده أول ما يدخلون،وإذا وقع الذباب في الإناء فامقلوه فإن في أحد جناحيه سماً وفي الآخر شفاء ، مع أشياء كثيرة يطول استقصاؤ ها .

ثم يضيف أصحاب الرأي قولهم :

« لقد قنع هؤلاء من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه ، ورضوا بأن يقولوا فلان عارف بالطرق وراوية للحديث. وكلما كان المحدث أُمْوَق ، كانوا به أوثق ، وإذا ساء خلقه وكثر غضبه واشتدت حدّته تهافتوا عليه » .

ـ ولكن علماء من ألمانيا الغربية أثبتوا صحة حديث الذبابة هذا !

قلت :

ـ كيف ؟ متى ؟ من ؟ وما هو بالضبط نصّ ما قالوه ؟

ـ لا أذكر .

ـ ولا أنا .

قال ثامن :

ـ تكرّر دوماً في كتاباتك القول بأن الأخذ بروح الإسلام ، لا الالتزام بأحكام معينة متناثرة ، هو الكفيل بأن يكون بمثابة البوصلة التي تهدينا سواء السبيل ، في أي مكان أو زمان كنا فيه . ما الذي تعنيه بالضبط بهذا القول ؟

قلت :

إسمع مني هذه القصة :

قيل إنه لما استأذن أبو نواس خلفاً الأحمر في نظم الشعر ، قال خلف له :

ـ لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة .

فغاب عنه أبو نواس مدة ثم حضر إليه فقال :

ـ قد حفظتُها .

فقال له خلف الأحمر : أنشدها .

فأنشده أكثرها في عدة أيام . ثم سأله أن يأذن له في نظم الشعر ، فقال خلف :

ـ لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها .

فقال له :

ـ هذا أمر يصعب عليّ ، فإني قد أتقنت حفظها .

قال خلف :

ـ لا آذن لك إلا أن تنساها .

فذهب أبو نواس إلى مكان قصيّ خلا بنفسه فيه ، وأقام مدّة حتى نسيها . ثم حضر فقال :

ـ قد نسيتها حتى كأني لم أكن حفظتها قط

فقال له خلف :

ـ الآن انظم الشعر !

فكِّر في هذه القصة طويلاً قبل أن تأوي الليلة إلى فراشك ، وستفهم ما أعنيه .

(للحديث بقية)

رسالة أمريكا (٣)

١٣
في عرين الأسد

أقام القنصل المصري في هيوستون ، عقب انتهاء الندوة ، حفل عشاء دعا إليه أفراد الجالية المصرية في ولاية تكساس ، من مسلمين وأقباط . والقنصل فؤاد يوسف صديق حميم لي منذ أمد بعيد ، أقوى ما جذبني إليه هو إسلامه العميق السمح ، ورحابة صدره ، وسعة أفقه ، ثم ما لمسته من خلال عملي معه من سعي لا يكل ولا يمل ، وفي كل بعثة دبلوماسية عمل بها ، إلى التقريب بين المسلمين والأقباط من أبناء الجاليات المصرية في الخارج . غير أنه لم يجد في أي مكان من العقبات التي تعترض هذا السبيل ما وجده منها في تكساس .

همس في أذني وهو يصافحني مستقبلاً عند باب داره :

ـ ستدخل الصالون فتجد الأقباط قد انتحوا منه ناحية ، والمسلمين ناحية . أرجوك أن تساعدني على لأم هذه الفُرقة والمزج بينهم .

ودخلت فحييت . ومضيت لتوّي إلى ناحية القبط فجلست بينهم . وكلما أتاني بعد ذلك مسلم يصافحني أو يعلّق على محاضرتي ، أفسحت له مكاناً إلى جواري ، أو أشرت إليه أن يجلس في مكان قريب مني بين القبط . فما كدت أنجح بعض الشيء في مهمتي ، حتى قام أحد المسلمين في الناحية

الأخرى من مقعده متوجهاً إلى ردهة البيت الخارجية ، يملأ المكان كله بأذان المغرب .

ونظرت ، فإذا المسلمون كافة قد نهضوا من فورهم للوضوء والصلاة ، تاركين الصالون للأقباط وحدهم مع ما خلّفوه من أحذية . ونظر إليّ القنصل نظر المستغيث اليائس لا يدري ما يفعل ، حتى أخذه أحدهم من ذراعه إلى الخارج ليؤم المصلّين .

وبقيت أنا في مكاني بين الأقباط وقد تجهّمت منهم الوجوه .

وعاد أحد المسلمين من الردهة يسألني :

ـ ألن تصلي المغرب معنا ؟

ـ لا .

ـ لا ؟

ـ أصلّيها في الفندق حين أعود .

ـ سيكون وقتها قد فات .

ـ أصليها إذن مع العشاء .

ـ هكذا بكل بساطة ؟

قلت : يحكى أن المبرّد كان يلقي درساً في النحو ، حين قام أحد تلاميذه يجمع كتبه وكرّاساته ويهمّ بالخروج . سأله المبرّد : إلى أين ؟ قال : قد حان موعد الصلاة . فردّ عليه المبرّد قائلاً : يا هذا ! ليس ما قمت لأجله بأفضل مما نحن فيه .

ـ لم أفهم .

ـ ما عليك !

ـ أهناك ما هو أفضل من أداء الصلوات في أوقاتها ؟

ـ نعم . حب خلق الله واحترام مشاعرهم .

ـ من قال هذا ؟
ـ أنا .
ـ تفتي في الدين ؟
ـ أجتهد .
ـ غفر الله لك .
ـ ولكم .
ونحّيت وجهي عنه ، أصل حديثي الذي انقطع مع الإخوة الأقباط .

* * *

عدت إلى حجرتي بالفندق في العاشرة . فما كدت أخلع حذائي حتى دق جرس التليفون .

ـ خمسة أشخاص ينتظرونك ببهو الاستقبال يا سيدي .
ـ من ؟
ـ لم يذكروا أسماء . يقولون هم أصدقاء لك .
ـ سأنزل إليهم حالاً .

وعدت إلى ارتداء حذائي ، ثم نزلت . فما انفتح باب المصعد عند الطابق الأرضي وخرجت منه ، حتى فوجئت بالخمسة ينتظرونني على بعد خطوات قليلة منه : أمير اللواء الإسلامي في هيوستون وأربعة ممن وجّه إليّ الأسئلة والإهانات في جلسة الصباح . كلّهم ملتحون ويرتدون الجلاليب .

وتوقّفت لحظة في مكاني أرمقهم ، فإذا هم يتقدّمون نحوي وقد مدّ كبيرهم يده لمصافحتي . فما أخذ يدي حتى شدّني منها إليه ليعانقني في حرارة . وحذا الباقون حذوه في المصافحة والعناق .

ـ يا أخ حسين ، نحن مدينون لك بالاعتذار والإيضاح لما بدر منا هذا الصباح . كلنا إخوة في الدين ولا نسعى إلا لخدمة الإسلام . فإن لم تكن

مرهقاً وقبلت الدعوة للحديث ساعة أو ساعتين بمنزلي مع هؤلاء الإخوة وغيرهم ، فسيكون ذلك من دواعي سعادتنا جميعاً .

ـ الآن ؟

ـ إذا تكرّمت .

ومضيت معهم .

* * *

فتحت لنا الباب طفلة في السادسة ، هي ابنة صاحب الدار ، ترتدي جلباباً طويلاً ذا أكمام طويلة وتغطي شعر رأسها كله بطرحة بيضاء . تأملت وجهها البيضاوي الوديع وهي تقدم لنا أكواب الشاي بالنعناع . وجه لم تفلح الطرحة نفسها في أن تنتقص من جماله . وناولتني كوبي وهي تبتسم : « تفضل يا عمي » . ربّاه ! ماذا يصنعون بهذه الفتاة ؟ ماذا يصنعون بالجيل القادم كله من المسلمين ؟

وجلسنا في دائرة على الحشايا المطروحة على أرض الغرفة .

ـ يا أخ حسين ، سأحاول أن أجعل حديثي موجزاً قدر الإمكان . لقد قرأنا كتابك « دليل المسلم الحزين » ، وقرأنا مقالاتك في « المصور » واستمعنا إلى محاضرتك . وقد يدهشك أن تعلم أننا متفقون وإياك بصدد الكثير من النقاط ، خاصة فيما يتصل بالتصوف وتقديس الأولياء . بل وربما أيضاً بالأحاديث الموضوعة . وقد سرني أن أجدك معجباً وشديد التأثر بكتابات ابن تيمية وابن قيم الجوزية . غير أني ، واسمح لي هنا أن أتكلم بصراحة ، أرى أن كتاباتك ، حتى مع صدقها ، تحدث من الضرر أكثر مما تحدث من نفع ، وأنك ، ولا تؤاخذني على هذه الكلمة ، مخرّب .

وانتظر لحظة كي يرى في وجهي أثر كلمته ، فلما وجده على هدوئه مضى يقول :

ـ مثل هذه الكتابات التي تكتبها لا يخاطب بها غير الفقهاء المتبحرين في الدين ، ولا ينبغي أصلاً أن تنشر على العامة وجمهور المؤمنين . جمهور المؤمنين لا يقرأون ، ولا يفكرون . لا طاقة لهم بذلك وليس بوسعهم أن يبذلوا الجهد ولو أرادوا . ثم لتعلم أنه بيننا هنا عدد غير قليل من الزنوج الأمريكيين حديثي العهد بالإسلام ، لم يسمعوا غير أول أمس باسم البخاري . ثم تأتي فتريد أن تشككهم في بعض ما ورد في صحيحه بعد أن رسخت في أذهانهم ضرورة احترامه ؟ إننا لا نشك في صحة إسلامك أو في سعة علمك . غير أننا نشك في صلاحيتك لتعليم العامة . فأنت كالدّبّ الذي أراد أن يطرد الذبابة عن وجه صاحبه النائم ، فرماها بصخرة قتلته وإيّاها . . هنا أناس قضينا دهراً في محاولة القضاء على استخفافهم بالدين ، فما أفلحنا إلا مؤخراً ، وبعد جهد جهيد ، في أن نقنعهم بالتردد على المسجد للصلاة ، وبالنظر في القرآن والحديث . هم كالنُّبت الجديد في حاجة إلى أعواد خشبية تسنده حتى يصلب عوده ويستقيم . ثم تأتي أنت فتحدثهم حديث الفقيه إلى الفقيه ، حديث الرجل الناضج إلى الرجل الناضج ، غير آخذ في الحسبان أنهم لا يزالون بعد أطفالاً . تريد أن تعامل النُّبت الجديد على أنه دوحة عظيمة ، فتزيح الأعواد الخشبية وتعرّضه للرياح . . ما هكذا تصلح الأمور يا أخ حسين . ما هكذا تصلح الأمور .

ورآني مبهوراً بسلامة منطقه ، فازداد تحمساً وقد انبسطت أساريره غبطة :

ـ قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ليس من الأحاديث الموضوعة ! ، : « ما أحد يُحدّث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم ، إلا كان فتنة على بعضهم » . . فلكل مقام إذن مقال يا أستاذ حسين ، ولكل طبقة من الناس معلّم . وأنت بعلمك إنما تصلح لتعليم من يتولّون تعليم العامة . أما أن تقوم أنت مباشرة بتعليم العامة ، وكتابة الكتب والمقالات في الصحف والمجلات السيّارة ، فلا يمكن أن يؤدي إلا إلى كارثة محققة . لهذا فقد

حاولنا ، وفشلنا ، أن نمنعك من إلقاء المحاضرة . غير أننا صادرنا كتابك وسحبنا نسخه من معرض الكتاب . . حاولنا منعك وصادرنا كتابك ونحن نعلم حق العلم أننا في حاجة إليك ، وأن الإسلام اليوم في حاجة إلى بعض أفكارك . غير أننا لن نسمح لهذه الأفكار بأن تصل إلى العامة إلا عن طريقنا نحن ، وبالدرجة التي نحدّدها نحن .

قلت وقد برقت في ذهني ذكرى ما قرأته عن محاورة رجال الكنيسة لمارتن لوثر في أوجسبورج عام ١٥١٨ وفي ليزيج عام ١٥١٩ :

ـ تريدونها إذن كنيسة في الإسلام ؟

ـ سمّها ما شئت . فنحن وأمثالنا حماة هذا الدين من خطرك وخطر أمثالك . . وقد كتبت أنت نفسك في إحدى مقالاتك أن الناس متفاوتة عقولهم ، وأن الله قد خلقهم أطواراً ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وأن جرعة الدواء التي تشفي الكبير قد تقتل الصغير . . . ومع ذلك فها أنت تشكك الناس في الحديث ، وتشككهم في الشريعة ، وتشككهم في السلف الصالح ، وتشككهم في السيرة ، وتشككهم في المذاهب ، وتشككهم في الفقهاء ، وتشككهم في كتب التاريخ الإسلامي . فما بقي إذن من الإسلام لم تشكك فيه ؟ أيمكن حقاً أن تسمي هذا غيرة على الدين وأنت تُعمل فيه معاولك وتريد أن تسلّم البناء لشبابنا حطاماً وأنقاضاً ؟

ثم تحوّل فجأة عن لهجته إلى لهجة مسالمة :

ـ غير أني أكرر قولي مع ذلك إنه لا تخامرنا ذرّة شك في حقيقة إسلامك وصدق نيتك . كل ما أريد قوله هو : « ما هكذا يا سعد تورد الإبل ! » فلتقلع عن الكتابة والنشر ، ولتكتف بالحديث إلى الفقهاء والمشايخ . فإنك بما تكتب تقدّم « المستندات » الموثّقة من شهر عقاري التاريخ للذين يجاهدون ما أوتوا لعزل الإسلام عن الساحة في الغد ، كما عزلوه عنها في الأمس واليوم . وثق أن أسعد الناس بما تكتب هم أعداء الإسلام ، وأن أبأسهم وأشقاهم بها

هم إخوانك في الدين الواقفون وإياك في خندق واحد ، وهم الذين يحسون بفداحة الخسارة أن يفقد الإسلام المضيع بين عجز الصديق وضراوة العدو ، مثل قلمك ومثل مقدرتك .

ودخلت الطفلة تعيد ملء أكوابنا الفارغة بالشاي الأخضر .

قلت : أَوَقَـدْ فرغت ؟
قال : نعم .
ـ فتأذن لي ؟
ـ تفضّل .
قلت :

ـ أودّ أولاً أن أشكرك على لهجة المصالحة التي تميّز بها حديثك ، وعلى دعوتك إيّاي لزيارتك في دارك ، وإن كنت لا أكتمك أنه قد خطر في ذهني هذا المساء المثل القائل : « يشتمني علناً ، ويعتذر إليّ سراً ! » ما علينا ! ما أريد أن أنبّه إليه باديء ذي بدء هو حقيقة أراها أبشع آثار المناقشة العنيفة البذيئة في الآراء الدينية ، وأخطر عواقب تكفير بعضنا لبعض والطعن في دين شخص ما ، ألا وهو احتمال إثارة كراهة الدين بأسره لدى المطعون في دينه بسبب قبح المسلك الذي ينتهجه الناس في النقاش . والسعيد من بين المطعون في دينهم هو من وفّقه الله سبحانه وتعالى منذ اللحظة الأولى إلى وضع حد صارم لهذا الاحتمال ، وإلى أن يضع نصب عينيه حقيقة أنه ليس ثمة أدنى صلة بين الدين السمح وبين غير السمحاء من المسمين عن جهل بعلماء الدين .

ثم أنتقل إلى مضمون حديثك واعتراضاتك . تقول إني لا أصلح لتعليم العامة ، وإنما لتعليم من يتولون تعليم العامة . ربما . ولكن قل لي بالله عليك : كيف يمكن تحقيق ذلك عملاً ؟ أن أصبح مدرساً لأئمة المساجد ، أم أن أنشر كتبي في طبعات محدودة من مائة نسخة توزّع باليد على من يعنيهم

الأمر ؟ أم أنكم تفضلون سكوتي ؟ إني أوافق على بعض حججك في هذا الصدد . غير أني لا أملك إلا أفكاراً تلحّ عليّ ، وقلما يسطّر هذه الأفكار على الورق . فما عساي أصنع بها ؟ فأما أن أنقطع عن الكتابة فهيهات ! لا لأني لا أتقن صنعة غيرها ، أو لأنها مصدر رزقي وقوت زوجي وبناتي الثلاث ، وإنما لأني أكره وأمقت وأستفظع ولا أطيق أن يكون للإرهابيين أثر في مجرى سلوكي في الحياة ، ويد فيما أقدم على فعله أو أحجم عن الإتيان به .

ثم إني وقد جاوزت الخمسين ، أجد في الكتابة وحدها تلك الراحة التي يجدها العليل في الفصد . لقد قضيت جلّ سني حياتي في التأمل في حقيقة الدين ، والبحث عنها في كتب الأقدمين والمحدثين . وقد لبثت عمراً قانعاً بأن أحتفظ لذاتي بثمار تفكيري وقراءاتي ، ظاناً أنه حسبي أن أصل إلى حلول لما يشغل بالي من مشكلات ، ويقض مضجعي من التساؤلات . وما دار بخلدي طوال تلك السنوات أن الوقت سيجيء الذي أشعر فيه بأن احتفاظي لنفسي بالثمرة دون الغير ، إن هو إلا عبء أثقل على الكاهل وأعصى على الاحتمال من المشكلة ذاتها ، حين كانت تجعل من فراشي فراشاً كخرط القتاد .

وإنه لتشبيه جدّ أريب ذلك الذي وقع عليه نيتشه إذ يقارن في افتتاحية « هكذا تكلم زرادشت » ، بين زرادشت في سن الأربعين والنحلة التي جمعت من العسل أكثر مما يسعها حمله ، فباتت بحاجة إلى الأيدي تمتد لتأخذ منه . وقد كنت دائماً، ولاأزال، أفسر قولة المسيح عليه السلام : «بع ما تملك واعط الفقراء » ، على أنها تستهدف صالح بائع ما يملك لا صالح الفقراء ، بدليل قوله قبلها : « لكي تكون كاملاً » .

لقد استشهدت في حديثك بقولة صدق قالها رسول الله . وأستشهد من جانبي بقولة صدق أخرى له ، وهي : « ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه

من الميثاق ما أخذ على النبيين ؛ أن يبيّنوه للناس ولا يكتموه » . أو كما قال الشاعر العربي :

العلم ينهي أهله　　أن يمنعوه أهله

خلاصة القول أني سأجد نفسي دوماً مدفوعاً إلى الكتابة دفعاً ، ولن يفلح هجوم رجعيين ممن ارتبطت مصالحهم الدنيوية بالانتصار للجمود الفكري في مجال الدين ، في إسقاط القلم من يدي ، أو في إرهابي إلى الحد الذي أوثر معه السلامة، وإغاظتي إلى الحد الذي أختار معه الصمت ، ملقياً تبعته وتبعة ذلك الشلل الذي أصاب حياتنا الفكرية على تلك الفئة الباغية التي لا تجد الراحة إلا في إخراس صاحب كل فكر جديد . ولا أكتمك أني في لحظة ضعف ، بعد قراءتي لمقال بذيء من مقالاتهم ضدي ، تفوّهت بما يفيد أني قد اتخذت مثل هذا القرار اليائس البائس ، فإذا بابنتي التي لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر تقول في دهشة بريئة ردّتني على الفور إلى صوابي : « أهكذا بسرعة ؟ » . فأقسمت لها ، حتى أستعيد احترامها لي ، أني لن أفعل .

إني أتفق معكم في رأيكم في العامة ، بل وأذهب إلى أبعد مما تذهبون ، فأقول إنهم يشكّون دوماً فيمن يفكر في أمر الدين بنفسه وبجدّية شديدة ، وأن المتدين عندهم هو من يشاركهم معتقداتهم وأوهامهم دون مناقشة . هم يخافون نعمة الحرية . يريدون عالم دين يودعونه ثقتهم الكاملة ثم يدعونه يفكر نيابة عنهم فيعفيهم من مهمة التفكير الشاقة . وتضحي الملايين المسحورة على استعداد لأن تهب نفسها له حتى ينتهك أعراضها الفكرية ، وتهتف به : « إيماننا بك أقوى من إيماننا بشهادة أعيننا » ! إن ما يحدث في مجتمعنا اليوم لا يعدو أن يكون « هاراكيري » ذهنية ، عملية انتحارٍ فكريّ جماعي . وكلما تمادى معلّمهم في اعتدائه على أعراضهم ، عظم استعدادهم لإعطائه المزيد . فالحرية التي يزعمون أنها أغلى ثمرة ،

ويتشدّقون بأنها أعظم متعة ، قد طرحوها تحت أقدام دجّالين يقبضون على نواصيهم ، مقبّلين الأيدي التي تمسك بخناقهم .

هؤلاء الدجّالون ، دون استثناء ، ما شهدوا هذا السلطان الذي بات في أيديهم ، حتى أساءوا استخدامه وسعوا إلى توسيع نطاقه . فبدلاً من أن يهنّئوا أنفسهم على تمكّنهم من إقناع الآلاف والملايين بأوهامهم وخرافاتهم ، ومن حسب اتباعٍ هم على أتم استعداد لبذل دمائهم في سبيل قضيتهم، باتوا لا يرضون إلا بأن تذعن لهم الكافة ، لا الغالبية فحسب ، ولن يهدأ خاطرهم حتى تخضع القلة الحرة المستنيرة لهم ويستعبدوها . فإذا الرأي المخالف وقد كفّروه ، والفكر الحر وقد جرّموه ، والالتزام بالمنطق وحده وقد حرّموه . وإذا المثالية التي بدأوا بها حياتهم ، والرغبة الصادقة في خدمة الدين ، قد استحالتا إلى وحشية صرفة ، وإلى عطش لا يرتوي إلى المزيد فالمزيد فالمزيد من السلطة والجاه .

وينسى هؤلاء أو يتناسون أن أنقى الحقائق وأطهرها وأنصعها ، لو فرضت فرضاً على من لم يقتنع عقله بها ، تنقلب إلى خطيئة وبهتان . وهذا بالضبط هو معنى الآية القرآنية الكريمة ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ .

هذه الأقلية الصغيرة النشطة من الدجالين بوسعها إخافة الأغلبية بإظهارها قدرتها على استخدام الإرهاب ، واستعدادها لتكفير المخالفين ، ما دامت الأغلبية هي من الجبناء المتهاونين . وعلى من يتصدّى لأمثال هؤلاء أن يعلم أنه إما أن يكسرهم أو يكسروه ؛ إما أن يتصدّى لهم بكليته أو أن يذعن لهم بكليته . أما أنصاف الحلول هنا فلا طائل وراءها .

رأيت المسلمين حولي يتساءلون، وقد اعتصر قلوبهم الألم، كيف تحوّل حال أمتهم من القمة إلى الحضيض ، وكيف استحال النور الساطع الذي شهدته في مستهل تاريخها ظلاماً حالكاً . ورأيت رسالتي في الحياة أن أعطي

هذا السؤال جماع فكري وجهدي . وقد توصلت إلى عدد من النتائج أحسست بأنه من واجبي أن أصرح به . وظننت أني سأقابل بتأييد من البعض ، واعتراف بالجميل من البعض . فإذا بي وقد دلفت إلى حلبة مبارزة خطرة غير متكافئة ، ومعركة لا هوادة فيها أخوضها مجرداً من كل سلاح عدا القلم ، ضد عصابة من الغوغاء مسلحة بالقلم والرمح معاً . وكما يحدث دائماً في الأزمنة التي يسود فيها التعصب الديني وضيق الأفق ، وجدت نفسي في عزلة مهولة وسط أغبياء معربدين ، لا يساندني أحد ، ولا ينبري للدفاع عن موقفي قلم . بل إنه حتى من كان من المستنيرين ، متعاطفاً معي ، مشاركاً لي في الرأي ، مؤيداً لقراري أن أتصدّى لقوى الظلام ، التمس لنفسه السلامة بالامتناع عن خوض المعركة الخطرة في جانبي ، وآثر أن يقتصر على الإسرار إليّ بكلمات التشجيع ، والتعبير لي ، وهو يتلفت حذراً يمنة ويسرة ، عن مشاركته لي في اعتقادي .

المثقفون في بلادنا يعرفون الحق معرفتهم لأبنائهم ، بيد أنهم على غير استعداد للجهاد من أجله . يكتفون بالشكوى وراء أبواب مكتباتهم الموصدة من أنهم باتوا يعيشون في حقبة من الجنون الجماعي الذي ينتاب عالمنا الإسلامي من آن لآخر ، ويحمدون الله أن قد تمكنوا من أن يقوا عقولهم شر الأوهام والدجل . غير أنه ما من حجة ستقنعهم بأن يبرزوا لتحدي ضيقي الأفق من الإرهابيين ، وأن يقحموا أنفسهم في لجّة الصراع متلاطمة الأمواج . يقولون : « لدينا ما هو أجدى وألذّ من محاولة التصدي لكلب مسعور ، وخير للعاقل أن يظل في خلفية الصورة حتى لا يكون أحد الضحايا . وهناك على كل حال من خرج لمواجهته . فلننتظر النتيجة » .

ولن أنسى ما حييت يوم زارني أحد الأدباء المعروفين يبدي تأييده المطلق لما أكتب . فلما سألته عما يحول دون خوضه المعركة وهو المؤمن بقضيتنا ، أجابني : « والله لولا عيال لي أخشى عليهم التشريد بعدي

لفعلت » . قلت : « مرّ سفيان الثوري على شيخ كوفي من المنافقين للسلطة . فقال له سفيان : يا شيخ ، ولي فلان الإمارة فخدمته ، ثم عزل وولي فلان فخدمته ، ثم عزل وولي فلان فخدمته ، وأنت يوم القيامة أسوأهم حالاً . فقال الشيخ : فكيف أصنع يا أبا عبد الله بعيالي ؟ ! قال سفيان : اسمعوا هذا ! يقول إنه إذا عصى الله رزق عياله ، وإذا أطاع الله ضيّع عياله ! ثم قال : لا تقتدوا بصاحب عيال ، فما كان عذر من عوتب إلا أن قال عيالي !

فإن قال هؤلاء إنه ما من فرصة كبيرة في النجاح أمام رجل لا يملك من القوة غير قوة إيمانه بمعتقده ، يقف وحده في مواجهة منظمة قوية قد فرضت إرهابها ، لا تحاول الردّ وإقناع العقول وإنما تسعى إلى إخراس الألسن وقمع الفكر ، أجبتهم بأن ثمة في كتب التاريخ ما يعزّي هذا الرجل ويشدّ من أزره : وهو أنه ما من معركة انتصر فيها رجال الدين في مراحلها الأولى ، إلا خسروها في مرحلتها الأخيرة . ألم يكفّروا الطباعة ؟ ألم يكفّروا الإذاعة ؟ ألم يكفّروا مكبرات الصوت ؟ فهم اليوم يدفعون بكتبهم إلى المطابع ، ويذيعون مواعظهم في الراديو والتليفزيون ، ويستعينون في إذاعة القرآن الكريم بمكبرات الصوت .

* * *

وقطع حديثي قرع خافت على باب الغرفة . إنها الزوجة المحجّبة في غياهب الدار ، تُعلم مضيفنا بأن وجبة خفيفة قد أُعدّت للضيوف . وإذ أشار إلينا أمير اللواء بحركة من يده أن ننهض معه ، قلت بسرعة منهياً لكلامي :

ـ خلاصة القول أنكم إن شئتم إسكاتي فهيهات . وإن شئتم إرهابي فهيهات . وإن شئتم الجدال المهذّب الذي أوصانا القرآن الكريم به ، فإني « معكم للصبح » كما يقولون .

ثم تبعناه إلى حجرة الطعام .

(للحديث بقية)

رسالة أمريكا (٤)

١٤

الاتّجار بالدِّين

. . . وبعد أسبوع من منع عرض مسرحيتي « طرطوف » ، مثّلوا في القصر مسرحية أخرى هي « شكاراموش الراهب » . وإذ تهيّأ الملك للانصراف بعد انتهائها ، التفت إلى أحد كبار النبلاء قائلاً له : « أولئك الذين أغضبتهم مسرحية موليير ، لِمَ لَمْ ينبسوا بكلمة واحدة ضد مسرحية سكاراموش » ؟ فأجاب النبيل : « السبب هو أن مسرحية سكاراموش تسخر من الدين ، وهؤلاء السادة المتاجرون بالدين لا يهمّهم الدين في شيء . أما مسرحية « طرطوف » فتسخر منهم هم ، وهو ما ليس بوسعهم أن يقبلوه » .

ـ من مقدمة موليير لطبعة عام ١٦٦٩ لمسرحية « طرطوف »

طيران طويل الأمد فوق مساحات شاسعة من الصحاري الجرداء . ثم نتطلع من شباك الطائرة فإذا الصحراء القاحلة تنتهي فجأة عند دائرة عظيمة خضراء هي مدينة لوس أنجلوس ، تبدو من الجوّ كبقعة كبيرة من الحبر الأخضر على ورقة غبراء . وألتفت إلى جارتي الأمريكية أسألها كيف عجزت الصحراء عن ابتلاع هذه الخضرة .

ـ ستكتشف السرّ بنفسك بعد يوم واحد أو يومين من تجوالك بالمدينة . ستری فيها الحدائق الخضراء متتالية دون انقطاع . خضراء صيف شتاء . قد تلحظ مرشّات الماء في كل منها ترش الماء بحركة دائرية في كل اتجاه ، صباحاً ومساء وبغير توقف . غير أن الغالب أنك ستنسى أمرها فتحسب الخضرة نتاجاً طبيعياً للأمطار . ثم تدهش حين تعلم أن المنطقة لا تكاد تعرف المطر في أي من فصول السنة ، وأن هذه الخضرة المترامية كلها هي بفضل ريّ الإنسان الدائم الدائب لها . ويظهر لك الدليل بعد ذلك حين تمرّ بأرض مهجورة دون بناء أو زرع ، قد تركها صاحبها على حالها على أمل ارتفاع سعرها فيبيعها ، فإذا هي قطعة من الصحراء في جفاف الموت ، لا نبت فيها غير أشواك وأعشاب مدببة كالإبر . حينئذ تدرك مصير هذه الخضرة العظيمة لولا جهد الإنسان ، وتدرك أن الصحراء إنما تحيط بها متربّصة في انتظار بادرة غفلة أو إهمال ، حتى تطيح بها كما يطيح قرنا الثور بمصارعه الذي أدار له ظهره كي يردّ تحية الجمهور .

هذه الكلمات القليلة التي سمعتها من جارتي الأمريكية كان من المقدر لها أن تكون أوفى تلخيص وأبلغه لما رأيته من حال الإسلام في ولاية كاليفورنيا خلال إقامتي بها التي امتدت ثلاثة أسابيع .

ولمعت عينا المرأة وقد خطرت فجأة في ذهنها فكرة :

ـ ألا ترى معي كيف ينطبق هذا المثل على علاقة عقل الإنسان بغرائزه ، وعلى علاقة المدنية الحديثة بالطبيعة الأصلية للإنسان ؟ إنه مهما بلغ العقل وبلغت المدنية من رفعة الشأن ، فهما مجرد قشرة رقيقة هشّة فوق بركان عظيم يتأهب لأن يقذف بحممه . فإذا القشرة وغير القشرة وقد أطاحت بهما الحمم وجرفتهما أمامها في مثل لمح البصر . أليس هذا بالضبط هو ما حدث في ألمانيا المتحضرة وقت هتلر ؟ وفي الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية وفي فتنة المكارثية ؟ وعندكم ؟ ألم يحدث شيء من هذا القبيل في بلادكم أيضاً ؟

وحاولت أن أفكر في قشرة عندنا تغطي فوّهة البركان فلم أوفّق . غير أني هززت رأسي مؤمّناً على كلامها ، ولم أخبرها أن الحمم في بلادنا متواترة لا تنقطع ، ولا يعترض سبيلها شيء .

ـ من أي بلد أنت ؟

ـ من مصر .

ـ أقادم إلى لوس أنجلوس في عمل ؟

ـ لإلقاء محاضرات في الإسلام بدعوة من المراكز الاسلامية بولاية كاليفورنيا .

ـ آه ! فأنت إذن واحد من هؤلاء !

ـ واحد من هؤلاء ؟!

قالت وهي تضحك :

ـ لا تؤخذني ، إنما أنا أمزح . فالاتجار بالدين قد أضحى اليوم من أكثر المهن إدراراً للربح في الولايات المتحدة ، والكثيرون من الأمريكيين قد أداروا ظهورهم لأعمال المقاولات والإنشاءات ومضاربات البورصة وغيرها إذ رأوها غير مجزية ، واتجهوا إلى الاتجار بالدين سعياً وراء تكوين الثروات الطائلة . . . لا بدّ أنك قد سمعت عن صن ميونج مون وكنيسته . هو رجل أعمال من كوريا الجنوبية ، كان على علاقة وثيقة وهو بعد في كوريا بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية . ثم جاء إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ ليؤسس فيها ديناً جديداً يعرف باسم « كنيسة التوحيد » ، وطلع على الناس بكتاب زعم أنه سماوي ، هو « المبدأ الإلهي » . هذا المبدأ هو أن الله نجم عن اتحاد قُوى الذكورة والأنوثة ، وأن المسيح قد فشل في رسالته إذ مات قبل أن يتزوج ، وبالتالي فقد صار من المحتم إرسال مسيح آخر . وسيأتي المسيح هذه المرة من كوريا ، إسرائيل الجديدة ، ويكون عام مولده هو ١٩٢٠ ، (وهو بالمصادفة العام الذي ولد فيه صن ميونج مون !) ، وما تقسيم كوريا

إلى دولتين متصارعتين غير تعبير عن الفرقة بين عالمين : عالم الظلام والشر ، وعالم النور والخير .

لهذا الرجل من الأتباع اليوم حوالي مليونين ، وله من الدولارات أضعاف أضعاف هذا العدد ، جمعها من ريع كتبه الهزيلة التي يقبل المؤمنون إقبالاً نهماً على شرائها ، ومن فوائد المبالغ التي يودعها البنوك ، ومن أرباح شركاته التجارية ومطاعم « البيتزا » التي يمتلكها والمنتشرة في جميع أنحاء الولايات المتحدة . وقد شجّع نجاحه ونجاح چيم چونز في جيانا الغير على أن يحذوا حذوهما . ذلك أنه من السهل على المرء في الولايات المتحدة إن ظهر بدين جديد ، أي دين مهما كانت سخافة تعاليمه ، أن يجمع حوله ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة . أُدْعُ إلى عبادة النمل ، أو عبادة النّحل ، واشهد بعظمة الخنازير ، أو حكمة العصافير ، أو قل إنك يوشع قد بعثت من الموت ، أو يوحنا المعمـدان موفداً من الله في مهمة ، وستصدّقك في أمريكا الألوف . حينئذ تُعفى ويُعفى أتباعك من التجنيد إن قلت إن عبادة النمل تأباه ، ويُعفى دخلك من الضرائب إن ذكرت أنه مخصص لنشر تعاليم الإله . وحينئذ يكون بوسعك استغلال الدخل في أوجه النشاط التجاري بدعوى الرغبة في الاستفادة من هذا الاستثمار من أجل إطعام الخنازير ، أو تربية العصافير ، فتعفى أرباحك أيضاً من الضرائب . فإن التف حولك ما لا يقل عن ألفين من الأتباع ، (وهو أمـر يسير بالنظر الى تهافت الأرامل بالذات على الانضمام إلى مثل هذه الجماعات)، صرت قوّة مؤثرة في الحياة السياسية الأمريكية : تخـطب الأحزاب ودّك ، وتسعى الحكـومة إلى كسب رضـاك بمنحـك الامتيازات ، ومساعدتك على إنجاز مصالحك ، حرصاً منها على أن يصوّت أتباعك في جانبها في الانتخابات المقبلة ، فإذا بك وقد غـدوت مليونيراً في مثل لمح البصر . فإن ساءك تصرّف من قبل الحكومة أو إحدى الهيئات ، فاصرخ مدعياً الاضطهاد الديني ، وارفع شكواك من الظلم والتمييز الى القضاء ، وسترى الكافة يتهافتون على ترضيتك ومنحك كل ما ترنو إليه وأكثر .

الشي الوحيد المطلوب لتحقيق كل هذا هو أن تجتذب من الأتباع ألفين . كم عدد أتباعك في مصر ؟

ـ عدد أتباعي ؟!! هممم . . . خمسة .

ـ حاول أن توصل العدد إلى ألفين ، وستصبح قوة مؤثرة في السياسة المصرية ، يعمل حسابك الرئيس مبارك ، وتعفى من الضرائب . . . أم أنه ليس عندكم مثل هذا الاتجار بالدين ؟

ـ ليس عندنا اتجار بالدين ؟!! ليس عندنا شيء إن لم يكن عندنا اتجار بالدين !

ـ جميل . ولكن حاول أن تبتدع ديانة من النوع الذي يستهوي مخيلة الجماهير ، وأنت أدرى بطبيعة الشعب عندكم .

ـ من الصعب إقناع الشعب عندنا باتباع دين جديد غير الإسلام .

ـ فما يصنع المتاجرون بالدين إذن ؟

ـ وسائلهم شتى . أكثر في الواقع من أن تقع تحت حصر . ولكن كلها في إطار الإسلام .

ـ مثل ؟

ـ بعضهم يلجأ إلى التظاهر ردحاً من الزمان باعتناق الماركسية ، يناصر الإلحاد ، ويهاجم الأديان كلها باعتبارها أفيوناً للشعوب . وفجأة ، يعلن على الملأ اهتداءه إلى الحق (ودقّي يا مزّيكة !) وأنه بعد حلم رآه ، أو مرض خطير اعتراه ، تعمّق في القراءة عن الإسلام ، فبدّدت قراءاته ما اكتنف عقله من أوهام ، فإذا بالحقيقة تبدو سافرة جلية أمام عينيه ، وبهاتف يدعوه إلى التوبة يملأ أذنيه ، ثم إذا به ينشر الكتاب تلو الكتاب عن تجربته الفريدة ، وعما عاناه من اضطراب فكري حتى اهتدى إلى أكمل عقيدة . وهو أمر كفيل وحده بأن يضمن رواج كتاباته ، ويجمع حوله الآلاف من الشباب الراغب في الاستفادة من خبراته .

ـ فكرة ممتازة حقاً . لماذا لا تحاولها أنت ؟

ـ باتت حيلة قديمة بعض الشيء ، وأضحى من الصعب أن تنطلي على أحد .

ـ معك حق . لقد حاولها أناس في الولايات المتحدة أيضاً من أمثال هاورد فاست وريتشارد رايت ، فحقّقت كتاباتهم بعد إعلانهم تحوّلهم عن الشيوعية أضعاف ما حققته قبله من مكاسب. غير أن حماس الأمريكيين لمثل هذا التحوّل من الظلام إلى الحق قد فتر . . . فثمة وسائل أخرى ؟

ـ نعم . فعلى ضوء انتشار التعليم وإدراك عبث التصدي بالإنكار للحقائق العلمية الثابتة مثل نظريات دارون ونيوتون وكوبرنيكوس وأينشتاين ، ارتفع عدد المتاجرين بالدين عن طريق الإدعاء بأنه ما من حقيقة كشف عنها العلم الحديث إلا وقد تضمنها القرآن أو ألمح إليها الحديث . فالجاذبية الأرضية ذكرها القرآن في آية ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾ . ونظرية النسبية ذكرها القرآن في آية ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ . وتفجير الذرة مذكور في آية ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ . ونظرية براون الخاصة بالحركة الدائمة للأجسام الدقيقة في الماء مذكورة في آية ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

والأفضل بطبيعة الحال لو كان قائل هذا الكلام عالماً أو طبيباً . عندئذ يعظم امتنان العامة له إذ تراه وقد انبرى ليثبت بعلمه الواسع إعجاز القرآن ، ويقدّم على دعواه أقوى برهان . وتظن العامة أن هذا العالم أو الطبيب طلع يدلّل على أن العلم يدعو إلى الإيمان ، غيرة منه على الإسلام ، ونتيجة لتفقّهه وتعمقه في كل من العلم والقرآن ، فيعظم إقبالها على شراء مؤلفاته إن كان من المؤلفين ، وتتهافت الإذاعة والتليفزيون عليه يطلبان منه إلقاء الأحاديث في هذا الموضوع المحبب إلى قلوب السامعين ، وإذا بنفوس السُّذَّج وقد مالت

إليه ، وبالشهرة والأموال الطائلة وقد تدفّقت عليه .

قالت جارتي :

ـ كلامك ليس غريباً عليّ . فعندنا أيضاً في العالم المسيحي من المذاهب ما يزعم أن الكتاب المقدس يحوي كافة الأسرار العلمية ، وأنه تنبأ بكل الأحداث التاريخية .

قلت :

ـ المصيبة أن هؤلاء القوم مطمئنون إلى أنه ما من أحد سيجرؤ على فضح سخافاتهم ، إذ سيتهمونه عندئذ ويتهمه الناس بأنه يشكّك في إعجاز القرآن ، ويزعزع من إيمان المسلمين ، وكأن القرآن الكريم في حاجة إلى أن يشير إلى نظرية براون ، أو إلى الحديث عن الجاذبية الأرضية والذرة ، حتى يطمئن الناس إلى مصدره الإلهي . فإن سألناهم عما عساهم يصنعون لو أن العلماء طلعوا بنظريات جديدة تنقض النظريات الأولى التي زعموا أن القرآن قد أوردها ، ردّوا بأن تفسيرهم القديم للآيات يكون إذن فاسداً ، وإن كان من المؤكد أن ثمة آيات أخرى تشير إلى فحوى النظريات الجديدة .

عندكم في الولايات المتحدة لا يؤمن بمثل هذه الأقوال الحمقاء غير أتباع مذاهب معينة ، اتبعوها لأسباب وبواعث معينة . أما عندنا في العالم الإسلامي ، فإن تصديقها غير مقصور على طائفة أو مذهب ، وإنما تتقبلها العامة ، بل وبعض المسمين بالمثقفين ، باعتبارها خير دليل على صحة الإسلام ، وتتعلق بها تعلّق الغريق بطوق النجاة ، وتتهم كل من رفض قبولها بالكفر والإلحاد . وعلى أي حال فقد صدق الله سبحانه وتعالى إذ ما رضي أن يسوّي العامة بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً ، إذ قال في كتابه المبين : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً ﴾ .

قالت جارتي :

ـ ألا تعتقد أنه كثيراً ما يكون المعارض لدين العامة أصدق إيماناً وأعظم تقوى من أتباع ذلك الدين ؟ لقد وصف أحد رؤساء الجمهورية السابقة عندنا ، وهو تيودور روزفلت ، المفكر الكبير توم پين بأنه « ملحد قذر » . ومع ذلك فقد كان توم پين أصدق إيماناً وورعاً من هذا الذي كفّره . كل ما هناك هو أن تيودور روزفلت لم ينبس في حياته بكلمة ضد الدين أو الكنيسة ، مما دعا الناس إلى احترامه ، في حين هاجم توم پين في كتاباته مفاسد الكنيسة ، مما شكّك العامة في إيمانه . ومع هذا فهو نفسه تيودور روزفلت الذي سوّلت له نفسه وأخلاقياته « المسيحية » الاستيلاء على باناما وقناتها دون وجه حق .

فأي رياء يمكن أن يفوق هذا الرياء ؟

هل قرأت مسرحية « طرطوف » لموليير ؟ لقد هاجم رجال الدين المسرحية وأثاروا حولها ضجة عظيمة ، وأفلحوا في منع نشرها وتمثيلها أمداً طويلاً ، مدللين بذلك على أنه قد كان لهم من النفوذ في فرنسا أكثر مما لسائر الجماعات التي سخر منها موليير من قبل . فأما النبلاء والأطباء والنساء العالمات والمتحذلقات فقد تقبّلوا تناوله لهم في مسرحياته بالتندّروالسخرية ، وتظاهروا بالضحك كما يضحك غيرهم . وأما المنافقون المتاجرون بالدين فلم يقبلوا التندر عليهم ، بل انزعجوا واعتبروه أمراً غريباً أن يجد أحد في نفسه الجرأة على أن يسخر من فعالهم ، ويدين طائفة كبيرة محترمة كطائفتهم . رأوا فعلة موليير جريمة لا تغتفر ، ووحّدوا صفوفهم من أجل شن هجمات ضارية على مسرحيته . وقد حرصوا كل الحرص على ألا يردّوا على النقاط التي مسّتهم في الصميم ، فهم أذكى من أن يفعلوا هذا ، وأحكم من أن يفضحوا مشاعرهم الحقيقية . وإنما التزموا بسنّتهم المألوفة فلجأوا إلى قضية التقوى حتى يخفوا وراءها مصالحهم ، ووصفوا « طرطوف » بأنها مسرحية ضد الدين، وأنها كفر من بدايتها إلى نهايتها، لا تصلح إلا لإلقائها طعمة للنيران،

وأن كل حرف فيها زندقة ، وكل حركة جريمة ، وأن مجرد الغمزة أو هزّة الرأس تخفي مغزى غامضاً فسّروه تفسيراً يستهدف الإضرار بموليير .

كل من يرى الأمور بوضوح وعلى حقيقتها هو عندهم زنديق . وكل من يأبى أن ينخدع لريائهم ونفاقهم لا يحترم الدين . . . لا يا سيدي . إن بوسع الإنسان أن يتظاهر بالتقوى تظاهره بالشجاعة أو بأي شيء آخر . وكما أن الشجاع حقاً لا يلجأ إلى الصراخ والضجيج لإثبات شجاعته ، فإن المتدين حقاً لا يلجأ الى التلويح بدينه أمام الكافة وفي كل مناسبة لإثبات تقواه .

قلت :

ـ بل إنه حتى المتعلمين أنفسهم إنما يحكمون على مدى تدين المرء من ظاهر ألفاظه وأقواله لا من مضمون كلماته وحقيقة أفعاله . فهم يعتبرون سبينوزا رجلاً مؤمناً « مشغولاً بالله » لمجرد أنه يستخدم كلمة « الله » عادة لا « الطبيعة » . أما الذين اتّبعوا جوهر تعاليمه ، وعارضوا فكرة التجسيم الذي هو أساس دين العامة ، فقد اعتبروهم من الملاحدة .

وكذلك عندنا في العالم الإسلامي . لقد كفّرني البعض لمجرد أني أنكرت أن يكون نبينا محمد هو قائل أحاديث مثل : « الباذنجان شفاء من كل داء » ، أو « إذا وقعت ذبابة في شراب أحدكم فيلغمسها ثلاثاً ، فإن في أحد جناحيها سمّاً وفي الآخر شفاء » . أما مردّدو هذه الأحاديث والمدافعون عن نسبتها الى رسول الله فهم عند العامة المناصرون لدين الله وسنة نبيه ، لمجرد أنهم يرفعون أبصارهم إلى السماء فيما يشبه الخشوع والتقوى كلما تحدثوا في مثل هذه الأمور . ولو أن العامة أنصفت ودقّقت في الأمر لوجدت أن مثل هذه الأحاديث عن الباذنجان وغيره تهدم الإسلام أكثر مما تخدمه ، وتنفّر منه أولئك المثقفين الذين يزداد عددهم عندنا يوماً بعد يوم ، والذين قد يصدّقون زعم هؤلاء الوعاظ والقُصّاص وتأكيدهم أن رسول الله هو قائل هذه الأحاديث .

خبّرني بالله عليك : من منا الذي يدافع عن الإسلام وعن النبي وعن السنة ، أنا أم هم ؟

لقد كان علماء الدين والعامة في مصر في عصر من العصور ، يخرجون إذا تأخر فيضان النيل أو ظهر وباء الطاعون لتلاوة صحيح البخاري بأكمله في الصحراء خارج القلعة ، على أمل أن تؤدي هذه التلاوة إلى انكشاف الغُمّة ، بمجيء الفيضان أو انحسار خطر الوباء . ومع ذلك فقد كانوا دائماً ولا يزالون يكفّرون السّحرة الذين لا يفعلون في الواقع أكثر مما يفعله المشايخ ، والذين يردّدون أقوالاً غريبة حتى يغيّروا من قوانين الطبيعة . قد يعتقد الساحر أن عصا معينة أو حجراً معيناً له خواص سحرية . وكذا العامة من المسيحيين والمسلمين : عامة المسيحيين ترى أن الماء المقدس يطرد الشياطين ، وعامة المسلمين ترى أن الحجر الأسود هو يد الله في الأرض . والجميع مع ذلك لا يرون تناقضاً بين تكفيرهم للسحر ، وبين إيمانهم بمثل هذه المعتقدات .

قالت جارتي :

ـ قد خرجنا عن الموضوع يا صاح ، ولم تذكر غير وسيلتين فحسب من وسائل الاتجار بالدين عندكم .

قلت :

ـ هناك أيضاً من ارتآها وسيلة ممتازة لتعزيز نفوذه وهيلمانه ، وفرض إرهابه حتى على كبار المفكرين في بلده ، اللجوء إلى سلاح التكفير ، والطعن في دين كل من يخالفه في الرأي ، واتهامه بأنه من عملاء الشيوعية ، أو مأجوري الصهيونية ، أو من خَدَمَة الحكومة والسلطان . فلأنهم هم أنفسهم أناس إما مأجورون أو خبيثو الأغراض ، لا يتصورون أن يكون مخالفوهم إلا مأجورين أو خبيثي الأغراض . والمدهش في الأمر حقاً شيوع ظاهرة التكفير هذه في أمة الإسلام منذ عهد الخليفة الثالث عثمان . عثمان كفّروه ، وعليّ كفّروه ، ومعاوية كفّروه ، والغزالي حجة الإسلام ومحجّة الدّين كفّروه ،

والباقلاني صاحب أجلّ الكتب في إعجاز القرآن كفّروه ، والطبري صاحب أعظم تفسير للقرآن كفّروه ، وابن تيمية الذي باتت تعاليمه أساس المذهب الوهابي السائد الآن في المملكة العربية السعودية وفي قطر كفّروه ، والشيخ محمد عبده كفّروه . بل لقد كفّروا الإمام البخاري في زمنه وهو الذي أصبح التردّد الآن في قبول صحة أحد الأحاديث الواردة في كتابه من دواعي التكفير !

أما في زماننا هذا فقد جعل هؤلاء القوم من جماعتهم كنيسة ، بوسعها أن تقضي بالحرمان ، وتوزّع صكوك الغفران . إن طلع أمرؤ برأي جديد فهو مبتدع ضال ، وإن استند في تعزيزه لحجته إلى كتب الطبري أو الشوكاني أو ابن قيم الجوزية قالوا إنه إنما يستند إلى روايات ضعيفة . كل ما لا يعجبهم هو من الروايات الضعيفة ! وكل ما يخالف وجهة نظرهم مما ورد في كتب أجلّة الفقهاء والمحدّثين والمؤرخين الأقدمين هو من الإسرائيليات التي دسّها اليهود أعداء الإسلام في تلك الكتب !

كذلك فإنه لمن المدهش حقاً إذعان كبار الكتاب وقادة الفكر عندنا لهذا الإرهاب . هذا يوقف سلسلة من المقالات بدأها ، أو يغيّر من مجراها وعنوانها ، وهذا يسارع من أجل دحض التهمة إلى أداء العمرة أو الحج ، ويعود مهرولاً ليكتب في كبريات الصحف عن مشاعر التقوى التي غمرته أثناء وقوفه عند الكعبة ، وثالث يبادر أصدقاؤه بنشر شهادة موثّقة عليها توقيعاتهم يقسمون فيها أنهم قد رأوه بأعينهم يؤدي الصلوات الخمس ، وفي أوقاتها ! حتى إذا ما رضيت الكنيسة عن هذا الموقف الجديد ، واطمأنت الى خضوع هؤلاء المفكرين الكبار لسلطانها ، نشرت بياناً صحفياً مقتضباً تذكر فيه أنه لم يحدث قط أنها كفّرتهم ، وإنما أساء البعض فهم بعض عباراتها ، وأن دين هؤلاء في الواقع ، وفي حقيقة الأمر ، وبعد النظر والتقصّي ، لا بأس به ، وإن كانوا قد أخطأوا في كذا ، وكان الأجدر بهم كذا ، وكان من المصلحة حذف كذا ، وعدم الإشارة إلى كذا . ثم يتعهد هؤلاء الكتاب بألا يستندوا من الآن فصاعداً إلى الروايات الضعيفة ، في مقابل تعهد الكنيسة بالإحجام عن

مهاجمتهم . ويقبّل بعضهم رؤوس بعض ، ودقّي يا مزيكة !

ـ والوسيلة الرابعة ؟

ـ الوسيلة الرابعة ظهرت نتيجة اكتشاف البترول .

ـ اكتشاف البترول ؟!!

ـ نعم ، واكتشاف علاقة بروتونات ونيوترونات الذّرّة بالإسلام .

ـ كيف ؟ كيف ؟

ـ نعم . اكتشاف البترول أدّى الى تضخم ثروة بعض الدول الإسلامية . بعض هذه الدول رأى من المصلحة القومية ، وفي سبيل توطيد زعامته في المنطقة ، (وهو هدف مشروع) ، أن يتخذ من الدين سلاحاً لخدمة هذه المصلحة ، (وهو أمر غير مشروع) . وعند هذه الدول من المال ما يمكّنها من شراء الكفاءات والعقول والذمم والأقلام ، خاصة في الدول المتحضرة الفقيرة مثل مصر التي ظلت لأكثر من قرن رائدة الفكر الحر في العالم الإسلامي. وإحدى السبل إلى ذلك تأسيس المجلات والجرائد الدينية الأنيقة فاخرة الطباعة في هذه الدول ، واستدعاء مفكرين مصريين أكفاء للكتابة فيها ، بأجور تزيد على عشرة أضعاف ما كانوا يتقاضونه في بلدهم . فإذا بهؤلاء وقد غدوا يحرصون الحرص كله على أن تكون كتاباتهم في الإسلام متمشية مع الخط الذي تحدده لهم الدولة التي تستخدمهم وتدفع أجورهم ، وإذا هم يئدون آراءهم التقدمية المستنيرة وَأْداً ، ويدافعون عن رجعية ما كانوا في الماضي يحلمون بأن اليوم سيجيء الذي يدافعون فيه عنها ، ويكفّرون من الكتاب الإسلاميين الباقين في مصر من لا يرضى مستخدموهم عنه .

وفيما يتعلق بالنيوترونات : فإنه إزاء فقر أغلب الدول الإسلامية ، ووفرة المال في تلك المجموعة من الدول التي أتحدث عنها ، مال الكثيرون من العلماء والاقتصاديين والأطباء وغيرهم من فئات المثقفين في الدول الأولى ،

من أجل الحصول على مبالغ تعينهم على مواصلة تجارب ، أو إجراء بحوث ، أو عقد مؤتمرات ، أو شراء أجهزة ومعدات ، إلى أن يلجأوا إلى الدول الثانية بطلبات يثبتون فيها الصلة بين ما يريدون صنعه وبين الإسلام . فمؤتمر علماء الذرة الذي يريدون عقده سيكون موضوعه « الذرة والإسلام » . وذلك النوع من الجذام المعروف باسم « الجذام الأسدي » والذي يحتاجون إلى المال من أجل مواصلة البحوث فيه ، ستثبت بحوثهم فيه أن أمر النبي لأصحابه بأن يفروا من المجذومين فرارهم من « الأسد » ، قد تنبأ بكل ما وصل إليه العلم الحديث في هذا الصدد . كذلك فإن دراستهم التي يريدون تمويلها عن قانون العرض والطلب مبعثها والغرض منها رغبتهم في تفسير قول الرسول عليه الصلاة والسلام حين شكا إليه أهل المدينة ارتفاع الأسعار فيها وطلبوا منه فرض تسعيرة جبرية : « الله المُسَعِّر » . . إلى آخره .

ـ والوسيلة الخامسة ؟ ولكن أسرع فقد أوشكت الطائرة على الهبوط !

ـ الخامسة ، أن يدرك بعض الكتاب « الإسلاميين » الخبثاء مدى جزع بعض الحكومات في الدول الإسلامية من ازدياد قوة التيار الديني المتطرف فيها ، فيرونها فرصة عظيمة للدخول في تجارة رابحة كفيلة بنيل رضاء السلطة ، وهي الكتابة عن إسلام معتدل لا يعرف التطرف ، بل يستنكره ويُدينه ويستفظعه ويكفّره وينهي عنه ، ويكرس وقته وجهده لاستخراج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والقصص عن الصحابة والتابعين ، التي تدلّ على ضرورة الاعتدال ، وتحضّ على طاعة أولي الأمر ، وتبيّن أن السلطان الغشوم خير من فتنة تدوم ، وتأمر بالانصياع للسلطان برّاً كان أو فاجراً ، وتنصح بالصبر والرضا بقضاء الله وحكمه ، وتفسّر الضائقة الاقتصادية والمظالم الاجتماعية بأنها اختبار من الله عزّ وجل ، أو عقاب عادل منه على ارتكاب الشعب للمعاصي ، وتبشّر الصابرين بالجنة التي لن يكون فيها أزمة مواصلات ، ولا صعوبة أمام الرجل وحوريته في العثور على مسكن ، ولن تنهار القصور فيها على قاطنيها ،

وستضمن أنهارها الجارية وعيونها استمرار توفر مياه الشرب في كل زمان ومكان .

ـ والسادسة ؟ أسرع من فضلك !

ـ والسادسة هي الاتجاه الأخبث إلى استغلال حاجة المسلمين الكسالى المتواكلين غير المبدعين وغير المنتجين إلى من يتغزّل في محاسنهم ، ويعدّد لهم فضائلهم ، ويعزّز ثقتهم في أنفسهم ، وذلك بالتحدث إليهم والكتابة لهم عن روحانية الشرق ومادية الغرب ، وعن أنه في منطقتهم كان ظهور كافة الأديان السماوية ، ومن حضارتهم الإسلامية بزغ نور العلوم والفنون ، وعن أسلافهم استقى الأوروبيون فكرهم ، واقتبسوا مخترعاتهم ، واغترفوا من مناهل معارفهم . فكل ما ينعم به الغربيون اليوم إن هو إلا بفضل المسلمين ، وكل ما يزعمون اكتشافه سبقهم إليه العرب من مئات السنين . إذ مَن مِن شعرائهم أعظم من المتنبي وأبي نواس ؟ وهل كانوا يفلحون في اختراع الطائرة لولا عباس بن فرناس ؟ ومن في الفقه عندهم أعظم من محمد بن إدريس ؟ وهل كان هارڤي في اكتشافه الدورة الدموية غير عالة على ابن النفيس ؟ وقد نهب بيتهوڤن في جلّ سيمفونياته ألحان إسحاق الموصلي ، وأخذ مونتني أفكار مقالاته عن بدر الدين الإربلي . وكذلك سبق فرويد في تفسير الأحلام ابن سيرين ، وسرق نظرية ابن حزم في ميتافيزيقا العشق شوبنهاور اللعين .

ثم يتبعون هذا بالحديث عن تدهور الحضارة الغربية ومفاسدها وأهوالها ، وعن تفسّخ القيم وانحلال الأخلاق فيها ، وعن نسائها اللواتي يغبطن نساء المسلمين على وضعهن ، وفلاسفتها من أمثال شبنجلر الذي تنبأ بقرب انهيارها ، ومفكريها من أمثال جارودي الذي اهتدى في ختام رحلة حياته الى الدين الحق ، أو لوبون وكارلايل اللذين أشادا بعظمة المسلمين .

عندئذ يفرح المسلمون ويهدأ بالهم وتثلج صدورهم ويطمئن خاطرهم ، بعد أن كانوا على وشك الإحساس بأن حالهم مائل ، وتصديق الخبثاء

الهدامين الذين يزعمون أن أمورهم ليست بالضبط على خير ما يرام ، وأن عليهم أن يضغطوا على أنفسهم ويبذلوا بعض الجهد في سبيل الإصلاح .

ـ قد هبطت الطائرة ولا مفرّ من قطع الحديث . هل بقيت وسائل أخرى لم تتحدث عنها ؟

ـ ثمة أربعمائة وأربع وخمسون وسيلة .

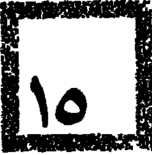
مدّت يدها بسرعة لتصافحني مودّعة وقالت :

ـ فرصة سعيدة جداً . إسمي آن . آن چوردان . فما اسمك ؟

ـ . . . .

(للحديث بقية)

رسالة أمريكا (٥)



إعمال التفكير في أعمال التكفير

دَعُوني من إحراق رَقٍّ وكاغدٍ
وقُولوا بعلمٍ كيْ يرى الناسُ من يدري
فإن تحرقوا القِرطاسَ لن تحرقوا الذي
تضمّنه القرطاسُ ، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلّت ركائبي
وينزِلُ إنْ أنزِلْ ، ويُدفَنُ في قبري
ـ عليّ بن أحمد الفارسي الأندلسي

وإنها لمصيبة كبرى في هذا الزمان
إذ نرى المجانين وقد تولّوا قيادة العميان .
شكسبير : « الملك لير » الفصل الرابع ، المنظر الأول

بالرغم من لهجة المصالحة التي تميّز بها حديث أمير اللواء الإسلامي في هيوستون إليّ خلال الأمسية الأخيرة لي في تلك المدينة ، فقد اتّضح لي بعد يوم واحد أنه كان يُضمر خلافَ ما أظهر . فما من مدينة زرتها بعد ذلك في ولاية تكساس ، إلا تبيّن أنه كان قد سبقني إليها مبعوث منه لإقناع الجماعة الإسلامية بها بإلغاء محاضرتي التي كانوا قد أعلنوا عنها وحجزوا لها إحدى

القاعات بالمدينة . كانت رسالته إليهم في كل مكان قصدته : « إمنعوا هذا الزنديق الحاقد على الإسلام من الحديث إلى المسلمين ولو بالقوّة » . فكنت إذا نزلت من القطار بحقيبتي في محطة دالاس ، أو أوستن ، أو سان أنطونيو ، أو برايان ، أو كوليج ستيشون ، أو جلفستون ، أفاجأ فيها على رصيف القطار بجماعة من الزبانية الغلاظ الشراد جاءت لاستقبالي وإبلاغي بإلغاء المحاضرة ، وتسليمي خطاباً بهذا المعنى موقعاً من رئيس الجماعة ، ثم توصلني إلى رصيف قطار آخر متجه إلى جهة أخرى ، فتضعني وحقيبتي فيه ، وتمضي لسبيلها . فكانت حالي أشبه بحال البائع المتجول يطوف بأبواب المنازل ، فلا يكاد يفتح فاه ليتحدث عن بضاعته حتى يرى الباب وقد أوصد في وجهه .

(كلما جاءهم رسولٌ بما لا تَهْوَى أنفسُهم ، فريقاً كذّبوا ، وفريقاً يقتلون) واضطررت في النهاية إلى الرحيل ، طريداً أو كالطريد ، إلى لوس أنجلوس .

لا حقّ في التفكير إلّا للأموات

استقبلني في مطارها أستاذ جامعي هو الدكتور أحمد مراد جاد الله ، أصرّ على أن تكون إقامتي عنده . وإذ استقر بنا الجلوس حول مائدة العشاء في داره ، راح يسألني عن تجربتي في تكساس . قلت :

ـ رأيت فيها أناساً ما أودّ أن أكون معهم في الجنة ، ولا أحسب أن الله سيجمعنا يوم القيامة في مكان واحد .

ـ سمعت أنهم قد صادروا كتابك « دليل المسلم الحزين » .

ـ نعم . وكانت النتيجة أن الجالية الإسلامية هناك تهافتت على تصوير النسخ التي بيعت قبل مصادرته ، وتداول الصور فيما بينهم كما تُتداول المخدرات . . . لقد عرف الغرب منذ عصر الإصلاح الديني ، والشرق منذ

مطلع هذا القرن ، حقيقة لها مغزاها ؛ وهي أن أفضل السبل إلى الدعاية لكتاب ، وضمان رواج توزيعه ، هو مصادرة السلطة للكتاب ، أو تكفير كاتبه من قِبَل جهات اشتهرت عند جمهور الناس بالتحجر الفكري . بل إن صديقاً لي في فرنسا كتب إليّ حين سمع بقصة الحملة ضدي في صحف العالم الإسلامي ومجلاته ، يقول إن بعض المؤلفين الفرنسيين الجدد يلجأ اليوم الى رشوة نقاد ليقوموا بمهاجمة كتبهم في الصحف أو المجلات الأدبية ، بطريقة تثير شوق قراء الصحيفة أو المجلة إلى ابتياع الكتاب لقراءته ! ولا حاجة بي هنا إلى أن أنفي أن أكون قد لجأت إلى مثل هذا مع أولئك الذين تولّوا مهاجمتي ، أو إلى أن أؤكد لك أنهم تولّوها متطوّعين مشكورين غير مأجورين من تلقاء أنفسهم ، ودون سابق اتصال أو معرفة من جانبي بهم .

والدرس الذي نخلص به من كل هذا هو أن الغباء في مجال الفكر الديني يصحبه عادة غباء في مجالات أخرى كثيرة !

قال مضيفي :

ـ ستجد هنا في كاليفورنيا إسلاماً غير الذي وجدته في تكساس .

ـ آمل ذلك ، فلست على استعداد لأن أخوض في ولايتكم تجربة مماثلة . . . ربّاه ! لكم بودّي أن أفهم السرّ !

ـ سرّ ماذا ؟

ـ السرّ في أنه كلما كان هناك خلافٌ في الرأي حول مسألة تتّصل بالدين ، كان من الصعب على المسلمين أن يناقشوا الأمر في هدوء ودون انفعال ، ودون سباب وتكفير وتخوين . السرّ في أنه قد بات من النادر أن يصبر مسلم على الاستماع إلى وجهة نظر دينية من مسلم يخالفه ، وأن يعرض قضيته عرضاً موضوعياً نقدياً . هل باتت سعة الصدر والسماحة قاصرتين على مجال العلوم دون الدين ، رغم أمر الله إيّانا بالمجادلة فيه بالتي هي أحسن ؟ القول برأي مخالف هو في مجال الدّين تحدّ وإهانة ، وهو في مجال العلم مطلوب ، ومرحّب به ، ومشجّع عليه ، بل ويزيد من لذّة البحث . الأبحاث الجديدة

والبدع في ميدان العلم تُشعل الحماس وتُلهب الخاطر ، ويحاط المبتدعون فيه بكل مظاهر التبجيل والامتنان . أما في مجال الدين فالناس على استعداد لأن يحرق بعضهم بعضاً بسبب الرأي الجديد ، وبسبب الخلاف حول ما إذا كانت نسبة حديث الذبابة إلى محمد رسول الله صحيحة أم غير صحيحة . . . العلم ليست به حاجة إلى شنّ حملات صليبية لإبادة غير المصدِّقين بالنتائج التي توصّل إليها ، بل هو على استعداد كامل لهجر هذه النتائج إلى غيرها متى ثبت تناقضها مع مقتضيات المنطق ، ولا يعرف التزاماً غير الالتزام تجاه كلّ ما في الكون بحب استطلاع محايد . ولا يعني هذا أن العلماء لا يعرفون الحرقة والعاطفة القوية . هم يعرفونها ولكن تجاه الحقيقة وسبل البحث عنها فحسب . أما في مجال الدين فقد بات الناس في زماننا هذا لا يعرفون غير حرقة التعلّق بالآراء الموروثة البالية ، وحرقة تكفيرِ من يناقشها مناقشة موضوعية نقدية .

قال الدكتور مراد :

ـ صدقت . أو لو كان امرؤ أنكر في مقال له أو كتاب صحة نظرية أينشتاين في النسبية ، أبوسعنا أن نتخيّل أينشتاين وهو يردّ عليه صارخاً كما يفعل المشايخ عندنا : إذا ذهب الحياء فاصنع ما شئت وشاء لك الذين تكتب نيابة عنهم ؟! لقد استقرّ في المجتمعات المتحضرة منذ أمد بعيد مفهوم يرى المفكر ونقّاده شركاء في مهمة واحدة ، هي توسيع مدارك القراء وفهمهم وتنمية معارفهم وتمكينهم من تكوين نظرة سليمة إلى الأمور . والمفكر في تلك المجتمعات يدرك عادة ، ما لم يكن مفرط الحساسية ، أن عليه أن يكون شديد الامتنان للمساعدة التي يقدمها النقاد له بتنبيههم إيّاه إلى أخطاء وقع فيها ، أو أوجه قصور تعتور فكره . كذلك يدرك الناقد أن الإسفاف والحقد الشخصي والافتقار إلى الموضوعية في مجال الفكر ، أمور كفيلة بهدم سمعته لا سمعة موضوع النقد . أما في عالمنا الإسلامي فلا نرى غير التشنّج إزاء الفكرة الجديدة ، والمبادرة إلى تكفير القولة الجريئة ، والاتهام بفساد

العقيدة ، والانتقال من تسفيه الفكرة إلى الطعن الشخصي ، بأسلوب يفيض بذاءة وينضح بالحقد ، دون مبرر ظاهر غير اختلاف الرأي . وإنه لأمر يتعذّر فهمه إلا على ضوء تكويننا وتخلّفنا العقلي ، وفساد أسلوب تربيتنا ، وأفقنا المحدود ، وحظ عالمنا الإسلامي المنكود .

قلت :

ـ ثم قل لي بالله عليك : مَنْ الحكَم في كلّ هذا ؟ هم دائماً ؟ وبأيّ حق ؟ ومن أعطاهم ذلك الحق ؟ من قال إن الحق وقْفٌ عليهم ، ومن ذاك الذي قضى بحرمان غيرهم من استخدام نعمة التفكير التي أنعم الله عزّ وجل بها علينا ، وقصرها عليهم ؟ كلما طلعتُ بفكرة جديدة هتفوا بي : « مَنْ قال هذا ؟ هذا رأي لم يأت به حديث ولم نجده في كتب الأسلاف » . وكأنه لا حقّ في التفكير إلا للأموات !

قال مراد :

لو كنت مكانك لأجبتهم بقولة أبي يزيد البسطامي : « أخذتم علمكم ميّتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت . يقول أمثالُنا: حدّثني قلبي عن ربي ، وأنتم تقولون : حدّثني فلان ، وأين هو؟ قالوا : مات ، عن فلان ، وأين هو؟ قالوا : مات ! » .

ـ هو ذاك . أو بقولة هاملتون جيب الشهيرة عنّا : ليس ثمة تعليم في العالم العربي . كلّ ما هناك هو الحفظ من الكتب .

شرّ الأمور محدثاتها

واستطردت قائلاً :

ـ ثم ما الذي لم يبدأ هؤلاء القُصّاص والوعّاظ باعتباره كفراً ومن المحرمات ، ثم لم يعودوا بعد قرن أو قرون إلى السماح به وتحليله ونفي صفة الكفر عنه ؟ ألم يكفّروا شرب القهوة في القرن السادس عشر وحكموا بهدم

المقاهي في أرجاء الدولة العثمانية ويجلد من يُرى وهو يحتسيها ، ثم عادوا فأفتوا بأن شربها حلال ؟ ألم يكفروا اختراع الطباعة فظل استخدامها محرماً في أقطار الدولة الإسلامية حتى أفتى شيخ الإسلام بإجازتها بعد نحو ثلاثة قرون كانت أوروبا قد أفلحت خلالها ، ربما بفضل هذا الاختراع ذاته ، في أن تسبق العالم الإسلامي في مضمار الحضارة ؟ ألم يقاوم آل الشيخ في المملكة العربية السعودية رغبة الملك عبد العزيز آل سعود إدخال الهاتف والبرق والمذياع والسيارة ، واعتبروا كل ذلك بدعاً موجبة للتكفير ؟ ألم يكفّروا في عهد الملك فيصل إدخال التيليفزيون عام ١٩٥٨ ، وتعليم البنات وإلغاء الرق عام ١٩٦٠ ، ثم عادوا فأجازوا كل ذلك ؟

في هيوستون ، استجوبتني جماعتهم عما أستند إليه من المصادر فيما أذهب إليه من وضع الأحاديث واختراعها ونسبتها إلى رسول الله . فلما ذكرت لهم مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ، والعشرات من أمهات الكتب في هذا العلم الذي عكفتُ على دراسته وحده أكثر من عامين ، إذا بي أفاجأ بأن غالبيتهم لم تسمع بها قط ، وأن الأقلية التي سمعت بها لم تعن بأن تنظر فيها ، وإذا بجُلّ معلوماتهم عن الحديث قد استقوها من كتيبين هزيلين : الأول بعنوان « منزلة السنة في الإسلام » لناصر الدين الألباني ! طبعة المكتبة السلفية ، والثاني بعنوان « تمام المنّة في الردّ على أعداء السّنّة » لمؤلف حاولوا أن يتذكّروا اسمه فلم يفلحوا ، وإن كانوا قد ذكروا أنه صادر عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة !

تلك هي منابع معارفهم الإسلامية ! وتلك هي المصادر التي يعتمد عليها قوم يحسب الناس أن كل ساعات حياتهم قد كرّسوها للتعمق في علوم الدين !

يتهمونني بالابتداع ؟ وماذا في الابتداع ؟ لقد كان جُلّ ما أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام قومه جديداً مخالفاً للمألوف عندهم ، وللقيم والتقاليد

السائدة بينهم ، مناقضاً لمثلهم العليا ونظرتهم الأساسية إلى الحياة مما توارثوه جيلاً عن جيل . لم يكن بوسع الجاهليين قبول فكر جديد أو قيم مستحدثة ليس لها أساس مما تتناقله الأجيال وتحفظه التقاليد . ولم يكن ثمة عربي أصيل يسعده أو يسهل عليه أن يتخلّى عما ورثه من مفهوم عن الفضيلة . كان العربي إذا فخر بفضائله أكّد أنه بتبنّيه إيّاها إنما يسعى إلى التشبّه بآبائه . بل إنه حتى في قراه للضيف كان يحرص على أن يقدم الطعام لأضيافه في الأواني التي ورثها عن أجداده . وها نحن نرى أبا امرىء القيس لا يورث ابنه سلاحه وخيوله فحسب ، وإنما يترك له أيضاً « قدوره » التي هي رمز الكرم وحسن الضيافة حتى يواصل بها الممارسة المتوارثة لهاتين الفضيلتين .

ثم ها هم يرون رجلاً منهم يظهر بينهم بدعوة جديدة كل الجدّة ، ويرونه علاوة على ذلك لا يملك من مؤهلات الزعامة والرئاسة ما ألفوه ووقّروه وأعجبوا به من مؤهلات في شيوخهم وساداتهم . أتى يكلمهم فيما لا يفهمون ولا يعرفون له أصلاً ، ككبح الشهوات والتضحية بالمال والزهد في الحياة الدنيا . والقرآن الذي جاء به من عند ربه يحرّم الخمر والزنا وهما ما كان الجاهليون يسمونهما بالأطيبين . وهو يدعو إلى أخوة ومساواة ، وينهي عن الفخر بالحسب وعن التنافس بين القبائل . والرسول يؤكد أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لحرّ على عبد إلا بالتقوى . وهو يمتدح المسالمين وقومه يرون في المسالمة ضعفاً :

ودع عنك عَمْراً إن عَمْراً مسالمٌ

وإلهه يثني على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وقومه يهزأون ممن ترك الثأر واغتفر إساءة ، أو ردّ السيئة بالحسنة ، ويعتبرون من أقذع أبيات الهجاء بيت قُرَيْط بن أُنَيف الذي يعيّر فيه قومه فيصفهم بأنهم .

يجزون من ظُلم أهل الظلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء إحساناً

وها هو ابن سعد في طبقاته يذكر أن أهل مكة ما اشتدوا وغلظوا في معارضة النبي حتى هاجم آباءهم ونعتهم بالكفر وسفّه أحلامهم . وقد كانت شكواهم إلى عمه أبي طالب هي من أنه « ضلّل آباءنا . . . وإنّا والله لا نصبر على شتم آبائنا » .

وقد شن القرآن الكريم هجوماً عنيفاً في آيات كثيرة على تعلق الناس بالقيم والآراء البالية والعقائد الموروثة عن الآباء ، رغم مخالفتها للعقل ، ومناقضتها لكل منطق . فقوم النبي ﴿ مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ﴾ هود ١٠٩ . غير أن عقائد الآباء ليست صائبة بالضرورة ، ﴿أوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ البقرة ١٧٠ . فإن كانت معتقداتهم فاسدة فلا ينبغي قبولها ؛ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ التوبة ٢٣ . كذلك فإنه بمضي الأيام والعصور ، وبنمو المعارف وتراكمها ، قد يدرك الأبناء من الحقائق ما لم يكن للسلف من آباء وأجداد به علم ؛ ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتّبعني ﴾ مريم ٤٣ . وإذ المرء بطبيعته عدوّ لما يجهل ، فالغالب أن يتشبّث الآباء بمعتقداتهم البالية ؛ ﴿ بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ يونس ٣٩ . ومن حق الأبناء أن يجادلوا السلف فيما ذهبوا إليه ؛ ﴿ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ﴾ مريم ٤٢ . ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ الأنبياء ٥٢ ـ ٥٤ . كما أن من حق الجيل الجديد حينئذ ، بل وواجبه ، أن يترك نهج السلف ؛ ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾ الزخرف ٢٦ . ذلك أن الحق أحق أن نخشاه من السلف ؛ ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً ﴾ البقرة ٢٠٠ . فإن ثبت لنا بالتروي والتفكير أن السلف قد جانب الصواب والحق ، فعلينا أن نختار الصواب والحق ؛ ﴿ أوَ لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ﴾ الزخرف ٢٤ . غير أن هناك من الناس من التقاليد على

عقله وقلبه سلطان مبين ، ويأبى قبول أية بدعة مستحدثة لمجرد أنها لا تتفق مع هذه التقاليد ؛ ﴿ ما هذا إلا سحر مفتري وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ القصص ٣٦ . وقد كان هذا هو موقف قوم النبي عليه الصلاة والسلام منه : ﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ المائدة ١٠٤ . كلما دعاهم إلى رأي جديد ﴿قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ؟﴾ يونس ٧٨ ؛ وقالوا عنه إنه رجل حاقد على دينهم ؛ ﴿ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤ كم ﴾ سبأ ٤٣ ؛ وقالوا له : ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤ نا ؟ ﴾ هود ٦٢ ؛ ﴿ إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ الزخرف ٢٣ . وهذا موقف لا يستسيغه عقل ؛ ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤ كم ؟ ﴾ الأعراف ٧١ . فهم قوم يأبون تحكيم المنطق والفكر ؛ ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ﴾ الأعراف ١٧٩ ؛ ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلا تتفكّرون ؟ ﴾ الأنعام ٥٠ . والتفكير هو واجبنا الأول ؛ ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ النحل ٤٤ ؛ ﴿ إن شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون ﴾ الأنفال ٢٢ . وليكن شعارنا دائماً : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ طه ١١٤ . فإن طلع علينا قوم برأي جديد ناقشناه معهم بالمنطق ﴿ قل هل عندكم من عِلْم فتخرجوه لنا ؟ ﴾ الأنعام ١٤٨ . أما الجدال عن غير علم ومنطق فمرفوض ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ الأنعام ١١٩ ؛ ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا واق ﴾ الرعد ٣٧ .

أفبعد كل هذا يمكننا أن نصدّق أن يكون الرسول الكريم قد قال : « لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم » ، أو « ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » ؟ لقد أوردت كتب الصحاح والسنن والمسانيد والسير والمغازي والطبقات من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول مما يذم البدع ويدعو إلى رفض كل جديد

محدث ، ما لا يمكن أن يتفق مع مفهوم الآيات التي أشرت إليها ، وما ليس بالوسع قبوله مع علمنا بأن كل ما جاء به الإسلام رآه الجاهليون من « محدثات الأمور » ، وعلمنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أعظم رافض لاتباع سُنة من كان قبله . فهل يمكن لمن أنزل عليه ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ الأنعام ٩١ ، و﴿ قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ البقرة ١٧٠ ، أن يقول : « سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإيّاكم وإيّاهم » (صحيح مسلم) ؟

القسطلاني وبيير كاردان

يقيني أن مثل نبي الإسلام عليه السلام لم يكن كمثل أولئك الثوريين المجردين الذين يروي التاريخ أنهم صارعوا قومهم وجاهدوا في سبيل نصرة آرائهم ، حتى إذا ما نجحوا وقبلت أفكارهم واستقرت ، وأضحت جزءاً من كيان مجتمعهم ، واعتبرهم الناس أبطالاً مصلحين ، جزعوا وتنكروا لكل تجديد لاحق ، حتى لو أن هذا التجديد كان في نفس اتجاه فكرهم ، وهاجموا كل بدعة مستحدثة ، حتى لو أن هذه البدعة لم يكن لها من غرض غير مواءمة فكر البطل المصلح مع ما يستجدّ من ظروف ، واتهموا دعاة التجديد بالمروق والخيانة ، وأكدوا ضرورة الولاء لمبادىء الآباء والسلف الصالح ، وهو ما فعله كل من لوثر وكالفن وستالين وعشرات غيرهم .

روى مسلم أن الرسول مرّ بقوم يأبرون النخل . فسأل : ما يصنع هؤلاء ؟ فقيل له : إنهم يلقحون النخل . فقال : لو لم يفعلوا لصَلُح . فلما تركوا التلقيح بناء على نصيحة رسول الله لم ينضج الثمر . فلما علم الرسول بذلك قال : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . وكان عليه السلام يكرر للناس قوله : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ومفهوم هذا أن تعاليم النبي الملزمة للمسلمين هي التي تتعلق بالدين والأخلاق ، لا المتعلقة بمعايش الدنيا الفرعية التي ذكرها على سبيل الرأي . ومع ذلك فإننا نرى بيننا من يذهب إلى انتهاج نهج السلف الصالح في كل شيء من شؤون الحياة ، كالملبس والمأكل بل وحتى بإطلاق اللحى ، ولا يرون مُسلماً حقاً من تبع شيئاً من عنده . . وكأنما كان السلف الصالح مصممي أزياء مثل بيير كاردان ! وها هو القسطلاني يرى بدعة مرفوضة كل ما يتبع دون مثل من العصر القديم ، وكل ما لم يكن معروفاً في زمان النبي ! ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ؟ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ الكهف ١٠٣ و ١٠٤ .

غير أن هؤلاء الذين يدعون إلى انتهاج سنة السلف الصالح لا يذكرون كيف ألغى الخليفة عمر بن الخطاب حصة المؤلّفة قلوبهم من الصدقات والآية القرآنية تقول ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم . . . ﴾ التوبة ٦٠ . وقد استند عمر في إلغائه لحصتهم إلى زوال العلة التي بُني عليها النص ، وهي نصرة الدعوة في بدء الإسلام بعد أن قويت شوكته ، ورأى أن الأحكام الشرعية إنما بُنيت على علل ومقاصد ، وكلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم . ولا يطبق الحكم ، حتى إن استند إلى نص شرعي ، متى زالت العـلّة التي بُني عليها ، والتي هي شرط تطبيقه . وقد ذكر ابن تيمية «أن صحيح المنقول في الشرع الإسلامي موافق دائماً لصحيح المعقول » . واستناداً إلى هذا المعنى ذهبت القاعدة الأصولية إلى « أن الحكم الشرعي المبني على علّة ، يدور مع علّته وجوداً وعدماً » ، وخرج بعض الفقهاء بقاعدة عامة مؤدّاها « أنه لا يُنكَر تغييرُ الأحكام بتغيّر الأزمنة والأحوال » . كذلك كتب السيوطي في « الاتقان في علوم القرآن » في معرض حديثه عن النّسخ في القرآن يقول : « من أقسام النسخ ما أُمر به لسبب ، ثم يزول السبب ؛ بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة تقتضي ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر » . وقال :

« إن هناك آيات نُسخ حكمُها دون تلاوتها . وإذ أن النسخ غالباً ما يكون للتخفيف (التيسير) ، فقد أُبقيت التلاوة تذكيراً للنعمة » .

قد دعانا من رأى قفل باب الاجتهاد إلى الوقوف عند آراء مجتهدين في عصر معين . وقد كان هؤلاء المجتهدون يفكرون لأنفسهم ، ويراعون في وضعهم الأحكام موافقتها للظروف المتغيرة في مجتمعهم . غير أنهم سلكوا مسلكاً خاطئاً إذ صاغوا آراءهم المبتدعة في قالب أحاديث نسبوها الى النبي ، واختلقوا الأسانيد لها حتى تلقى آراؤهم قبولاً من الأمة . أو على حد تعبير بعضهم واعترافه : « كنا إذا رأينا رأياً صيّرناه حديثاً ! » . فإذا بالأجيال التالية لقفل باب الاجتهاد وقد صدّقت نسبة هذه الأحكام والآراء إلى النبي ، وحرّمت على نفسها أن ترى لنفسها رأياً جديداً ، حتى إن كانت هذه الأجيال قد أحاطت بما لم يحط به المجتهدون الأول علماً ، ونشأت لديها مصالح واحتياجات لم يعرفوها ، وعاشت في ظروف لم يخبروها .

وقد جاهد بعض أعاظم الفقهاء كابن تيمية وابن قيم الجوزية والشوكاني ، من أجل أن يثبتوا بالأدلة الشرعية الواضحة أن باب الاجتهاد ليس مفتوحاً فحسب ، بل هو واجب على كل من اتصف بصفات المجتهد . ذلك أنه ما دام الوجود البشري سلسلة من الأحداث والظروف المتعاقبة ، فإن الاجتهاد والابتداع سيظلان دائماً الجوهر الحيّ للتاريخ . وقد فهمت الحضارات الراقية هذه الحقيقة حتى أضحت البدعة مقصودة في حدّ ذاتها وطلبها متعمداً ، وأسمتها بالمنهج العلمي ، وحتى أصبحت ، خاصة في وقت الأزمات كالحرب أو الضائقة الاقتصادية ، تبدي تهافتاً على الابتداع ، وتناشد المبتدعين وتحثّهم على إجراء التجارب والاختبار والاستنباط ، بحيث بات التغيير وتوفير المرونة شعار السياسة العامة عندها .

أما عندنا فقد قضى على الفكر الإسلامي بالتوقف ، وتفشي التقليد

والجمود في الشريعة وغيرها ، واتُّهم كل صاحب رأي جديد باتباع الهوى ، أو بالكفر والمروق ، ووُصفت كل دعوة إلى الإصلاح والتطوير والاستنارة بأنها بدعة ، واختُرعت أحاديث نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تستنكر البدعة ، وتبشر صاحبها بالنار .

فَمَرْحىً لنا !
وطُوبَى لأمة المسلمين !

(للحديث بقية)

رسالة أمريكا (٦)



إسلام وإسلام

خُذي رأيي وَحَسْبُكِ ذاك مِنّي
على ما فيَّ من عِوَجٍ وأمْتِ
وماذا يبتغي الجُلَساءُ عندي؟
أرادوا منطقي وأردتُ صَمْتي
ويوجد بيننا أمَدٌ قَصيٌّ
فأمُّوا سَمْتَهُمْ وأمَمْتُ سَمْتي

أبو العلاء المعري

في اليوم الأخير من أيام جولتي بولاية كاليفورنيا ، عقد الدكتور ماهر حتحوت مدير المركز الإسلامي بلوس أنجلوس اجتماعاً للجالية الإسلامية فيها ، دعاني فيه إلى الحديث عن الانطباعات التي كونتها خلال تلك الجولة .

قلت :

أعلنها صراحة ودون قصد إلى إطراء ، أنه لولا زيارتي لولايتكم ، ورؤيتي لحال المسلمين فيها ، لعدت إلى القاهرة بأبأس وأكأب وأظلم انطباع عن وضع الأمة الإسلامية في عالم اليوم .

رأيت هنا إسلاما غير الذي رأيتُه في تكساس ، وغير الذي أشهده في بلادي.ورأيت من القائمين على الدعوة في الولاية من الجهد والإخلاص ، ومن الاستنارة وسعة الأفق ، ما ردّ إليّ بعض الثقة في مستقبل الإسلام ، ومستقبل أبنائه .

لقد تناهت إليّ في مصر قبل قدومي بعض أخبار الدكتور حتحوت وأخبار المدير السابق لمركزكم الدكتور عمر الألفي . ذكروا لي أنهما حين فكرا في إقامة مبنى جديد للمركز ، بعثا إلى حكومة دولة إسلامية من الدول المنتجة للنفط يطلبان مساعدتها المالية ، وقد وعدتهما تلك الحكومة فعلاً بهذه المساعدة . فلما تباطأت في تقديمه لأكثر من سنة ، وكرّرا طلبهما ، ردّت سفارتها في واشنجطون بخطاب طويل يفرض الشروط ويحدّد القيود . فإذا بالشيعة لا يراد لهم استخدام المركز وكأنهم ليسوا من أهل الإسلام ، وإذا بالإناث وقد رأت السفارة فصلهن عن الذكور في حلقات الشباب الدراسية والصلاة ، وإذا بالحظر مطلوب فرضه على بنطلونات الجينز والبلوزات قصيرة الأكمام ، وإذا بعدد من الرجال وقد أصرّوا على فصلهم من وظائفهم الإدارية بالمركز بسبب ميول سياسية معادية لحكومة تلك الدولة ، وإذا بالسفارة وهي تطلب لنفسها حق الإشراف على المركز وتوجيه سياسته وإدارة أموره مقابل مبلغ شهري كبير تدفعه . فما كان من الطبيبين ماهر حتحوت وعمر الألفي إلا أن أجابا السفارة بخطاب من سطرين ، هما :

« أما بعد ، فإن أهل مكة أدرى بشعاب مكة ، وأهل لوس أنجلوس أدرى بشعاب لوس أنجلوس ، والسلام » .

وفضّلا إقامة هذا المبنى الحاليّ المتواضع من تبرعات الجالية ، على إقامة مركز فاخر يضيع استقلاله ، ويضيع الإسلام المستنير بضياع استقلاله .

ذلك ما سمعته في القاهرة . وما تحقّقت من صحته بسؤالهما عنه عند حضوري . غير أن ما لمسته من نشاط هذين الرجلين بعد مجيئي ، كان له في

نفسي تأثير أعمق حتى من ذلك الذي أحدثه سماعي لهذه القصة . فهما طبيبان من أبرز وأنجح الأطباء في ولاية كاليفورنيا ، بل وفي الولايات المتحدة بأسرها . واشتغالهما بالطب يستغرق منهما الساعات الطوال . ثم إذا بالساعات المتبقية التي كان من حقهما ، وربما من واجبهما ، أن يخصصاها للراحة أو لعائلتيهما ، وقد كرّساها لخدمة الإسلام المستنير والمسلمين ، ولإلقاء الدروس بالانجليزية على شباب الجالية في العقيدة وفي تفسير القرآن والحديث ، وفي تنظيم الحلقات الدراسية للأولاد والبنات ، وفي تحرير مجلة إسلامية للجالية ، وإدارة شؤون المركز ومراقبة حساباته ، وتحصيل أموال الزكاة وتوزيعها على المستحقين ، وتوفير العمل لمسلمي أفغانستان الفارين من الاضطهاد في بلادهم ، وفي مساعدة أبناء الجالية على حل مشكلاتهم الخاصة ، بل وفي ترتيب الزيجات للفتيات المسلمات في الولاية ، إلى عشرات وعشرات من المشاغل التي تنذر بأن تترك الرجلين حطاماً في بحر أعوام قليلة .

وهي نقطة تدفعني إلى أن أنقل الحديث آسفاً إلى الجانب غير المضيء من انطباعاتي في ولايتكم .

إن رعاية الإسلام في كاليفورنيا يكاد أمرها يكون قاصراً على جهود هذين الرجلين الفذّين ، ثم لا عون ولا مساعدة تقدمها دولة إسلامية ، أو مؤسسة دينية في العالم الإسلامي ، ولا أنا بالذي تبيّنت صفاً تالياً أو قيادة مؤهلة لأن تخلفهما . فهنا في الولاية نحو ربع مليون مسلم ، معظم شيوخهم ممن هاجر إليها منذ عشرين عاماً أو يزيد ، ومعظم شبابهم ممن ولد هنا ونشأ ، وتلقى تعليمه في المدارس والجامعات الأمريكية . وقد غمرتني الحسرة إذ أرى اللغة العربية وقد انقرضت عندكم أو كادت . قراءاتكم في الإسلام بالانجليزية . ومحاضروكم مضطرون إلى استخدام الانجليزية في الحديث إليكم كما أفعل الآن . ودروس الفقه والتفسير والحديث تلقى عليكم بلسان أعجمي . واعتقادي الشخصي البحت أن هذا لا يبشر بخير . قد يأخذكم

العجب فتردّون بأن الإسلام لا صلة له باللغة ، وأنه قائم في دول كإيندونيسيا وباكستان وإيران ونيجيريا وغيرها ليست العربية لغتها . غير أني قائل لكم ، وإن لم يعجبكم قولي ، إني أرى رأي أبي عمرو بن العلاء في أن علم العربية هو الدين بعينه ، ورأي عمر بن هبيرة : « والله ما استوى رجلان دينهما واحد ، ومروءتهما واحدة ، أحدهما يتقن العربية والآخر لا يتقنها . فإن أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي يتقنها » .

كذا كانت نظرة العرب القدماء إلى دينهم ولغتهم ، وكذا هي نظرتي . كانت العرب ترى القراءة في كتب مثل « الأغاني » لأبي الفرج ، أو « الحيوان » للجاحظ ، أو « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي ، نشاطاً وثيق الصلة بالدين ، ومفتاحاً له ، حتى لو أن هذه الكتب لا تتحدث في الدين ، ولا صلة لها بالقرآن أو الحديث ، بل وقد يرد بها من فاحش القول ما يصدم شعور العفيف التقي . ولا كانت العرب تعتبرها نقلة مفاجئة أن يُتبع الرجل قراءته لتفسير الطبري ، بالنظر في « طوق الحمامة » لابن حزم. أما عنكم فقد انقطعت صلتكم بتراثكم . وما من أحد غير شيوخكم بوسعه الآن أن ينظر في تاريخ ابن الأثير ، أو معجمي ياقوت ، أو لزوميات أبي العلاء ، أو القراءة في العقيدة إلا في كتيبات من بضع صفحات بالانجليزية عن أركان الإسلام أو أحكام الصوم والزكاة ، مما تصدره هيئات كالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر .

وهذا أمر بوسعكم أن تتداركوه بإعطاء المزيد من الاهتمام لتعلم العربية .

أما الخطر الذي أجده مرعباً حقاً ، ولا أعلم ما إذا كان باستطاعتكم تداركه أم لا ، فهو خطر ابتلاع نمط الحياة الأمريكية لهويتكم الإسلامية والشرقية .

ولأسارع بالقول إني لست ضد الاستفادة من الأوجه الإيجابية لهذه

الحياة . بل لقد نعيت على المسلمين في تكساس عزوفهم عن الاختلاط بالأمريكيين ، وعن إتقان لغتهم ، وعن تبني ما هو جدير بأن نقتبسه من قيمهم وأفكارهم وأسلوب عيشهم . غير أني هنا قد لمست كذلك من الجوانب السلبية ما صبغ سلوك بعضكم بصبغته ، وأطاح بشخصيته الإسلامية المتميزة وهويته . وقد عبّر لي الدكتور عمر الألفي ليلة أمس عن مخاوفه الشديدة وقلقه على أفراد الجيل الجديد من المسلمين في ولاية كاليفورنيا بالذات حيث ينتشر تعاطي المخدرات والشذوذ الجنسي وصنوف جرائم العنف وحوادث الاغتصاب والسرقة المسلحة . واستشففت من حديثه أن أحد دوافعه ودوافع الدكتور حتحوت إلى تعزيز نشاط المركز الإسلامي ، وإيلاء الشباب اهتمامهما الخاص بتنظيم الاجتماعات والرحلات بل والاحتفالات الترفيهية البهيجة لهم ، هو الخوف من أن يتمكن هذا النمط من الحياة بمضي الوقت من إهدار إسلامهم وقيمهم وتقاليدهم .

وقد قفز إلى ذهني إذ أستمع إليه حديث امرأة امريكية إليّ في الطائرة التي أقلتني إليكم عن سر احتفاظ لوس أنجلوس بخضرتها وسط أميال وأميال من الصحراء القاحلة ، ورغم انعدام الأمطار فيها . فمرشّات الماء تعمل صباح مساء ، وصيف شتاء ، ولولاها لأضحت لوس أنجلوس قطعة من الصحراء في جفاف الموت . فإسلامكم وتقاليدكم وهويتكم هنا في المهجر أشبه شيء بوضع مدينتكم . والخطر الذي يتهدّدكم كمثل الخطر الذي يتهدّدها . والجهد الذي لا يكل ولا يمل المطلوب منكم كذلك المطلوب منها . ولقد لمست هنا بعض المقاومة من شبابكم ، وجهداً ضخماً من جانب القائمين على أموركم . غير أني أقولها صراحة إنهما غير كافيين لدرء الخطر .

لقد تبينت لدى أفراد الجماعات الإسلامية في تكساس جهلاً فاضحاً بالتاريخ الإسلامي . وجهلكم به هنا في كاليفورنيا أعظم ، رغم كل محاضرات الدكتور الألفي والدكتور حتحوت . بعضكم لم يسمع في حياته بالخليفة عبد الملك بن مروان ، ولم تصل إلى مسامعه أخبار محنة خلق

القرآن ، والبعض ردّ على سؤالي عن أسماء الخلفاء الراشدين فوضع عمر بن الخطاب بعد عثمان . وعندي أن العقيدة الإسلامية لا يمكن فهمها فهما حقيقياً دون دراسة شديدة التعمق لتاريخ الإسلام ، بالنظر إلى أن الكثير من أحكامها قد تم تفسيره أو بلورته أو ابتداعه وإقحامه على مدى قرون وقرون . ولهذا فإني أذهب إلى أن الجهل بهذا التاريخ هو بمثابة الجهل بأحد أركان الإسلام الخمسة .

قد تعتذرون بانشغالكم وضيق الوقت ، وبأن الدراسة في المدرسة أو الجامعة ، وممارسة الهوايات كالنجارة أو السباحة أو تعلم آلة موسيقية ، وحاجة الشباب وحقه في الاستمتاع بمباهج الحياة من نزهة ورياضة ورقص ، لا تترك فائضاً من الطاقة . وإني لقابل هذا العذر . غير أن قبولي له يزعزع من تفاؤلي بشأن مستقبل الإسلام لدى الجيل الجديد في المهجر . وكل ما بوسعي أن أفعله هو أن أحثّ القلّة المختارة التي تؤمن بأن لها رسالة في مضمار الإسلام ، أن تبذل جهداً خارقاً هو أضعاف الجهد المطلوب من غيرهم من أجل التبحّر في علومه ، استعداداً لأن تتلقّى الشعلة من يدي الألفي وحتحوت ، مدّ الله في عمريهما .

نقطة ثالثة . أنا أعلم أن قيادتكم تسعى إلى غرس مبادىء إسلام مستنير ، وتُسقط كل ما يتصل بالخلافات المذهبية ، ولا تقيم اعتباراً لما هو دون الهوية الإسلامية ، ولا تفسح المجال للأعراق القومية أو النزعات السياسية المتضاربة . غير أني رأيت أثناء إقامتي الطويلة بينكم عدداً من الناس يسعى إلى تخريب هذا الجهد . فإن كانوا لا يزالون قلّة وسطكم ، فقد أكّد لي إخوان لكم أن عددهم في ازدياد . بعضهم خبيث القصد يريد بذر بذور الفرقة ، والبعض مأجور يكفّر الشيعة ، والبعض لا شك عندي في أنه يعمل لحساب دول يهمّها ويخدم مصالحها الحيوية أن تبقى الأمة الإسلامية على تخلّفها وإنحطاط شأنها . وما من شيء يضمن استمرار هذا التخلف وهذا الانحطاط قدر ما يضمنه إيهام المسلمين بأن قضية القضايا ، وأُسّ الإسلام ،

وجوهر العقيدة ، مما لا يجدر بالمسلمين أن يكترثوا إلاّ به ، هي طول الجلباب أو طول اللحية ، أو خمار المرأة أو نواقض الوضوء .

هؤلاء الناس ، فقهاء الحيض والنّفاس ، قد استمال بعضكم إلى فكره على ما سمعت ، ونفّر بعضكم من الإسلام بأسره على ما فهمت . وكلا الاستمالة والتنفير مما تسعى تلك الدول المعادية للإسلام إلى تحقيقه . فانتشار أفكار هذه الجماعات كفيل بأن يعود بأمة المسلمين إلى الوراء ، في حين يخطو غيرها من الأمم خطوات واسعة في طريق التمدن والعمران . وتنفير شبابنا من الإسلام برمّته كفيل بأن يزيد من تهلهل نسج الأمة ، وفقدانهم الصلة بمجتمعهم وتراثهم وهويتهم الحضارية .

مثل هذا التركيز على التافه غير الجوهري ، ومثل هذا التزمت الكئيب ، والروح العدوانية ، والهجر للب الدين وحقيقته وسماحته ، ومعاداة التقدم والتطور ، وهو ما لمسته لدى أكثرية المسلمين في تكساس ، والأقلية هنا ، هو بالضبط ما أدّى بالمسيحيين في أوروبا في عصري النهضة والاستنارة ، إلى أن يديروا ظهورهم للكنيسة ، وأن يطرحوا الدين كله باعتباره من السمات اللصيقة بالتخلف . رأوا الكنيسة تناهض العلوم ، وتقاوم البحث الحر ، وتقمع الحريات ، وتكفّر الرأي الجريء ، وتحرق المفكرين المخلصين من أمثال چوردانو برونو ، وميجويل سيرفيتوس ، وتطرد سباستيان كاستيليو الشجاع من حظيرتها ، وتزج بجاليليو في السجن وترغمه على التراجع عن آرائه التي ثبتت بعد ذلك صحتها . ورأوها قد أشعلت في قارتهم الحروب والفتن ، ودبرت المذابح ، وأقامت محاكم التفتيش، وخلقت جواً من الإرهاب واختنقت فيه القرائح ، وأزهقت الأنفس ، وسالت فيه دماء الملايين من الأغبياء أو الأبرياء بحيث بلغ عدد ضحايا الحروب التي كان اختلاف الآراء الدينية سبباً في اشتعالها ، أضعاف أضعاف العدد الذي راح ضحية غيرها من الحروب . فكان أن تحوّل الغرب إلى العلمانية ، وضيّق أهله الخناق على الكنيسة وعلى رجال الدين ، بعد أن ضيّقوا الخناق عليهم لمئات السنين .

وأخشى ما أخشاه إذ أرى في عالمنا الإسلامي اليوم ما أرى ، وبعد أن رأيت في الولايات المتحدة من حال المسلمين ما رأيت ، أن يتكرر حدوث مثل هذه الظواهر عندنا : فتن طائفية ، وحروب أهلية ، ونزاعات دموية بين الدول المسماة بالإسلامية ، ومحاكم تفتيش ، وإعلان حرمان ، وتوزيع صكوك غفران ، واتهام في العقيدة ، وتكفير البعض للبعض ، وإهدار لحرية الفكر ، وإرهاب للمفكرين الجادّين ، وللباحثين والعلماء المجدّدين ، وقيادة للعميان قد تولّاها المجانين ، وزعامة روحية وسلطة مطلقة للدجالين المشعوذين . أناس قد وصفهم الجبرتي في تاريخه بقوله :

« قد افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ القرآن ، مع ترك العمل بالكلية ، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الأقدمين ، واتخذوا الخدم والأعوان ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب ، ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة ، وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية . . . وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس ، وانهمكوا في الحظوظ النفسانية ، والوساوس الشيطانية ، ومشاركة الجهال في المآثم ، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهائم ، فتراهم في كل دعوة ذاهبين ، وعلى الخوانات راكعين ، وللكباب والمحمّرات خاطفين . . . » .

إنني لا أرى ما هو أفضل في هذه الدنيا من التقوى الصادقة . غير أني لا ارى ما هو أبشع وأفظع وأقبح من صنع هؤلاء المرائين المحترفين للتقوى ممن يتاجرون في الدين ، ويخدمون مصالحهم الدنيوية بتصنّع الخشوع ، ولا أرى ما هو أخطر على مجتمعنا من التجائهم لسلاح يوقّره العامة ضد كل فكر حر ، مستغلّين احترام الناس لهم وللدين لهدم كل من يحاول فضحهم بمعول الدين المقدس .

فلتحرصوا إذن حرصكم على أرواحكم على التفرقة بين التدين الحق والرياء ؛ بين الذين كرسوا حياتهم بأسرها لخدمة الدين الحق ، ونشر تعاليم الإله الحيّ ، وبين أولئك الذين تأمرهم هذه الجهة أو تلك ، بالدفاع عن هذه القضية أو تلك ، ومهاجمة هذا المفكر أو ذاك ، في مقابل حفنة من الدولارات ، أو ساعات من الذهب .

ولن يدرك هؤلاء الذين باعوا آيات الله بثمن-هو على أي الأحوال - بخس ، لن يدركوا نتيجة فعالهم ، وثمرة نشاطهم ، إلا حين تتحول بلادهم إما إلى بحر من الدماء ، أو كهف من كهوف إنسان العصر الحجري .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

(تمّت الرسالة)

١٧

الإسلام في الاتحاد السوفييتي

الاسلام الأحمر

هنا أيضاً ، كما في الولايات المتحدة ، وجدت الكثيرين من المسلمين يؤمنون بأن الإسلام الحق سيخرج على العالم الحديث من بين ظهرانيهم : إسلام يقدّم لأبنائه التوليفة الرائقة السليمة التي سعى جمال الدين « الأفغاني » جاهداً من أجل التوصّل إليها ، بين التراث والتقاليد من ناحية ، وبين طريق التمدن والعمران من ناحية أخرى . إسلام مستنير يمسك في ثبات وثقة بزمام الأمرين معاً .

لقد خاضت الأمة الإسلامية طوال القرنين الماضيين العديد من التجارب الشاقة المؤلمة ، خرجت منها جميعاً منهكة لاهثة مهيضة الجناح . بدأت بالظن أن تخلّفها عن الغرب في مضمار التسلح هو سبب ما منيت به من هزيمة وإذلال . فحاولت جاهدة اللحاق به باستيراد أسلحته واستخدام خبراته وضباطه في تدريب جيوشها . غير أنها سرعان ما أدركت أن الحضارة غير قابلة للتجزئة ، وأنها إن أرادت الاقتباس من النظم العسكرية الأوروبية فعليها أن تقبل الحضارة الغربية برمّتها وحذافيرها . حينئذ شرع المسلمون في تبني النظم الدستورية ، وأقاموا مجالس نيابية كانت أشبه شيء بتمثيلية هزلية يقلّد فيها الممثلون ما رأوه يجري في الغرب أو سمعوا أنه يجري فيه . وسرعان ما أدركوا أنه لا بدّ لنجاح

النظم الدستورية وازدهار حياة ديموقراطية حقة من رجال أحرار ونساء متحررات قادرين وقادرات على التصدي بكفاءة لمسؤوليات جسيمة . غير أنه لا مفر من أجل إعادة خلق المسلم الحرّ من قلبْ نظم التعليم رأساً على عقب ، وتحرير الأسرة المسلمة من ربقة استبداد الأب والزوج ، وتحرير الشعوب الإسلامية من نير الاستعباد السياسي ، ووضع حدّ صارم لما يتمتع به رجال الدين من نفوذ فكري رجعي . ودون كل هذا أهوال ومصاعب جمّة ليس أهونها شأنا الافتقار إلى الرؤية الواضحة ، وثقل وطأة التقاليد ، وضحالة فكر المفكرين ، وتفاهة شأن القائمين على نظم التربية والتعليم . وكانت النتيجة المذهلة لكل هذه التجارب التي استغرقت ، كما قلنا ، قرنين من الزمان ، أن ظلت دول العالم الإسلامي من أشدّ دول العالم تخلفاً في مضمار السلاح ، فإن استخدموا هذا السلاح المشترى من الغرب أو الشرق لقاء دماء شعوبها وعرقها ، فضدّ دول إسلامية أخرى ، أو ضد طوائف من أبنائها هي ، وأن تعاقبت الانقلابات العسكرية التي أطاحت بالحياة النيابية والدستورية ، أو جعلت منها شبحاً هزيلاً بعد أن كانت شبحاً سميناً ، وأن ظلّت نظم التعليم في أيدي أناس بلا فكر أو مخيلة أو حتى ثقافة .

وهنا يبرز الإسلام الأحمر مدّعياً لنفسه القدرة على توفير الحلول ، والحق في إرشاد أمة المسلمين بأسرها إلى الطريق السوي . بعض مفكّريه يعبّر عن آرائه في مثالية خاوية ، فنسمع منه جعجعة ولا نرى طحناً . وأبرز هؤلاء رجلان هما الملاّ نور ڤاخيتوف ، وسلطان جالييف التتري . ويرى الرجلان أن تحرير البشرية بأسرها إنما سيأتي على يد المشرق بعد تحرّره على يد التتر الشيوعيين في الاتحاد السوفييتي . فإذ تسود الأنظمة الاشتراكية العالم كله ، يأتي دور المسلمين المستنيرين ، فيطعّمون الحضارة العالمية المشتركة بالثمار الجليلة الجميلة ، والثقافة العريقة العميقة ، للحضارة العربية القديمة التي ستنير الطريق للإنسانية . ويضيف الثاني أن الصراع الحقيقي في هذا العالم ليس صراعاً طبقياً بين الرأسماليين والبروليتاريا في الدول الصناعية ،

بقدر ما هو صراع بين الأوروبيين والمشرق الذي فقد استقلاله ونُهبت ثرواته ، الغارق في بحر جهالته وخزعبلاته . وبتحرير طاقات المشرق الخلاقة يتحرر العالم كله ، بما فيه أوروبا وأمريكا . وأقدر الناس على قيادة حركة تحرير الشرق هم التتر ؛ فهم اكثر مسلمي العالم استنارة وتحرراً من ربقة الخرافات ، وأعظمهم إقبالاً على تحصيل العلوم النافعة ، وأحسنهم تدريباً على مقاومة الطغيان .

وربما اغتفرنا للرجلين فجاجة فكرهما وسذاجته ، ونزوعهما إلى الأسلوب الخطابي ، حين نعلم أن نشاطهما الفكري قد توقف في مرحلة مبكرة لم تسمح بنضجه. فقد توفي الأول عام ١٩١٨ عن ثلاثة وثلاثين عاماً، وحكم على الثاني عام ١٩٢٩ بالسجن لمدة عشر سنوات ، (وكان وقتها في الرابعة والثلاثين) ، ثم اختفى بلا أثر بعد الإفراج عنه ، ويعتقد أن ستالين قد أمر بقتله عام ١٩٤٠ . ومع ذلك فإننا نجد أعظم المفكرين المسلمين السوفييت ، وأكبرهم حظاً من النضج والعلم والاتزان ، وهو عبد الرؤوف فِطرة (بكسر الفاء) ، قد شارك الرجلين نفس المصير ، إذ أمر ستالين باعتقاله عام ١٩٣٧ وهو في الثامنة والثلاثين من العمر ، ولم يسمع عنه بعد ذلك قط .

عبد الرؤوف فِطرة

في اعتقادي الخاص أن هذا الرجل هو أعظم من ظهر من المفكرين المسلمين منذ جمال الدين « الأفغاني » والشيخ محمد عبده ، إلا إذا استثنينا الكاتب الإيراني أحمد كسروي الذي اغتيل عام ١٩٤٦ في طهران . ولد في بخارى في آخر القرن الماضي ، وعمل مدرساً قبل أن يتفرّغ كلية لتأليف الكتب ، وتحرير المقالات للمجلات والصحف ، ونظم الشعر ، ولنشاطه في حركة « الجديديين » في بخارى التي كانت تستهدف إصلاح نظم التعليم . وقد أضحى عبد الرؤوف بعد الثورة البلشفية الزعيم الأيديولوجي لحزب سياسي ديني هو حزب « شباب بخارى » ، وعين قبل أن يتجاوز العشرين بكثير

وزيراً للمعارف في جمهورية بخارى الشعبية ، فوزيراً لخارجيتها . وإذ ألغيت هذه الجمهورية عام ١٩٢٤ ، أبى عبدالرؤوف الاشتراك في حكومة جمهورية أوزبكستان ، عكس زميله القديم في الكفاح فيض الله خوجائيف أبرز زعماء الجديديين ، الذي عين رئيساً لوزراء هذه الجمهورية ، وظل في منصبه حتى فصل منه عام ١٩٣٧ ، ثم اعتقل واتهم بالخيانة والتآمر على استقلال تركستان ، وأعدم عام ١٩٣٨ وهو في الثانية والأربعين من العمر . أما عبد الرؤوف فطرة فقد انصرف إلى التدريس في جامعة سمرقند حتى قبض عليه عام ١٩٣٧ .

والجدير بانتباهنا هنا ، بل بانتباهنا الشديد ، هو ذلك الموقف العدائي الواضح الذي اتخذته الحكومة السوفييتية من حركة « الجديديين » ، رغم أنها حركة تقدمية مستنيرة تدعو إلى الأخذ بالطرائق الحديثة في نظم التعليم ، وتناهض الرجوع في الثقافة والفقه إلى القديم دون تمحيص علمي له ، وتحثّ مسلمي روسيا على الاشتراك في التطور الثقافي والاجتماعي لروسيا ، وعلى تعلم اللغة الروسية التي كان معظمهم يجهلونها ، بل وتحرص على التعاون الوثيق مع الشيوعيين . وقد لقي الجديديون مقاومة شرسة من الملاّوات والقديميين ذوي الأفكار التقليدية والاتجاهات الصوفية . ومع ذلك فقد أيّدت الدولة هؤلاء القديميين وساعدتهم ، في حين كشّرت عن أنيابها للجديديين واعتبرتهم عملاء للإمبرياليين ، إلى أن قضت في النهاية عليهم قضاء مبرماً . وهو أمر خليق بأن يدفعنا إلى التفكير المدقّق في طبيعة مواقف الدول الكبرى من الحركات الإسلامية الرجعية والمستنيرة ، داخلها وخارجها ، وفي الاعتبارات المعقّدة التي تحكم تكييف هذه المواقف .

فأما عن كتابات فطرة فتتصل كلها بأسباب التدهور الروحي والدنيوي لأمة المسلمين ، واقتراح سبل إصلاح أحوالهم . فهو يرى أن العقيدة الإسلامية قد أصابها على يد علمائها البِلَي والتحجّر ، وأثقلها الجمود والخزعبلات وخرافات العامة ، ولا سبيل إلى الخلاص إلا بالعودة إلى

ديناميكية الديانة التي عرفها الإسلام في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإلا بتحزير المسلمين من العبودية الفكرية والتقليد .

وكان من رأيه أن الإصلاح الحقيقي لحال المسلمين في كل مكان لا بدّ أن يبدأ بوضع نظام صحيّ سليم متين لتعليم أبناء الأمة ، يعيد إليهم المفهوم الصحيح لدين الإسلام. فتعليم الفرد وإصلاح نمط تفكيره ومنهجه شرطان جوهريان لإصلاح حال الأمة بأسرها . وعنده ، كما عند محمد عبده ، أن نظم التعليم الراهنة في العالم الإسلامي فاسدة إلى درجة أنه قد بات عاجزاً حتى عن إدراك مدى فسادها . والتعليم السليم في رأيه هو ذلك الذي يقصر اهتمامه على المفيد النافع ؛ المفيد لحياة المسلم الروحية ، والنافع له في تدبيره لشؤونه الدنيوية . فهو يرفض جلّ علوم القدماء التي لا تعين المسلم على مواجهة واقعه وعصره ، ويصرّ على إخضاع كافة فروع المعارف الإسلامية لمناهج البحث العلمي الصحيح ، ويرفض الانصياع الأعمى لأحكام السلف .

وهو مع كل هذا ينكر أن يكون الإسلام في حاجة إلى اقتباس أي شيء من الغرب، ولا حتى منهج ديكارت ، أو إلى التطلع إلى الغرب كمثل أعلى يجدر بالمسلمين محاكاته . فكل ما أسهم في الإعلاء من شأن الغرب مقتبس من حضارة الإسلام . غير أن هذه الحقيقة لا ينبغي أن تخفي عن المسلمين الضرورة الملحة لتغيير أسس مجتمعهم الراهنة . فالإنسان في رأيه قادر على التحكم في كل ما حوله : في إخضاع قوى الطبيعة لسلطانه ، وفي تكييف مصيره هو . فإن أراد المسلمون مواءمة الإسلام لاحتياجات العصر الذي يعيشون فيه ، فعليهم أن يعيدوا النظر في كافة العلاقات الاجتماعية السائدة عندهم ، بل وقلبها رأساً على عقب ، قلباً يسمح بتوزيع للثروات أكثر عدلاً ، ويضمن تحرير الفكر ، وهو ما ليس مخالفاً لروح الإسلام أو تعاليمه . فعنده أن أحد أسباب تدهور حال الأمة هو أن الإسلام قد بات يشكّل أيديولوجيا الطبقات الثرية . كذلك فإنه من المهم للغاية إصلاح العلاقات العائلية ، بل

إعادة تأسيسها على أسس جديدة كل الجدّة لا صلة لها بالماضي . وأهم هذه الأسس هو الإعلاء من شأن المرأة وتحسين وضعها ، والقضاء على كافة المفاهيم والأحكام والأنظمة الخاصة بالعلاقات الإنسانية التي هي من مخلفات قرون طويلة اتّسم خلالها الفكر الإسلامي بالجمود والتعفّن . وتحرير المرأة والعائلة والعلاقات الإنسانية هو أول خطوة في سبيل تحرير المجتمع ، وتأسيس الدولة الحديثة ، وتحرر الشعوب الإسلامية من الاستعمار والاستغلال الأجنبيين اللذين جاءا نتيجة لتدهور حال أمة الإسلام . غير أن السعي في سبيل تحرير المجتمع لا بدّ أن يمضي جنباً إلى جنب ، وفي آن واحد ، مع جهد الفرد من أجل تحرير ذاته لا بعده . والجهاد فريضة على كل مسلم ، وسيسهم جهاد الفرد في سبيل إعادة بناء قواه الروحية في تعزيز جهاده في سبيل نصرة الدين الحق . ثم يمضي فيقول :

« إجمعوا بين علوم الأقدمين وعلوم المحدثين ، وسيكون بوسعكم عندئذ أن تضعوا الأساس المادي الذي لا غنى عنه في سبيل نصرة الإسلام » .

فعند فطرة إذن ، كما عند « الأفغاني » ، نرى نهضة الإسلام متوقفة على المسلمين أنفسهم ، وهي نهضة لن تتحقق إلا بالعمل الجاد ، والمواقف الإيجابية من الحياة ، وهجر السلبية والتوكل ، واستئصال شأفة ذلك العزوف عن النهوض بالمسؤولية الذي يميز أمة المسلمين اليوم .

حال المسلمين السوفييت اليوم

تلك نبذة سريعة عن فكر عبدالرؤوف فطرة ، تغمّده اللّه برحمته حياً كان اليوم أو في عداد الموتى . وقد كان لصديقي وأستاذي الدكتور مراد غالب ، وزير الخارجية الأسبق ، فضل تنبيهي إلى أهمية هذا الرجل ، وإلى ضرورة نهوض البعض عندنا في العالم العربي بترجمة أهم أعماله إلى العربية من اللغة التركية أو الفارسية أو الروسية ، وهي : « المناظرة » ، و « العائلة » ، و « السائحة » ، و « النجاة » و « البيانات » . كذلك فقد تكرّم صديق لي يعمل

بالسفارة المصرية في موسكو بتخصيص أمسية كاملة للردّ على سؤال مني عن حال المسلمين السوفييت اليوم، وهو ردّ أوجزه فيما يلي :

كان سؤالي : كيف تفسّر أنه في الوقت الذي نجحت فيه غالبية الشعوب المستعمرة في نيل استقلالها عن الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والبرتغالية والهولندية وغيرها ، لا تزال الأقطار التي وقعت في براثن روسيا القيصرية داخل نطاق الاتحاد السوفييتي ، ولا تزال الحدود السوفييتية في آسيا إلى اليوم هي نفسها حدود الامبراطورية الروسية عام ١٩١٤ دون تغيير عدا ذلك الجزء الصغير من أرمينيا الذي استولت عليه الروسيا من الدولة العثمانية عام ١٨٧٨ ثم استردّه الترك عام ١٩٢٠ ؟ أو بعبارة أخرى : ما السر في أنه بالرغم من كل ذلك الغليان والتوتر والنضال اللفظي على الأقل ضد الخطط الامبريالية في العالم الإسلامي خارج روسيا ، نرى شعوب الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي بمنأى عن هذه التيارات ، لا نكاد نسمع صوتاً ينادي باستقلال ، ولا عن حركة تدعو إلى انفصال ، ولا مطالبة بحقوق أوسع للمسلمين ، ولا إدانة لاستغلال من جانب المستعمرين الامبرياليين ؟ هل يعني هذا أن الحكم السوفييتي في كازاخستان مثلاً أو أذربيجان ، أخف وطأة من حكم الشاه والسافاك في إيران ؟

قال :

الكل يعلم أن نشر الإلحاد العلمي ، واستئصال الأفكار والمشاعر الدينية ، غرضان جوهريان من أغراض السلطة في الاتحاد السوفييتي . فهنا متحف للإلحاد ، ومعهد للإلحاد ، ومسابقات تُنظَّم وجوائز تقدّم لأفضل المؤلفات الأدبية والمسرحيات والأفلام واللوحات الفنية ذات المضمون الإلحادي ، وحلقات دراسية ينظمها الحزب الشيوعي ولجان الكومسومول والجامعات واتحادات المشتغلين بالفنون تهدف إلى تخليص الأفراد من رواسب الأفكار الدينية ، وشن حملات أيديولوجية واسعة النطاق من أجل صرف الناس عن الدين ، كما يتخصص بعض الطلبة في الكليات التي تدرس

العلوم الإنسانية في دراسة الإلحاد العلمي ، للاشتراك بعد التخرج في مشروع يهدف إلى غرس الإلحاد لدى تلاميذ المدارس السوفييتية .

ومع هذا فمن المؤكد أن عداء السلطة للإسلام أخفّ من عدائها للمسيحية واليهودية . قد نرجع ذلك إلى أن الإسلام أكثر الأديان إصراراً على العقلانية ، وعلى إعمال الفكر والمنطق في سبيل التوصل إلى الحقيقة الدينية . كما قد نرجعه إلى اعتبارات سياسية محضة ، أهمها الحرص على مراضاة مسلمي الاتحاد السوفييتي ، والحيلولة دون تأثرهم بالحركات الثورية في العالم الإسلامي خارجه تأثراً قد يدفعهم إلى المطالبة بالاستقلال ، وكذا الحرص على سمعة الاتحاد السوفييتي لدى شعوب الدول الإسلامية . فمحاربة المسيحية لم تعد تثير استياء الغرب العلماني . واضطهاد اليهود لا يثير مشاعر عدائية سوى لدى إسرائيل ولدى عدد لا يؤبه به من اليهود والمسيحيين خارج إسرائيل . أما محاربة الإسلام فكفيلة بإثارة مشاعر الملايين من المسلمين ، وإثارة عدائها للنظام السوفييتي ، ونفورها من النظرية الشيوعية .

ثم أشرع بعد تلك المقدمة في الإجابة على سؤالك ، فأقول إن ثمة نظريات أربع تتردّد في هذا الصدد :

النظرية الأولى
« ثمة تمرّد لا نسمع عنه »

يذهب البعض إلى إنكار القول بأن الشعب الإسلامي في الإتحاد السوفييتي هو بمنأى عن التيارات الثورية التي يعرفها المسلمون خارجه ، وأنه مبارك للنظام الذي يعيش في ظله ، قانع به ، راض عنه . كل ما في الأمر هو أننا لا نسمع ، أو نادراً ما نسمع ، عن تمرد وعصيان ، وسخط وغليان . فكما أن جهلك بمعنى كلمة صينية لا يعني أنه لا معنى لها ، فإن عدم سماعك الأخبار عن توتر أو معارضة في مكان ما لا يعني أنهما غير قائمين . فالنظام السوفييتي نظام مغلق . والصحافة وسائر وسائل الإعلام فيه في يد الحكومة أو

الحزب . وبالتالي فإنه من النادر أن يسمع العالم الخارجي ، أو الشعب السوفييتي نفسه ، عن حركة تمرد حدثت ، أو مظاهرة قامت وقمعت ، أو ساخط قد اعتقل ، أو ثائر قد قتل ، أو أي خبر يزعزع من الاعتقاد بأن كل شيء داخل الاتحاد هو على ما يرام .

ومع كل هذا فقد تناهت إلى العالم الخارجي أخبار محاكمات لبعض قادة المسلمين في طشقند وبخارى وغيرهما بعد هياج حدث عقب نجاح ثورة إيران . كما تناهت إلينا أخبار انحياز أعداد غفيرة من الجنود المسلمين في القوات السوفييتية بأفغانستان إلى صفوف الثوار فيها ، حتى باتت الحكومة السوفييتية تحجم الآن عن إرسال جنود مسلمين ، بعد أن كانت تحسب أن إرسالهم كفيل بأن يهدّىء من مخاوف الأفغان ، وبأن يخلق رابطة أخوية بين الغزاة وبين المستعمرين .

النظرية الثانية
« ثمة يأس من جدوى التمرد »

غير أننا حتى لو قبلنا هذه النظرية الأولى ، فلا شك أن وضع مسلمي الاتحاد السوفييتي هو اليوم أبعد ما يكون عن وضع الجزائريين مثلاً خلال الخمسينات ، عشية استقلالهم عن فرنسا . وهو ما ينقلنا إلى النظرية الثانية القائلة بأنه حتى مع وجود السخط بين المسلمين السوفييت ، وإحساسهم بضرورة نيلهم الحكم الذاتي ، أو حتى مجرد حقوق أوسع ، فهم لا يجرؤون على التمرد والتعبير عن مظالمهم أو مطالبهم ، لإدراكهم أنه ليس ثمة بصيص من الأمل . فالنظام السوفييتي وطيد العزم على الحفاظ على وحدة الدولة وكيانها ، ثابت النية بصدد استئصال شأفة كل تمرد أو بوادر تمرد . فإن كان الضعف الذي طرأ على بريطانيا أو هولندا أو البرتغال قد شجع شعوب مستعمراتها على شن النضال من أجل الاستقلال حتى حصلت عليه ، فإن النظام السوفييتي يزداد قوة يوماً بعد يوم . وإن كانت العناصر الديموقراطية أو أنصار الحرية والمثل القديمة العليا في الولايات المتحدة قد تدفع الإدارة

الأمريكية في بعض الأحيان إلى تخلٍّ عن مساندة حاكم ظالم كشاه إيران ، أو التنكر لنظام فاشي كنظام سوموزا ، فإن الحكومة السوفييتية لا تشكو من وجود مثل تلك العناصر الكفيلة بإرباك خطواتها ، وتذبذب سياساتها . والمؤكد أن شعوب الجمهوريات المؤلفة للاتحاد ، شأنهم في ذلك شأن شعوب أقطار أوروبا الشرقية ، تدرك أن أية حركة انفصالية ، أو أية دعوة إلى الثورة ، أو أي تحدّ للحكم الشيوعي ، كفيل بأن تبادر الدولة السوفييتية من فورها بسحقها .

النظرية الثالثة

« ثمة انحسار في العقيدة »

أما أنصار النظرية الثالثة فيذهبون إلى أنه ليس ثمة تمرد ولا رغبة مكبوتة في التمرد . لقد مضى على تأسيس النظام الشيوعي سبعة وستون عاماً كان شديد الحرص مثابر الجهد خلالها على غرس مبادىء الشيوعية والإلحاد في النفوس والعقول . ولا مفرّ من الاعتقاد بأن هذا الجهد القوي المستمر قد أفلح في صرف عدد كبير من المسلمين عن دينهم وتراثهم الإسلامي ، أكثر مما أفلح الاستعمار البريطاني لمصر مثلاً ، أو الاستعمار الفرنسي لشمال أفريقيا ، في هذا المضمار . فالغالبية في الجمهوريات المسماة بالإسلامية في الاتحاد السوفييتي هم شيوعيون قبل أن يكونوا مسلمين ، وولاؤهم هو للدولة السوفييتية لا لدار الإسلام ، والأولوية في تعاطفهم هي للشعب السوفييتي لا لشعوب الأقطار الإسلامية خارج الاتحاد .

وكيف يمكن لهؤلاء أن يبقوا على إسلامهم ، أو يتبحّروا في علوم دينهم ، والسلطات دائبة على تحويل المساجد إلى نواد ودور للسينما وقاعات اجتماعات ، والمصاحف نادرة لا تحوزها إلا قلة ، ودفع الزكاة ممنوع ، وعدد الحجاج إلى مكة محدود ، وصيام رمضان مغضوب عليه لأنه يؤدي إلى خفض الإنتاج ، والمسارح تعرض من آن لآخر مسرحيات مثل مسرحية « محمد » لفولتير ، تشوّه صورة النبي عليه السلام ، وصورة تعاليم الإسلام ؟

لقد قفز عدد مسلمي الاتحاد السوفييتي من ١٨ مليون عام ١٩١٧ ، إلى نحو خمسين مليون . ومع ذلك فقد هبط عدد المساجد من ثلاثين ألفاً عام ١٩١٧ إلى بضع مئات . وصلة المسلمين السوفييت بسائر المسلمين محدودة إن لم تكن مفقودة . وعلمهم بالتيارات الفكرية السائدة في العالم الإسلامي خارج الاتحاد في حكم المعدوم . فهل لنا أن نتوقع بعد هذا كله إسلاماً قوياً يدفع إلى رغبة في انفصال ، أو إلماماً عظيماً وإيماناً جيّاشاً يخلقان شخصية متميزة ؟

النظرية الرابعة

« المستقبل للإسلام السوفييتي »

وتنكر النظرية الرابعة صحة هذه النظريات الثلاث السالفة بقوة . فهي تذهب إلى أن الإسلام في الاتحاد السوفييتي اليوم هو في وضع يؤهله لتولي القيادة المستنيرة الفتية للحركات الإسلامية في كل مكان ، وأن المسلمين السوفييت هم أبعد ما يكونون عن السخط والنزوع إلى التمرد والإحساس بتجاهل السلطات لاحتياجاتهم وتقاليدهم وشخصيتهم المتميزة . فالنظام السوفييتي ليس كتلك الدول الأوروبية الاستعمارية والولايات المتحدة التي لا يعنيها غير نهب المستعمرات وتسويق المنتجات . ولو أنصفنا لرأينا أن هذا النظام السوفييتي يسعى جاهداً وفي إخلاص إلى النهوض بالمستوى الحضاري والثقافي والمادي للمسلمين في الاتحاد ، وإلى التقريب بين هذا المستوى الذي كان شديد الانخفاض قبل الثورة الشيوعية ، بل وقبل ضم روسيا القيصرية لأقطارهم ، وبين مستوى سائر الجمهوريات ، وإلى الحفاظ على التراث الإسلامي وتنميته . فإن أبيت قبول شهادة السوفييت ، فاقرأ تقرير اللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة الذي يؤكد أن مستوى المعيشة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية حيث يقطن المسلمون ، أرقى بكثير من مستواه في الدول الآسيوية المجاورة، وأنها ، عكس الكثير من دول العالم الثالث ، لا تعرف بطالة ولا أحوال إسكان مزرية ولا ذلك النمو السريع غير المخطط في عدد سكان المدن . أو اقرأ ما كتبه جيفري ويلر أكبر خبير بريطاني

بأحوال المسلمين السوفييت عن التطورات الرائعة التي حدثت في اقتصاديات هذه الجمهوريات في ظل النظام السوفييتي ، وعن انخفاض نسبة الأمية فيها من ٩٦٪ عام ١٩١٧ إلى أقل من ١٠٪ اليوم . فإن كان متوسط دخل الفرد في تلك الجمهوريات أقل من متوسط دخل الروسي الأوروبي ، فإن السبب الرئيسي في ذلك هو أن حجم العائلة المسلمة هو في العادة أكبر من حجم العائلة الروسية .

أضف إلى ذلك أن السياسة السوفييتية الخاصة بالقوميات ، والحريصة كل الحرص على إنماء ثقافات القوميات السوفييتية وتراثها ولغاتها ، ليس ثمة مثيل لها في تاريخ الامبراطوريات الأخرى . ولعلك قد رأيت بنفسك أثناء زياراتك لطشقند وسمرقند وبخارى كيف تبزّ عناية السلطات السوفييتية بآثار الإسلام التاريخية عناية الأقطار الإسلامية الأخرى بهذه الآثـار ، وروعة احتفالاتهم بذكرى عظماء الإسلام ممن ولد أو عاش في أراض هي الآن داخل حدود الاتحاد السوفييتي مثل ابن سينا والإمام البخاري .

ثم فارق آخر بين الاتحاد السوفييتي وتلك الامبراطوريات الأخرى خلاصته أنه ليست ثمة حدود تفصل بين روسيا وبين مستعمراتها كتلك التي كانت تفصل بين المستعمرات وبين بريطانيا وفرنسا وغيرهما . فالجمهوريات غير الروسية الداخلة في الاتحاد السوفييتي متاخمة لروسيًا ، مما يجعل هذا التوسع طبيعياً بعض الشيء، وهذا الإدماج مشروعاً بعض الشيء .

ويصر أنصار هذه النظرية على أن العقيدة الدينية لدى المسلمين السوفييت أنقى ألف مرة منها في الأقطار الإسلامية الأخرى . فهي بفضل الروح العلمية السائدة في الاتحاد السوفييتي ، وضآلة نسبة الأمية ، وارتفاع مستوى التعليم ، ومقاومة السلطات لانتشار الخزعبلات والممارسات الضارة ، لا تعرف غير قدر جدّ بسيط من الخرافات وأوهام العامة التي تخفي وجه الإسلام الصحيح في الدول الإسلامية الأخرى . فأما عن علماء المسلمين السوفييت ومُلّاواتهم ، فعندهم من العلم ما لا يقل عن علم العلماء المسلمين الآخرين . والأهم من هذا كله أنهم في دروسهم ومواعظهم وخطبهم وكتبهم

يستبعدون كل أو جُلّ ما ترفضه الروح العلمية ويأبى العقل أن يأخذ به أو يذعن له ، فيركّزون في ميدان الحديث مثلاً على تلك الأحاديث النبوية التي تحضّ على طلب العلم ، واحترام المرأة ، والعناية بتربية الطفل ، والتسامح وسعة الصدر ، والنظافة ومساعدة الجار ، والعمل الصالح والموقف الإيجابي النشط من الحياة ، دون الأحاديث الموضوعة الخاصة بحجم عجيزة الحوراء في الجنة ، والتمرات السبع التي تلغي أثر السم والسحر .

فإن كان مثل هذا الموقف من الدين يبشر بمستقبل زاهر للإسلام السوڤييتي ، فإنه لمما يعزّز من الإيمان بهذا المستقبل ما نعرفه من أن عدد المسلمين هنا سيصبح خلال نحو نصف قرن من الزمان أكثر من نصف عدد سكان الاتحاد السوڤييتي . فمعدل المواليد بين المسلمين يفوق الآن ضعف المعدل بين الروس الأوروبيين . وقد زادت نسبتهم زيادة ضخمة في الصناعة وفي القوات المسلحة ، بل وفي المناصب القيادية في الحزب والحكومة . وما من شك في أنهم حين يشكلون غالبية السكان ، سيضحي لهم تأثير قوي في توجيه السياسة السوڤييتية الداخلية والخارجية ، وفي تكييف علاقات الاتحاد السوڤييتي بغيره من الدول ، وبالدول الإسلامية بالذات ، وفي المواقف السوڤييتية من قضايا المسلمين والعرب . وهو أمر لا بد أن يميل بنا إلى الاعتقاد ، على ضوء قوة الاتحاد السوڤييتي المادية والعسكرية ونفوذه في الساحة الدولية ، بأن المسلمين السوڤييت قد يحتلون مركز الصدارة بين مسلمي العالم كله في مدى نصف قرن .

* * *

قلت لمحدّثي :

ـ فأيّ هذه النظريات الأربع تقبله وتراه أقرب إلى واقع الحال ؟

قال : أتراها متناقضة لا تقبل التوفيق والجمع بينها ؟

قلت : نعم .

قال :

ـ فإني لا أراها كذلك .

المحتويات